ابراهيم الكوني

الخسوف 1









ابراهيم الكوني

الخسوف

رباعية روائية

1

البئر

طبعة مُقَوَّمة


البـــــئر

استخدمت في تصميم الأغلفة لوحات فنّاني ما قبل التاريخ
المكتشفة بمنطقة تاسيلي - نآزجر (ليبيا).

* ابراهيم الكوني : الخسوف ١.
(البئر).
* الطبعة الثانية، ١٩٩١.

* الناشر : تاسيلي للنشر والاعلام   دار التنوير للطباعة والنشر.

133 Makarios Avenue
Classic House Building - Office No. 4
Tel.: (357 -5) 387463
Fax: (357 - 5) 387464
Limassol - Cyprus

«عندما أراد فايتون أن يقدّم الدليل على أصله السماوي مُنحت له عجلة الشمس لمدة يوم واحد فانطلق بها وحرق عدّة أحياء من المدينة السماوية السفلية، وأضرم النار على وجه الأرض وجفف كل منابع الماء وكوّن الصحراء الكبرى. هنا قام يوبتر وصرعه على الأرض بضربة رعد، فحزنت الشمس ورفضت أن تضيء بعد ذلك لمدة عام كامل».

اسطورة يونانية
نقلاً عن هنري تورو
«الحياة في الغابة»

مفتتح

البارحة مات اماستان.

وجد منتحراً في بيته في ذروة التظاهرة التي أقامها الأهالي - في تلك الليلة - لطرد الأرواح الشريرة عن وجه القمر عندما اكتسحه خسوف مفاجىء.

تجمعت النساء عند البئر العتيق بمجرد أن أشيع الخبر. جلبن معهن الطبول والدفوف وآلات الموسيقى، وسرعان ما أقبل الرجال أيضاً. يتبخترون بعماماتهم الكبيرة. تحلقوا حول النساء في دائرة واسعة. أقبل الأطفال أيضاً. وقفوا بعيداً، في طابور طويل، يراقبون طقوس تخليص القمر من أعدائه، وإعادته إلى أهل الأرض: ساحراً، ساطعاً، لامعاً بالأضواء، واعداً بالأسرار.

دقت الطبول، ولامست الأنامل الرقيقة أوتار الموسيقى، ارتفعت الحناجر بغناء جماعي كتراتيل وثنية:

يا قمر أنت حبيبنا

هل تخوننا؟

الصحراء قدرنا

العطش مصيرنا

أنت ملك النجوم

قاهر الكواكب،

نصيرنا ..

استمرّ الغناء حزيناً، صوفياً، كالصلاة. يفضح فجيعة.

استمرّ حتى الفجر عندما وقع اخنوخن في الوجد.

سقط كالمصروع، ثم تدحرج حتى بلغ سور البئر حيث تتجمع النساء.

ظل يصارع النوبة عدة دقائق قبل أن ينهض ويبدأ في الرقص والجذب والصياح الجنوني. يقترب من صف الرجال الطويل ويحثهم على التصفيق والمشاركة أحياناً، ثم يندفع في ثورة مباغتة ليطرد الأطفال، ويعود ليستقر برأسه، المتوج بعمامة زرقاء كبيرة، داخل حلقة النساء مترنحاً يميناً ويساراً، يئن أنيناً مكلوماً، ويزأر كالسبع، مشيراً بيديه إشارات غامضة، بعد أن فقد القدرة على الكلام، وشُلّ لسانه كالأخرس. نزعت النشوة الوجدانية لسانه.

دار حول البئر مراراً، في قفزات سريعة، راقصة، منتشية. وكان يمر في كل مرة بحشد النساء ليأمر، وينهى، ويحمس، محتجّاً على هذا اللحن، راضياً عن ذاك. يصفق بعنف موحياً بوجوب تصعيد التصفيق. في تلك اللحظة أقبل آيس راكضاً.

اخترق صف الأطفال في البداية ثم اندفع يجري نحو جمهور الرجال مردداً:

ـ توقفوا. كفّوا. لقد مات اماستان.

لم يلتفت له أحد. لم يسمعه أحد. كانت حمّى الضجيج والحماس في ذروتها. اندفع آيس نحو النساء ولكن اخنوخن اعترض طريقه وطرده. ظلّ الصبي يصرخ باستمرار:

ـ لقد مات اماستان. أبي يقول لكم أن تكفّوا حالاً.

ولكن صوته ضاع في الزحام والضجيج.

وقف لحظات يجول ببصره بين مجاميع الرجال والنساء والأطفال الذين فقدوا صوابهم جميعاً، ثم استدار ومضى حتى ابتلعته الظلمة.

بدأ الليل يتراجع أمام هجوم الفجر ولكن القمر ـ الذي تخلص من أعدائه الآن ـ استمر يرسل أضواء باهتة خجولة.

استمرّت التظاهرة أيضاً.

ظهر الشيخ غوما. وقف فوق المرتفع الذي يفصل المخيم عن البئر.

جاء يقود حفيده ايس. توقف مرة أخرى وتابع اخنوخن المجذوب يترنح، ويقفز في الهواء برشاقة، ثم يئن ويتوجع كالمعتوه.

نزل المرتفع واتجه نحو طابور الرجال المنتشين بالألحان.

وقف في مواجهتهم وقال مهدداً بسبابته:

ـ ألا تستحوا. في المخيمَ مأتم وأنتم ترقصون وتغنون. توقفوا حالاً. اذهبوا من هنا!

سرت بين الرجال همهمة وهمس. لم يجرؤ أحد أن يسأل من الذي مات.

انتقل بعضهم إلى حلقة النساء لإذاعة خبر المأتم وقدوم الشيخ غوما.

انتشر الخبر كالريح. تعالى الهمس. خرست دقات الطبول فجأة، فهاج أخنوخن أكثر. شرع يلاحق الرجال ليعيدهم إلى الطابور، ويلح في حث النساء على الاستمرار بحركات من يديه.

ولكن الشيخ غوما اقترب وطرد النساء أيضاً. فتحركت الجموع، وتفرقت، مغادرة المكان، في مجموعات صغيرة، متناثرة.

أما الأطفال فكانوا أول من لجأ إلى البيوت هرباً من الشيخ غوما.

قال أحد الشباب وهو يرقب أخنوخن الذي فقد صوابه محاولاً أن يعترض طريق النساء وإعادتهن إلى البئر:

ـ الآن سنعرف عما إذا كان مجذوباً حقاً، أم أنه يدّعي ويتظاهر!

كان يلمّح إلى أولئك الشباب الذين يتخذون من الوجد حيلة للتطلع في وجوه الفتيات عن كثب أثناء الرقص. المجذوب هو الوحيد الذي يسمح له بالاقتراب من

تجمع النساء، فيستطيع أن يتطلع إلى وجوههن عن قرب.

لا حرج على المجذوب. عقله في السماء وجسده، فقط، على الأرض.

توجس الشباب أن يكون اخنوخن مجذوباً بالفعل فيعتدي على الشيخ غوما فتوقفوا، وتأهبوا للتدخل.

مضى اخنوخن يحاصر مجموعات الصبايا المنسحبة محاولاً أن يعيدهن بالقوة ناحية البئر. وكلما عاد بمجموعة تسللت المجموعة الأخرى، وانسلت هاربة. يئس اخنوخن وتقدم فجأة نحو الشيخ غوما. لوّح اخنوخن في وجه الشيخ احتجاجاً، ثم همهم بكلمات غير مفهومة و.. سقط على الارض وطفق يتلوّى كالملدوغ حتى سقط لثامه عن رأسه. نهض حاسر الرأس. تناول حجراً كبيراً وشرع يحطمه على رأسه حتى انبثق الدم، وسال في خيوط صغيرة على وجهه. ثم اندفع فجأة يجري نحو البئر.

صاح غوما في أثره:

ـ أدركوه. أدركوه! امسكوا به!

بلغ البئر واستطاع أن يتسلق الجدار الصخري عازماً أن يقفز في الماء، ولكن شقيقه الأصغر أمغار أدركه في تلك اللحظة. أمسك بجلبابه الفضفاض وانتزعه بعنف، ولكنه استمر متشبثاً بالجدار. وصل بقية الشباب وأمسكوا به من أطرافه، ونجحوا ـ بعد معركة ضارية ـ في انتزاعه من الجدار.

لحظتها وصل الشيخ أيضاً، يجرجر آيس بيد، ويحمل زمّالة اخنوخن باليد الأخرى.

قال بصرامة:

ـ أوثقوه. هذا المعتوه. أوثقوه حتى بهذه.

وقدّم لهم عمامته التي خلفها عندما حاول أن يهشم رأسه بالحجر.

قال أحد الشباب وهو يمسح العرق المنبثق من جبينه بطرف عمامته:

ـ ولكنه لم يرتو من الألحان بعد يا عمنا الشيخ. لقد أسكرته الألحان كما

تعلم ولا بد أن...

قاطعه الشيخ كالمعتذر:

- هذا أمر الله. نفعل ذلك إجلالاً للموت وليس احتراماً لأماستان!

استمرت معركة أخنوخن مع الشباب. ينفضهم فيتساقطون كالذباب، ثم يعودون للإمساك به مرة أخرى.

علّق أحد الشباب:

- إنه قوي كالجن!

قال أحدهم:

- كان قوياً دائماً. فكيف إذا كان مجذوباً. إنه يصرع جملين هائجين في وقت واحد وهو في تمام قواه العقلية.

عاد الأول يقول:

- يبدو أن جذبه حقيقي يا جماعة برغم أن عقله لم يسمح له بالاعتداء على الشيخ.

اقترب غوما وأمر بلهجة صارمة:

- أوثقوه جيداً. أوثقوه بالحبال وأودعوه بيته، والصباح رباح.

واستدار نحو المرتفع عائداً إلى بيته يجرجر آيس.

(١)

أماستان، الأخ الأصغر للشيخ غوما من أبيه.

اعتزل الدنيا وانطوى على نفسه منذ سنوات. منذ «فضيحة غات» عندما ألقى عليه غوما القبض، وقيّده، وجرجره خلف جمل وطاف به شوارع وأحياء الواحة عارياً تماماً يتفرج عليه الخلق، عقاباً له على تحالفه مع الفرنسيس ضد أهل الصحراء أثناء هجومهم الكبير على غات في تلك السنوات.

ولكن القصة لم تبدأ من هنا .

قبل ذلك بسنوات شغف أماستان بفتاة جميلة من قبيلة « كيل أبادا » التي استوطنت الصحارى المجاورة الممتدة من غرب العوينات حتى غدامس وعاشت متنقلة طوال الأعوام الأخيرة في هذه الأراضي التي اكتسحتها الأمطار والسيول طوال ثلاث سنوات متعاقبة فغمرها الاخضرار وكثر فيها العشب والأشجار وكلأ المواشي، وارتادتها الغزلان والأرانب البرّية والطيور والبقر الوحشي، فاتخذتها هذه القبيلة المتنقلة موطناً ومستقراً حتى حسدتها بقية القبائل التي لم يمن الله على أراضيها أمطاراً وسيولاً متتالية مثل « كيل أبادا » .

اعتاد أماستان أن يتفقّد إبله في المراعي الخصيبة في نهاية امتداد الحمادة الحمراء المفضية إلى العراء الرملي حيث استوطنت تلك القبيلة. وحدث أن اصطاد غزالة وحيدة في إحدى رحلاته ولكن الرصاصة لم تصرعها، امتطى ظهر المهري وانطلق خلفها حتى أشرف على بيوت « كيل أبادا » . استقبلوه، استضافوه بالذبائح وفنون المبارزة عندما عرفوا أنه من نبلاء قبائل « امنغساتن » . وفي اليوم التالي طلبوا منه مشاركتهم استعراض المهاري في مهرجان عرس أحد أبنائهم بسبب افتقادهم للعدد الكافي من المهاري المدربة على الرقص الاستعراضي. وفي تلك الليلة، بعد انتهاء المهرجان، عرف « تارات » وأعجب بها أثناء الحفل الموسيقي الذي أقيم في الليل واستمر حتى فجر اليوم التالي. في تلك الليلة تبادلا نظرات الإعجاب والأشعار وقصائد الغزل والألغاز، وغنت له على أوتار « أمزاد » ألحاناً ساحرة لم يسمعها من قبل، وكان صوتها شجياً، عميقاً حزيناً يثير خليطاً من المشاعر في وقت واحد : الأشجان، الحماس، التأمل، الوجد . وأثناء حديثها اكتشف روحها المرحة، الحالمة، النبيلة، وفي ضوء القمر رأى جمال وجهها المستدير، وعينيها الكبيرتين اللامعتين بذكاء لا تخطئه العين البصيرة. بعد انتهاء الحفل وانصراف مجاميع الشباب والصبايا ودعها إلى بيتها. وفي الطريق قال لها : « سوف لن أطيق فراقك. أريد أن أراك مرة ثانية، ولو مرة واحدة. وفي أقرب وقت. سوف أنتظرك عند السدرة الكبيرة في الوادي المجاور ليلة الجمعة » . لا يدري من أين جاءته الشجاعة ليقول لها كل ذلك دفعة واحدة. أخفت وجهها المستدير خلف لحافها وأسرعت الخطو نحو بيتها دون أن تلتفت كأنها تهرب من شبح .

لم يصدق أماستان أنها ستأتي. عاد يتفقد جماله في المراعي المجاورة ثلاثة أيام يحلم باللقاء حتى جاء يوم الجمعة. أسرج جمله وانطلق إلى الوادي المجاور لخيام «كيل أبادا» وانتظر عند السدرة الكبيرة، وبعد منتصف الليل رأى شبحها يتحرك عبر الظلام قادماً. لم يصدق أن جرأته في دعوتها يمكن أن تقابلها بجرأة مماثلة في قبول الدعوة. سحبت «أمزاد» من تحت لحافها الفضفاض وغنت له آخر قصائد الهجاء الموجهة ضد شاب جبان من قبائل «الأمغاد»، ثم تهدج صوتها الرقيق، وترقرقت عيناها الكبيرتان بالدموع عندما غنت مقاطع من ملحمة تمجد نضال الأمير بكدة في صدّ الغزاة الفرنسيس في بداية القرن. استمر اماستان يلتقي بها كل يوم جمعة من كل أسبوع طوال شهر كامل حتى جاء ذلك اليوم الذي هاجمه فيه شباب «الفوغاس».

في ذلك اليوم نهض اماستان من النوم باكراً. توضأ عند البئر وصلّى فوق المرتفع ثم عاد إلى البيت فوجد أمه العجوز قد وضعت الوعاء فوق الجمر وبدأت في تحضير الشاي الصيني الأخضر. قال لها وهو يعد أمتعة السفر:

ـ سأسافر إلى «زورزاتين» لتفقد الإبل والرعاة. سوف أعود بعد ثلاثة أيام.

حدجته بنظرة شك قبل أن تتساءل بخبث:

ـ إلى «زورزاتين أم إلى أراضي «كيل ابادا»؟

فاجأه أن تكون قد علمت بسره. ولكي يداري دهشته انشغل بالأمتعة مستديراً نحوها بظهره محاذراً أن يواجهها بعينيه. قال بعد قليل:

ـ وربما إلى أراضي «كيل ابادا». ماذا في ذلك؟

قالت وهي تبدأ في طقوس خلط الشاي بين الوعاء وكوب زجاجي صغير لاستجلاب الرغوة:

ـ لا شيء. غير أن سيرة زياراتك لتلك القبيلة السيئة السمعة وسهراتك مع تلك الفتاة الوقحة قد أصبحت على كل لسان: الكبار والصغار، النساء والرجال، القاصي والداني حتى من القبائل المجاورة. عليك أن تفكر في وضع حد للشائعات وتكف عن الالتقاء بتلك الفتاة حرصاً على سمعتنا وسمعة القبيلة.

لم يتـوقع أن يصل الأمـر إلى هذه الحدّ. تقـرفص قـبـالتـهـا وقـال في إصـرار مفاجىء:

ـ طالما الأمر هكذا فإني أريد أن أقول لك أنني أريد أن ارتبط بها. أتزوجها.. ماذا في ذلك؟

أشاحت بوجهها استنكاراً وقالت:

ـ اللهم احفظنا. لم أسمع في حياتي برجل من «امنغساتن» ارتبط بامرأة من تلك القبيلة. لا تفعل ذلك. لا تفكر في ذلك مجرد التفكير إذا أردت رضائي.

ـ «أمنغساتن» يتزوجون نساء من كل القبائل والأجناس، يتزوجون حتى من الزنجيات!

ـ كان ذلك في الزمان القديم أيام الغزوات عندما كانوا يعودون من إفريقيا الوسطى بالأسرى والأسيرات من الزنوج والزنجيات.

وضعت أمامه الشاي في كوب زجاجي صغير متوجاً بالرغوة. نهض دون أن يتناول منه رشفة واحدة.

قال وهو يهم بالخروج من الخيمة:

ـ إنها فتاة رقيقة، شاعرة، حساسة، لها روح ملاك وتـقدّس الشعر والغناء والموسيقى ولا ذنب لها في كل ما تقولين. سوف أتزوجها، لن أرضى بغيرها.

قالت بوعيد مكتوم:

ـ لن أغفر لك ذلك.

ثم أضافت ثائرة بعد لحظة صمت:

ـ حسّاسة! شاعرة! ملاك! لقد سحرتك، أنت تعرف «كيل ابادا». إنهم معروفون بممارسة الشعوذة والسحر. لا بد أنهم دسّوا لك شيئاً في الطعام. لقدأخذوا عقلك. يا إلهي سترك!

ـ لم يسحروني ولم يأخذ عقلي أحد، ومن حقي أن أختار من أشاء من النساء

مثل كل الرجال في القبيلة وفي كل مكان.

- ربنا يهديك. ثم.. ثم إن لك أكثر من غريم في حبها. هل تعلم أن لك أكثر من غريم؟

تسمّر في مكانه وبدأ يرتعد قبل أن يقول:

- هذا ليس صحيحاً. لم أسمع بذلك من قبل.

- أنت لم تسمع شيئاً أبداً. العشق أعمى، من يعشق لا يرى ولا يسمع. ما أقوله لك عين الحق. تعرفه حتى القبائل المجاورة. أكثر من شاب ينافسك في امتلاكها!

صمتت لحظات ثم قالت بصوت متهدج:

- أنا أمك ولا أريد لك سوى الخير. ابتعد عنها. ذلك عين الحكمة. ثم إن أخوك غوما لن يوافق حتى لو وافقت أنا، فلا تلطخ سمعتنا بالله.

- لا يهمني رأي غوما. غوما لن يختار لي زوجتي. وسمعتنا في الحفظ والأمان.

- ولكنه أخوك الأكبر وولي أمرك. وفوق ذلك هو شيخ القبيلة ورأيه نافذ المفعول.

- أمره نافذ المفعول في رسم سياسة القبيلة وليس في شؤون الزواج والطلاق.

تنهدت بعمق وقالت بيأس:

- ربنا يهديك.

بدأ يخرج بالأمتعة، ويسرج الجمل، يضع فوقه الأثقال والمؤن والماء.

قبل أن ينطلق سمعها تقول:

- إذا فعلتها فلن أغفر لك!

(٢)

تلقفه خلاء قاحل أبدي موحش تتدفق فوق رماله أنهار السراب الفضية. لسع

المهري بالسوط عازماً أن يقطع مسافة يومين في نصف يوم.

وصل الوادي الكبير مع الغروب. أزاح السرج والأمتعة عن ظهر الجمل عند شجرة السدر الكبيرة. لم يذق طعماً لشيء منذ البارحة ولكن لم يشعر بجوع. أوقد النار وبدأ في طقوس تحضير الشاي الأخضر وهو يفكر بحديثه مع أمه طوال الوقت. لم يكن ليعتقد أن الأمر يمكن أن يبلغ هذا الحد وهو آخر من يعلم. لقد نسي أن شغل الناس الشاغل هو دس أنوفهم في شؤون الآخرين وإزعاجهم وتسميم حياتهم قدر الإمكان، وكلما نجحوا أكثر في تنغيص حياتهم كلما شعروا بسعادة أكبر وناموا بعمق أكثر. وها هم ينجحون في تأليب أمه ضده، وإيغار صدرها عليه. ولكن مؤامراتهم لم تمر! سوف يفاتح «تارات» بكل شيء، وسيتزوجها رغم أنف الجميع. وحتى لو رفض الشيخ غوما أن يخطبها له فإنه سيختطفها ويذهب بها إلى آخر الدنيا!

رفع عقيرته بأغنية قديمة ولكن حنجرته خذلته واللحن بدا مزيفاً. ما زال التوتر يسيطر عليه. تذكر تلك الأغنية الملحميّة الرائعة التي أسمعتها له «تارات» آخر مرة عن شابة أحبت شاباً وتعاهدا على الزواج بعد عودته من رحلة تجارية إلى النيجر. ولكن الشاب لم يعد فانتظرته ثلاثين عاماً. وعندما يئست من عودته انتحرت بأن ألقت بنفسها من قمة جبل «أكاكوس». ويقولون ان تجار القوافل الذين يمرون بذلك الجبل في طريقهم إلى أواسط إفريقيا يسمعونها دائماً وهي تصرخ بأعلى صوتها منادية حبيبها الذي لم يعد، تذكره بأن يفي بوعده ويعود إليها. ولكن الشاب لم يف بوعده لأن قطاع الطرق قتلوه في «أغاديس» في طريق العودة.

أطل القمر على السهول والأودية الجرداء التي يخيم عليها الصمت فاكتسب ليل الصحراء سحراً خاصاً. أنصت فلم يسمع سوى اجترار الجمل يخرق السكون العميق. بدأ في تحضير الدور الثاني من الشاي عندما رآها في ضوء القمر الباهت تنزل الوادي في خطوات خجولة ولكن سريعة. قام لاستقبالها. أمسك بها من يدها وأجلسها تحت السدرة الضخمة التي شكلت أغصانها الكثيفة مظلة كبيرة كأنها صنعت خصيصاً لكي يستجير بها الرعاة وعابرو السبيل من قيظ النهار أيام الصيف. أما الجذع فيغرق في الرمال الناعمة التي حملتها العواصف والرياح من صحارى «زلآف» النائية.

قدم لها كوب الشاي من الدور الثاني ولاحظ في ضوء القمر أنها جاءت بدون « امزاد » . خطر له أن يسألها عن السبب ولكنه تراجع وقال بعد تردد :

- لقد قررت أن أطلب يدك من أهلك.

طأطأت برأسها خجلاً وزحفت حمرة خفيفة مفاجئة على وجنتيها . لاحظ ذلك برغم ضوء القمر الباهت. عاد يسأل وقلبه يخفق وينتفض:

- هل توافقين؟

هزت رأسها علامة الموافقة بعد تردد . فعلت ذلك بحركة طفولية .

أمسك بكلتا يديها وقال بلهجة غريبة :

- وإذا لم يوافقوا ..

رمقته بنظرة لمعت ببريق خاطف ثم عادت تنكس برأسها وتنظر في بساط الرمال الناعمة أمامها .

عاد يقول بنفس اللهجة :

- وإذا رفضوا لسبب من الأسباب هل توافقين على الهرب معي؟

رفعت رأسها ونظرت في عينيه نظرة حزينة طويلة غامضة، ثم .. ثم هزّت رأسها علامة الموافقة. عانقها طويلاً مقرراً أن يهدّ الجبال ويقاتل الدنيا ويحقق المستحيل في سبيلها . غمرته نشوة جنونية أحس معها بقوى روحية خارقة تؤهله لأن يفعل كل ذلك.

قبل أن تنصرف سألها في لهجة مازحة:

- يقولون ان لك معجبين كثيرين ينافسونني في امتلاك قلبك. هل هذا صحيح؟

رمقته باستنكار وقالت بتحد :

- من قال ذلك؟ لقد تقدم لخطبتي شاب من « الفوغاس » يدعى « ايدار » ولكني رفضته وطلب يدي شاب من قبيلتنا رفضه أبي نيابة عني لأنه يعلم سلفاً أني لن أقبل به .

عندما ودعها وضع يديه في يديها طويلاً ثم قبلها في أنفها.

(٣)

شيد وسادة من الرمال واستلقى على ظهره فوق الأديم البارد مغطياً وجهه بلثامه. فكر أن يقضي الليلة في الوادي الكبير لكي ينطلق عند الفجر ويذهب إلى الشيخ غوما مباشرة ليكاشفه بالأمر. بدأ يغفو وهو يفكر في العزاء العظيم الذي تقدمه المرأة للرجل في الصحراء. في الصحراء الكبرى، وفي صحراء الحياة، خاصة عندما تعشق المرأة!

استيقظ فجأة وفتح عينيه فرأى أشباح ثلاثة رجال يقفون فوق رأسه. ظن أنه يحلم، أو ربما هم أشباح حقيقية، ولكنه تلقى ركلة قوية من أحدهم فنهض فهوى الثاني على رأسه بهراوة، تحاشى الضربة فأصابت كتفه، ثم وجد نفسه يحتدم معهم في معركة ضارية استمرت طويلاً حتى شعر بالدوار وسقط على الأرض. عندها توقفوا عن استعمال هراواتهم وتهامسوا فيما بينهم وانطلقوا يتسلقون الربوة التي تطل على الوادي ناحية الشمال. جمع كل قواه لكي لا يفقد الوعي وصرخ خلفهم:

ـ لقد عرفتكم. لن تنجوا من العقاب. لقد عرفتكم. أنت «ايدار» من الفوغاس. أنتم من الفوغاس!

اختفوا خلف الربوة وبدأ هو يفقد الوعي.

أفاق في بيت شيخ «كيل أبادا» وقد تحلق حوله جمع من الرجال والنساء يضمدون جراحه ويلفون أطرافه بالضمادات ويضعون المراهم والزيوت فوق جبينه ووجهه ورأسه فعرف أن غدر المعتدين قد تمكن منه.

قال له الشيخ مهنئاً:

ـ الحمدلله على سلامتك. كادوا يقتلوك! الجبناء!

أمر الشيخ بتحضير الشاي الصيني الأخضر وأضاف:

ـ أرسلنا في طلب الشيخ غوما وهو في الطريق إلينا. سليمة إن شاء الله!

سليمة!

(٤)

عاد به الشيخ غوما إلى مضارب «امنغساتن» بعد أن تماثل للشفاء.

نصبوا خيمة خاصة لتقبل التهاني والزيارات ونحروا الذبائح ابتهاجاً بنجاة اماستان من الاعتداء الغادر الذي تعرض له في صحارى «كيل ابادا». أما هو فقد آثر الإقامة في الخيمة على أن يعود إلى البيت خشية تقريع العجوز وما ستثيره من عواطف ودموع.

ولكنها جاءته في الخيمة. ارتمت فوقه وطفقت تبكي بمرارة موارية وجهها خلف لحافها الأسود. ظلت جالسة، صامتة طوال الوقت، وعندما اكتظت الخيمة بالرجال نهضت وعادت إلى البيت دون أن تنطق بكلمة.

بعد غداء الكسكسي الفاخر المتوج بشرائح لحم الغزلان والخرفان بدأت طقوس الشاي الصيني الأخضر. انصرف الشباب وتهيأ مجلس شيوخ القبيلة لبحث الأمر.

قال الشيخ جبور ملتفتاً نحو أماستان:

- الحق أن الأمر مُحيِّر بعض الشيء. من تتهم؟

سارع أماستان يقول بحماس:

- لن أتهم غير الفوغاس. إن ابنهم «ايدار» كان أحدهم.. و..

قاطعه الشيخ غوما بهدوء:

- كيف تتهم «ايدار» وأنت لم تره في حياتك؟

ارتبك اماستان ولكنه أضاف كأنه لم ينتبه لتساؤل الشيخ غوما:

- الجبناء. لو كانوا رجالاً حقاً لطلبوا المبارزة كما يفعل النبلاء لا أن يتربصوا ويهاجموا غدراً بالهراوات كما يفعل الأنذال.

ولكن الشيخ جبور عاد يقول:

- ولكن ما مبرر أبناء الفوغاس في أن يقوموا بهذا العمل المشين؟ الحق أننا لم نر منهم سوى الخير طوال السنوات الماضية.

خشي اماستان أن يزج باسم الفتاة فآثر الآ يعيد على مسامعهم ما سمعه منها من أن «ايدار» خطبها ولكنها رفضته، مؤجلاً ذلك إلى حين يختلي بالشيخ غوما على انفراد.

قال الشيخ خليل الذي ظل صامتاً طوال الوقت:

- الفوغاس حلفاء قدماء، ولا يجوز اتهامهم دون وجود دليل قاطع، وأخشى ما أخشاه أن يكون «كيل ابادا» هم الضالعون في الأمر.

عاد اماستان يرفع صوته في انفعال:

- الدليل موجود، وسأكشفه للشيخ غوما على انفراد. الدليل شخصي، فلا تتهموا «كيل ابادا» بالباطل!

قال الشيخ غوما وهو يتناول كوب الشاي المتوج بطربوش من الرغوة:

- ليس في هذا المجلس غريب. عليك أن تكشف كل شيء أمامهم حتى لوكان شخصياً!

شعر أماستان أنه محاصر فهرب ببصره نحو الشيخ جبور كأنه يستنجد به فوجده يتأمله باهتمام وفضول فاضطر أن يسرد على مسامعهم القصة كاملة. قصته مع «تارات».

عندما انتهى حدجه الشيخ غوما متسائلاً:

- هل هذا هو دليلك الوحيد في اتهام «ايدار».

- نعم.

- إنه دليل ساذج وسيجعلنا أضحوكة في أفواه الناس. ثم إن الذنب ذنبك، لقد تصرفت كمراهق.

ـ مراهق لأنني أردت أن ارتبط بالفتاة على سنة الله ورسوله؟

هتف الشيخ غوما بخشونة:

ـ كان ينبغي أن تطرح علينا الأمر منذ زمان لنتخذ قراراً، بدل الاستمرار في الزيارات المشبوهة كما يفعل المراهقون.

ـ ما حصل حصل. ولكن لا بد من الانتقام من الفاعلين. أطالب بحقي في الانتقام أسوة بكل مظلوم مغدور.

ـ هات لنا الفاعلين وسوف ننتقم لك منهم!

ـ لقد قلت لكم. إنني أتهم..

قاطعه الشيخ غوما حانقاً:

ـ لا تكن طفلاً ولا تكرر ذلك أمامي مرة أخرى. تريدنا أن نعلن الحرب على قبيلة حليفة لمجرد استنتاجات مفترضة. إننا لا نعتمد إلاّ الحقائق في أحكامنا.

اقترح خليل تأجيل الاجتماع أسبوعاً آخر للتشاور والتحقق من بعض التفاصيل. ولكن هذا الاجتماع أيضاً لم يسفر عن رأي نهائي مما دفع أماستان لأن يهب قائلاً:

ـ إذا لم تفعلوا شيئاً فسوف أعرف كيف أنتقم لنفسي ولن أكون ضحية تحالفاتكم القبلية.

ثم خرج ثائرا من الاجتماع.

لم يره أحد منذ ذلك اليوم.

لجأ إلى الصحراء وقد عقد العزم على أن يخلو إلى نفسه ويعد خطة للانتقام. خطر له أن يقوم بزيارة «تارات» ولكنه تراجع تحت تأثير الخجل. فكيف يجرؤ على رؤيتها دون أن يسترد كرامته وينتقم لشرفه المطعون؟! لقد هاجمه شعور عميق باليأس حتى فكر في الانتحار.

هام في الخلاء أسابيع كاملة، يصطاد الغزلان، ويتغذى على الكلأ والأعشاب

البرية، حتى أشرف على «جانت». ثم عبرها إلى الجنوب حتى بلغ حدود «الهوجار».

(٥)

في القبيلة انقطعت أخباره منذ ذلك اليوم. أرسل الشيخ غوما مجموعة من الشباب للبحث عنه في الصحارى المجاورة. ولكنهم عادوا بعد ستة أيام دون أن يعثروا له على أثر.

استمرت أخباره مقطوعة حتى جاء رسول من شيخ «الفوغاس» بعد سبعة أشهر من غيابه يحمل معه خطاباً إلى الشيخ غوما يخبره فيه باستيلاء أماستان على قافلة تجارية للفوغاس كانت متجهة إلى «تمبكتو»، فقتل رجالها، وأسر البعض الآخر، واستولى على البضائع وكانت تساعده في ذلك مجموعة مغامرة من قطاع الطرق. أضاف شيخ الفوغاس في خطابه قائلاً: «.. لم أصدّق بالطبع أن يقوم رجل من قبيلتكم النبيلة بمثل هذا العمل العدواني، وقد أدهشنا أكثر أن يقود أخوكم أماستان هذه العملية لولا تأكيدات شهود العيان ورجل من قبيلتنا عرف عنه الصدق استطاع الهرب من الأسر وأخبرنا بتفاصيل الجريمة.تساءلت عما يمكن أن يجعل أماستان يقوم بمثل هذا العمل ضدنا فأخبروني بتلك القصة الملفقة عن الاعتداء المزعوم الذي قام به ابننا «ايدار» عليه في «زورزاتين» من أجل فتاة من «كيل أبادا». وبرغم أن «إيدار» لم يغب عن أعيننا في تلك الفترة التي حدث فيها الاعتداء إلاّ أني كنت على استعداد لأن أبعثه لكم موثوقاً بالحبال بمجرد إشارة منكم لينال العقاب الذي يستحقه إن كان يستحقه فعلاً. وأنت تعلم يا شيخ غوما مدى ثقتي في قبيلتكم وفي عدالتكم.. ونحن في انتظار إجراءاتكم وجوابكم».

تأثر الشيخ غوما بهذا الخطاب وأدهشه أن يلجأ أماستان سليل الأسرة النبيلة إلى أساليب المجرمين واللصوص ويبطش بالأبرياء مهدداً سمعته وسمعة القبيلة بكاملها ويفقدها حلفاءها من القبائل الأخرى. وإذا كان ما تحدث عنه شيخ الفوغاس في خطابه صحيحاً فإن العار قد لحق به ولحق بالقبيلة. فسارع يرد على شيخ الفوغاس بخطاب يطلب فيه منحه مهلة للتفكير فيما يجب عمله والتأكد مما حدث.

ولكن القدر لم يرحم الشيخ غوما. إذ تلقى خطاباً آخر بعده بأيام قليلة من شيخ «كيل أبادا» يقول فيه: «.. تحالف أخوكم أماستان مع عصابات الصحراء وهاجم قبيلتنا وقتل ثلاثة من رجالنا عازماً اختطاف الفتاة. لا أريد أن أخفي عنكم أنه حاول أن يتقدم لخطبتها منذ شهور مع رسول من أحد أعوانه الجدد. وقد رفضنا طلبه نظراً لما ورد إلينا من أخبار خلافه معكم، ومع قبيلتكم. وعلى كل حال فإن اختطافه للفتاة فشل ولكن ما يدريني إذا كان لا يرتب لهجوم آخر؟ هذا من ناحية، أما من الناحية الأخرى فإن الفتاة نفسها قد انتحرت تحت السدرة الكبيرة حيث كانا يلتقيان. إنّا لله وإنا إليه راجعون. أرجو أن تعتبروا خطابي هذا بمثابة طلب مشورة من جانبكم في المصيبة التي أحاقت بنا دون ذنب ارتكبناه، ونحن في انتظار رأيكم الحكيم والله ولي التدبير».

دعا الشيخ غوما مجلس شيوخ القبيلة لاجتماع طارئ للتداول في الأمر وبحث ما يلزم من إجراء حيال العار الذي وقع على رؤوسهم على يدي أماستان الشقي!

قال الشيخ جبور وهو يضرب كفاً بكف:

- لا حول ولا قوة إلاّ بالله. إذا صح ما يقال فإنه فقد عقله تماماً!

أما الشيخ خليل فسحب لثامه على أنفه بحركة عصبية وقال:

- هل يعقل يا جماعة أن يكون ذلك الاعتداء سبب هذا البلاء كله؟

قال الشيخ غوما وهو يحضر للبدء في طقوس الشاي الصيني الأخضر:

- بل السبب امرأة! اعتقد أن الاعتداء عليه طعنة موجهة لعلاقته بها فقرر الانتقام ليستعيد كرامته أمامها. نعم. حيثما توجد المصائب فثمة رائحة امرأة!

عاد الشيخ خليل يقول:

- ولكن هذا جنون وليس انتقاماً. لقد فقد عقله حقاً.

ولكن الشيخ غوما همهم كأنه يخاطب نفسه:

- وصلت لهذه القناعة منذ زمن بعيد. النساء أصل كل بلاء!

زحف الليل فألقى في النار بمزيد من الحطب. تناول عدة الشاي وشرع يغسل الأواني في وعاء كبير. ساد صمت ثقيل تخرقه طرطقة أعواد الحطب الخضراء في النار الشرهة.

بعد لحظات قال الشيخ غوما:

ـ يجب أن نقرر الآن التدابير قبل أن يمرغ هذا الأحمق سمعتنا في التراب.

خرج الشيخ «آهر» عن صمته المعهود لأول مرة وقال في لهجة مترددة:

ـ أقترح أن يذهب الشيخ جبور لمفاوضته على رأس مجموعة من الرجال. ربما أقنعه بالعودة إلى السبيل وإلى القبيلة.

سارع الشيخ غوما يتساءل:

ـ والدماء التي سفكها للقبائل الأخرى؟ بأي وجه يمكننا أن نواجه به القبائل؟

ـ سنلجأ للتفاوض ونفتح باب التعويض والمسامح كريم.

ـ التفاوض! التعويض! أي تعويض تتحدث عنه يا شيخ «آهر»؟ أي تعويض يمكن أن يدفع ثمناً للدم؟ أخشى أن يكون رأسه هو الثمن الوحيد للدماء التي سفكها. لقد توغل بعيداً في ضلاله.

عاد الصمت الثقيل يخيم مرة أخرى قبل أن يقول الشيخ جبور:

ـ دعنا نحاول يا شيخ غوما. إنه أخوك على أي حال وأخونا جميعاً وابن قبيلتنا، إنه من لحمنا ودمنا فلا تتعجل بقفل باب الرحمة في وجهه. ثم إنه غائب، والغائب عذره معه كما يقال، ربما كان ثمة تفاصيل أخرى نجهلها، ولا أعتقد أن القبائل المتضررة ستصر على المطالبة برأسه إذا أعدناه إلى رشده وشفعنا له لديهم.

وافقهم الشيخ خليل بهزات متتالية من رأسه دون أن ينطق بكلمة.

أما الشيخ غوما فقد شرع يخلط الدور الأول من الشاي بين وعائين كبيرين لاستحضار الرغوة.

(٦)

بعد يومين من مغادرة الشيخ جبور على رأس ثلاثة رجال بحثاً عن أماستان في صحارى الجنوب نزل على النجع ضيف جديد قادم من «تامنغست» مبعوثاً من شيخ «الهوجار» يحمل رسالة أخرى للشيخ غوما يخبره فيها عن تورط أماستان في حلف مع الفرنسيس حيث قتلوا ثلاثة رجال من القبيلة وجرحوا آخرين في معركة حامية على مشارف «تامنغست» وأضاف الشيخ في خطابه: «مكّنهم أماستان مما لم يتمكنوا منه سنوات طويلة نظراً لخبرته الواسعة بالصحارى وبخطط أهل الصحراء. وهو الآن متجه لاحتلال غات على رأس قوة فرنسية مدعومة بالسيارات والمدافع والبنادق الرشاشة. ولم نشأ أن نتخذ المواقف الدفاعية اللازمة قبل استشارتكم..».

قام الشيخ غوما من فوره بإرسال رجل في أثر الشيخ جبور وجماعته يأمره بإلغاء مهمة البحث عن أماستان والعودة فوراً. ثم حرر خطاباً جوابياً لشيخ «الهوجار» لم يعرف أحد فحواه سلمه للمبعوث القادم من «تامنغست» البعيدة.

وفي الصباح، بعد تناول الدور الأول من الشاي، خرج وصعد الجبل المجاور ومكث هناك حتى وقت متأخر من الليل. دخل الزريبة وأشعل مصباح الكيروسين وأيقظ الزنجية العجوز التي تقوم على خدمته منذ سنوات وتشرف على تربية حفيده «آيس». أنصت يتابع تنفس الطفل المنتظم فعرف أنه نائم. وضع المصباح على الأرض وتقرفص أمام الزنجية العجوز فقالت وهي تدعك عينيها النائمتين بيديها:

- خير إن شاء الله يا سيدنا الشيخ.

- إن شاء الله خير. لا شك أنك علمت بما فعله أماستان .. و..

- علمت، علمت. أعاده الله إلى رشده وهداه سواء السبيل..

- الحق أنني أريد أن أتأكد بنفسي. أريد أن أراه بعيني.. أقصد ..

صمت متردداً في حين رفعت الزنجية العجوز حاجبيها مستفهمة. عاد يقول

وقد ظهر عليه الارتباك:

ـ أقصد أنني لم أؤمن يوماً بالخرافات. ولكن عالم الروح عالم عجيب... أريد أن أرى ماذا يفعل قبل أن أتخذ قراراً... ماذا يسمون ذلك؟

سارعت العجوز تقول وقد بدا أنها فهمت أخيراً:

ـ نعم، نعم. لقد فهمت، تقصد الاستحضار! استحضار الغائب!

ـ نعم. الاستحضار. ماذا يلزم لذلك؟

تهللت أسارير الزنجية وقالت وقد غمرت ملامحها غبطة مفاجئة ربما لأنها تستطيع أن تقدم عملاً لسيدها الشيخ لا يستطيع أحد القيام به:

ـ لا يلزم شيء. كل اللوازم موجودة، وكذلك الطفل!

تساءل الشيخ في قلق:

ـ أي طفل؟ لقد سمعت أن الشرط الأول هو صبية صادقة وطاهرة، وكنت أفكر في «زارا» ابنة «باتا».

ابتسمت العجوز وقالت بثقة:

ـ لـ«الاستحضار» طرق وأساليب عديدة. طريقة «الصبية الصادقة» من ضمنها طبعاً. وهناك تجمع النساء عند قبور الأولين ليلاً، وهناك طريقة «الطفل الصادق»، فلماذا نذهب بعيداً و«آيس» بيننا.

سحب لثامه على أرنبة أنفه وقال محاولاً أن يخفي قلقه:

ـ آيس! ولكن ربما أثر ذلك على عقل الطفل في المستقبل!

ـ كلاّ!

ـ حاذري. لقد فقدت أباه. وها أنا أفقد أماستان، ولا أريد أن..

صمت لحظة ثم أضاف بأسى عميق:

ـ لا أريد أن أفقد كل شيء..

سارعت العجوز تقول وقد ترقرقت عيناها بالدموع:

ـ ولكن كلاّ. إنني أعرف ما أفعل يا سيدي الشيخ. ثم إنه ابني وحفيدي أيضاً. مسحت دمعة بكفها وأضافت في انفعال:

ـ بل وأكثر، ليس لي في الدنيا سواه أيضاً. يعلم الله.

ران سكون يخرقه تنفس الطفل المنتظم.

قال الشيخ:

ـ ما هو المطلوب مني؟ يلزم شيء؟

ـ احتاج إلى قماش أبيض جديد. وكذلك أكثر من امرأة لقرع الطبول، ومرآة جديدة لم يسبق استعمالها.

قال الشيخ وهو يطفىء مصباح الكيروسين ويهم بالنهوض:

ـ القماش في الخريج الصوفي، ولديَ مرآة، لا أعتقد أنني استعملتها، في الجراب الجلدي. أما النساء فبإمكانك استدعاء جارة أو جارتين لا أكثر. لا أريد مبالغة في الضوضاء.

هم بالخروج إلى الخيمة المجاورة للزريبة عندما سمعها تقول:

ـ قامت أم أماستان البارحة بـ«الاستحضار» بواسطة «زارا» في مقابر القدماء. رأت كل شيء وهي الآن طريحة الفراش. مريضة الحمّى أجارك الله.

ذهب إلى خيمته دون أن يلتفت.

(٧)

نهض مبكراً ولجأ إلى الجبل، عاد مع المساء فاستقبله الضجيج وقرع الطبول وزنجيات ثلاث غارقات في تلاوة تراتيل وطقوس بلغة الهوسا. استقبلته الزنجية العجوز في مدخل الزريبة قائلة:

ـ لقد جهزنا كل شيء ولم يبق إلاّ أن نبدأ.

في المدخل رأى الطفل يرتدي ثوب القماش الأبيض ينظر حوله في ارتباك وذهول. دخل الزريبة ووضع يده فوق رأس الطفل الذي قال وهو يلتصق به كأنه يحتمي به:

ـ أبي، ماذا يفعلن؟

ـ لا تخف. سوف تذهب في رحلة طويلة في الصحراء وسترى اماستان وتخبرني ماذا يفعل.

ـ رحلة؟

ـ أعني أنك سترحل وستراه دون أن تغادرنا. سوف ترى بنفسك، لن يستغرق ذلك طويلاً، لا تخشَ شيئاً.

احتد قرع الطبول وارتفعت أصوات الزنجيات بالتراتيل وقراءة الطقوس بلغة «الهوسا»، ثم نهضت الزنجية العجوز وأتت بلحاف ثقيل وقالت تخاطب الطفل:

ـ آيس. الآن عليك أن تتغطى بهذا.

نظر الطفل إلى جده مذعوراً ولكن الشيخ غوما أومأ له أن يفعل بإشارة من رأسه ثم تقرفص بجواره.

أحكمت اللحاف فوق رأس الطفل بعد أن دست في يده المرآة وقالت:

ـ سوف تنظر في المرآة عندما آذن لك.

ثم ألقت في النار بحفنة من البخور وأشارت للزنجيتين بالتوقف عن قرع الطبول وتلاوة التراتيل.

أومأت للشيخ أن يبدأ بحركة من رأسها وقالت وهي تطفىء مصباح الكيروسين:

ـ آيس. الآن تستطيع أن تنظر في المرآة.

مرت لحظة صمت قبل أن يتساءل الشيخ غوما:

ـ آيس. أخبرني.. ماذا ترى الآن؟

ولكن الطفل لم يجب فعاد الشيخ يتساءل:

ـ انظر في المرآة وأخبرني ماذا ترى؟

قال الطفل في صوت من يصف حلماً:

ـ أرى جبالاً. جبال هائلة قاحلة.

قال الشيخ كأنه يخاطب نفسه:

ـ آه، هذه جبال «الهوجار» ولكن انظر تحت الجبال، في الأودية.. ماذا ترى في الأودية؟

صمت الطفل لحظات قبل أن يجيب بنفس الصوت البطيء الحالم:

ـ أرى.. زحام. زحام من الناس و.. يرتدون ملابس غريبة و.. هناك بنادق.. و..

قال الشيخ بنفس اللهجة:

ـ آه، إنهم الجنود الفرنسيس. هل ترى أماستان؟ إبحث جيداً.. هل ترى أماستان بينهم؟

ـ أماستان.. أماستان، نعم.. إنه هو. إنه أماستان...

ـ ماذا يفعل؟ هل هو نائم؟

ـ لا. إنه يتحدث مع أحدهم.

بدأ العرق يكتسح وجه الشيخ في حين أضاف الطفل:

ـ إنهم يتهيأون للرحيل.. قوافل، و.. بنادق كبيرة.. وصغيرة.

ـ آه، إنها المدافع والسيارات.. حاول أن تصف أكثر، ماذا ترى أيضاً؟

ولكن الطفل لم يجب.

أومأت الزنجية العجوز للشيخ أن يكف. ثم قالت وهي تنزع الغطاء من فوق الطفل:

ـ لقد أرهقته يا سيدي الشيخ. ما كان ينبغي أن تكثر من الأسئلة.

كان جبين الطفل يتصبب بالعرق، وعيناه غائبتان كأنه ما يزال في حلمه.

ثم بدأ يرتعد فسارع الشيخ يتحسس جبينه، قال وهو يحدج العجوز بنظرة غضب:

ـ إنه محموم!

سارعت العجوز تطمئنه:

ـ هذا طبيعي. لقد أرهق، ثم إنه رأى بشراً وأشياء لم يرها من قبل. والتركيز يسبب الإرهاق وحتى الحمّى في بعض الحالات.

قال الشيخ حانقاً:

ـ أرجو ألا يصيبه مكروه من وراء هذا العمل. لقد حذرتك من البداية!

بدا الانزعاج على وجهها والتفتت إلى الزنجيتين بجوارها مستنجدة:

ـ أخبرا الشيخ بأن هذا طبيعي. والطفل لن يصيبه إلآ ما كتب الله.

أكدت إحداهما على كلامها بهزة من رأسها في حين التزمت الأخرى الصمت.

أما الشيخ فقد نهض ووضع الطفل في فراشه. تحسس جبينه مرة أخرى ثم أمرها بإحضار المراهم ومستحضرات الأعشاب.

(٨)

في الطريق إلى خيمة مجلس شيوخ العشائر مر الشيخ غوما على أم أماستان المحمومة. وجد حولها مجموعة من النساء والعجائز يلتحفن بالأردية السوداء، يجرجرن خلفهن الفساتين الفضفاضة في حركة دخول وخروج مستمرة. وقف في

مدخل الزريبة وسأل إحدى النساء عن حال العجوز المحمومة فأجابت بأنها في أسوأ حال. الحمّى في أوجها وقد بدأت تهذي.

تمتم الشيخ كأنه يخاطب نفسه وهو يهم بالانصراف:

ـ شفاها الله وخفف من آلامها.

ولكن المرأة سألته فجأة في استحياء وهي تشد لحافها على وجهها:

ـ هل من جديد يا عمنا الشيخ؟ أقصد...

حدجها بنظرة قاسية فصمتت وارتبكت وأسرعت تدخل الخباء. تباطأ وهو يتجه إلى خيمة شيوخ العشائر.

في الخارج ازدحم الرجال واتخذ الشيوخ أماكنهم في الداخل، وفي ركن الخيمة جلس «أخنوخن» ابن الشيخ جبور الأكبر يمروح الجمر الخابي تحت وعاء الشاي بمروحة مصنوعة من سعف النخيل. عانقه الشيخ جبور في المدخل، وجلس في مواجهة الشيخ «آهر». ساد صمت قصير قبل أن يعلن الشيخ غوما في لهجة تصميم:

ـ أعدوا العدة. ليس لدينا وقت. أرسلوا الرسل إلى شيوخ القبائل: الفوغاس والهوجار وكيل ابادا وأوراغن أخبروهم على لساني أن يبعثوا لنا بالمقاتلين والعتاد. قولوا لهم أن دم أماستان حلال عليهم، وصدّ الغزاة عن الصحراء واجبهم جميعاً. قولوا لهم أن يحاصروا «غات» بعد أربعين يوماً ابتداء من هذا اليوم. الفوغاس من الغرب وأخبروا كيل ابادا أن ينضموا إليهم، ونحن مع أوراغن من الشمال والشرق. ابعثوا بفارس إلى شيخ الهوجار لكي يقطع على الفرنسيس طريق المؤن والتعزيزات من الجنوب، قولوا اننا لا نستطيع محاصرتهم في غات إذا استمر طريق الامدادات من الجزائر مفتوحاً. لا بد أن يفعل ذلك بأي ثمن. ربما استطاعت القبائل المجاورة أن تمدّه ببعض الرجال. وربما استطعنا نحن أيضاً ولكن قطع طريق الإمدادات أهم ما في الأمر. لا نستطيع أن نجعل من «غات» مقبرة لهم إلاّ إذا أمّنا قطع طريق الإمدادات. قولوا له أن جبال الهوجار المنيعة ستكون ساعده الأيمن في هذا العمل. إنني أعرفها وأخبرها جيداً. رجل واحد خلف صخرة في جبال الهوجار يستطيع أن يبيد فيلقاً كاملاً.

صمت الشيخ غوما وطفق يرسم خطوطاً عصبية في الرمال. ساد الصمت حتى عاد الشيخ يقول:

ـ سوف يبدأون في قصف غات بعد ثلاثة أسابيع. ولن يستطيع أهلها أن يقاوموا أكثر من أسبوع لأنهم مزودون بالمدافع أيضاً إلى جانب البنادق الرشاشة. معنى هذا أنهم سيقتحمونها بعد أربعة أسابيع من الآن. وسنبدأ في حصارها بعدهم باثني عشر يوماً. لن نتمكن قبل ذلك نظراً لبعد المسافات. أريد أن نبدأ الهجوم في يوم واحد، في وقت واحد.

سنبدأ ليلة الجمعة، لقد حسبتها البارحة. الليلة الأربعون هي ليلة الجمعة، وسنبدأ هجومنا ليلاً من الجبال المحيطة بالواحة، سوف أطلعكم على تفاصيل الخطة. هذا هو القرار.

ثم التفت إلى الشيخ جبور وأضاف:

ـ إنني أرى أن تذهب بنفسك إلى «غدامس» وتطلع شيخ الفوغاس على التفاصيل. أما أنت يا شيخ خليل فسوف تشرف على إعداد قوافل الماء والمؤن منذ الآن. إذا انطلقت بعد يومين فإن بلوغها مشارف «غات» سيوافق الزمن المحدد لبدء المعارك. يا شيخ «آهر» كم معنا من البنادق وخرج الرصاص؟

بدا الارتباك على وجه الشيخ «آهر» الذي فوجىء بالسؤال. فسعل عدة مرات قبل أن يجيب:

ـ نعم. أعتقد أنها كافية. البنادق كافية، أما بالنسبة للرصاص فإن التزوّد منه بالمزيد دائماً أفضل.

ـ سألتك كم خرجاً معنا بالضبط ولم أسألك عن الأفضل.

ـ لا تتجاوز الاثني عشر خرجاً بأي حال. ولكن الاحتياط واجب.

ـ نعم. واجب. ولكن أريدك أن تأتيني بالعدد بالضبط. لا أريد افتراضات أو احتمالات في المسائل التي تتعلق بالحرب. نحن لا نتأهب لرحلة صيد!

طاف عليهم «أخنوخن» بالدور الثاني من الشاي ولكن الشيخ غوما رفض الكوب بحركة عصبية من يده وقال بحزن كأنه يخاطب نفسه:

ـ لقد خاننا. هذا المجرم. يستعين بالغرباء والغزاة علينا. يريد أن يذلنا في ديارنا. لم يخني لوحدي، ولم يخن القبيلة وحدها. لقد خان الصحراء الكبرى من أقصاها إلى أقصاها. إنني أستبيح دمه. دمه حلال عليكم منذ هذه الساعة. قولوا هذا في الخطابات إلى شيوخ القبائل بالحرف. قولوا ذلك على لساني. هذا الخائن!

سحب لثامه حتى غطى عينيه تماماً وأضاف بلهجة قاسية:

ـ أماستان سليل النبلاء. أي نبيل يقدم على الخيانة طواعية لمجرد إدعاء بأنه ظلم ولم ينصف. دمه حلال عليكم. سليل النبلاء! يا للسخرية!

توقف الشيخ غوما لحظات فانتهز الشيخ خليل الفرصة ليقول:

ـ ياشيخ غوما ربما كان الأفضل أن نتمهل لكي...

قاطعه الشيخ غوما بغضب وهو يلوح في وجهه بيده:

ـ نتمهل؟ أنت يا شيخ خليل تقول نتمهل؟ هل تريدنا أن نجلس في بيوتنا نرقص ونغني كالنساء حتى تداهمنا الأعداء في ديارنا وتأخذنا أسرى كالخرفان؟ عجيب والله.

ثم نهض فجأة وقال بصرامة:

ـ عليكم بتنفيذ ما أمرت به وسوف نلتقي في المساء لبحث بقية التفاصيل.

ثم هبّ خارجاً. توقف في المدخل وتناول إناء كبيراً مليئاً بالماء، دلقه بحركة مفاجئة فوق الجمر معلناً عن إنهاء طقوس الشاي الأخضر وإيذاناً بإنهاء الاجتماع وربما إعلاناً عن احتجاجه ضد اقتراح الشيخ خليل.

عاد إلى البيت فاستقبلته الزنجية العجوز مستبشرة. قالت وهي تهيىء له طعام العشاء:

ـ آيس بدأ يستعيد عافيته والحمد لله. الحرارة تراجعت حتى أنه تناول فطيرتين وشرب كوباً من الشاي الأحمر.

جلس الشيخ بجوار الطفل النائم ومدّ يده يتحسس جبينه. اطمأن إلى انخفاض الحرارة في حين وضعت العجوز أمامه طعام الغداء. فطائر وكوب كبير من

حليب النوق. تذكر أنه لم يذق طعماً للطعام منذ الأمس ولكنه لا يشعر بجوع. تناول قطعة صغيرة من الفطيرة المدهونة بالسمن، ثم شرب كوب الحليب ونهض قاصداً خيمته ليغفو قليلاً قبل اجتماع المساء.

استلقى على فراش الكليم المزركش المصنوع في «كانو» مسنداً رأسه إلى الوسادة الجلدية محاولاً أن يستسلم للنوم.

ولكنه لم ينم. لقد تعود أن يهجره النوم دائماً عندما يكون مقبلاً على عمل ما. يهجره النوم ويفقد الشهية ويسقط فريسة الأعصاب. تراءت له رمال «زلآف» القاحلة، وتذكر كيف صنع من جثة ابنه الوحيد متراساً عندما اشترك في مقاومة الجيوش الإيطالية عند هجومها الأول على واحات «فزان».

(٩)

في ذلك الزمان البعيد لم يكن غوما شيخاً بعد.

أعياه الركض خلف الفتيات والمطلقات من نساء القبائل المجاورة. فجأة شعر بالوحدة والفراغ فاعتزل الناس وانطوى على نفسه في الصحراء أكثر من عام صائماً عن الطعام والماء والكلام. صام عن الكلام عاماً كاملاً، يتنقّل من واد إلى واد، ومن جبل إلى جبل، ومن خلاء إلى خلاء، ومن سراب إلى سراب. ثم عاد إلى تجمع القبيلة وأودع ابنه الوحيد عند عمه وقرر أن ينطلق إلى واحات «فزان» طلباً للعلم. قال له عمه وقتها: «وما حاجتك إلى العلم يا بني؟ ما حاجة الصحراء للعلم أو للعلماء؟ إذا لم يكن ثمة ضرر من العلم فلا نفع فيه أيضاً بالنسبة للصحراء. أنت لا تبحث عن العلم ولكنك تبحث عن نفسك. وإذا لم تجد نفسك في الصحراء فلن تجدها في أي مكان. فابق معنا ودعك من الأوهام». ولكنه لم يبق ولم يسمع نصيحة عمه الحكيم. انطلق إلى «فزان» البعيدة وأكل التمر و«الفتات» والتحق بمدرسة «الكتاتيب» لحفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة. ثم انضم إلى حلقات الذكر والتصوف. وبعد مرور سبع سنوات اكتشف أن عمه كان على حق. أدرك أنه كلما عرف أكثر كلما ازداد شقاؤه أكثر. وكلما توغل في المعرفة كلما اكتشف جهله واحتقر نفسه وشعر بالخواء والفراغ المجهول، وأن السر الغامض الذي يبحث عنه يبتعد أكثر ويتلاشى كسراب الصحراء كلما اقترب

منه، فعاد إلى القبيلة محمّلاً بمجموعة من الكتب، فاستقبلوه استقبال الحجاج العائدين من مكّة: اصطف الناس في طوابير طويلة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساء، وسرعان ما انطلقت الزغاريد، وبدأوا يعانقونه الواحد تلو الآخر، وتقدم الأطفال يقبلون يديه، ويتبركون بمسبحته وكتبه. ونصبوا له خيمة خاصة ارتادها شيوخ القبيلة وأعيانها وفرسانها بعد أن نحروا له الذبائح من المواشي والجمال. ثم أمطروه بالأسئلة عن الواحات وحال الناس في الواحات وعن الكتب. ماذا يكتب العلماء في الكتب. وكان يجيب في حدود المجاملة. لم يشأ أن يصدمهم. لم يقل لهم أن الواحات والكتب وكل شيء هو مجرد باطل. لم يقل لهم أن الإنسان نفسه منذ ميلاده حتى مماته هو باطل الأباطيل. اكتفى بالإجابة في حدود اللياقة والمجاملة برغم أنه في أعماقه ما يزال يؤمن بتلك النصيحة التي أسداها له عمه الحكيم الذي يجلس الآن أمامه ويعامله كـ«ضيف» نزل من القمر، كـ«عالم» لمجرد أنه قرأ القرآن وحفظه عن ظهر قلب، واطّلع على بعض كتب التفسير والتصوّف وجذب ما شاء له الله أن يجذب في حلقات الذكر. إنه يحتقر نفسه أمامهم، أمام مبالغتهم في استقباله والاحتفاء بعودته. فازداد حزناً وانطواء والتزم العزلة أكثر برغم أنه وافق على اقتراح الشيوخ في أن يعلم أطفالهم القراءة والكتابة والقرآن. ولولا الحياء لنهض الآن وهرب إلى الخلاء بعد أن أدرك أنه طوال هذه السنوات إنما كان يهرب من نفسه بالفعل. تذكر ما قاله له شيخ الطريقة العيساوية في الواحة:

«إعلم يا بني أن الإنسان يولد ويعيش سجين نفسه، وليس أشق على النفس مثل البحث عن النفس. فإذا انتصرت في هذه المعركة انتصرت في كل المعارك وذابت روحك في الله».

جاؤوا له بابنه الذي بلغ خمسة عشر عاماً وتحول خلال هذه السنوات التي غاب فيها عن الواحة إلى شاب يافع، فارع الطول، قوي البنية، صارم الملامح، حاد البصر. جلس بجواره فمد يده يعبث بشعر رأسه ويربت على كتفه قائلاً:

- ما شاء الله. لقد كبرت وصرت رجلاً. ما شاء الله.

قال عمه وهو يغذي النار بالحطب ويتهيأ لإعداد الشاي الأخضر:

- من حقك أن تفخر به. لقد تعلم كيف يصيب غزالة تعدو بطلقة واحدة.

ويقطع رأس الأفعى معصوب العينين بضربة سيف.

تابع ألسنة اللهب وهي تلتهم الحطب في نهم، ثم تساءل وقد لمعت عيناه ببريق الإعجاب:

ـ حقاً؟ هذا مدعاة للفخر بالفعل. السيف أصدق أنباء من الكتب خاصة في هذه الأيام. سوف تريني غداً كيف تفعل ذلك.

أثلج صدره أن يرى ابنه الوحيد، الذي لم يضيع جهداً يذكر لتربيته وقام عمه عنه بهذه المهمة، وقد تدرب على استعمال السلاح. فأيقن أنه امتلك أول أسرار الحياة في الصحراء، وأطمأن على مصيره مزمعاً أن يقوم برحلة طويلة إلى وادي النيل لزيارة أحد العلماء الذين ذاع صيتهم في السنوات الأخيرة وسمع عنه كثيراً أثناء وجوده في الواحة، ولكنه أرجأ تنفيذ هذه الرحلة إلى حين يطمئن على الفتى نهائياً ويودعه قفص الزواج عندما يبلغ السابعة عشرة. ولكن لم يمض عام حتى انتشرت أنباء مزعجة عن قصف السواحل واجتياح الجيوش الإيطالية للمدن، ولم يمض زمن حتى وصلت أخبار أخرى تقول ان الإيطاليين يتأهبون لاكتساح الجنوب والسيطرة على واحات فزان فاضطر غوما للإسراع بإنهاء إجراءات تزويج ابنه تحسباً للمجهول الذي تخبئه تلك الأيام العصيبة. وبعد مرور شهر فقط على حفل العرس وصل رسل الشيخ عبد النبي بالخبر لتجميع المقاتلين وحشد القوات لصدّ الغزاة عن واحات فزان. نصبوا للضيوف خيمة كبيرة وبدأوا في استقبال المتطوعين وتسجيل أسمائهم في أوراق خاصة. قرروا قبول مقاتل قادر من كل عائلة. ولكن غوما جاءهم وهو يجرجر خلفه ابنه الوحيد بعد أن انتزعه من فراش عروسه. قالوا له يومها:

ـ يا غوما يكفي أن نسجل ابنك ضمن قائمة المحاربين. أما أنت فمهمتك أن تقرأ لنا الكتب وتعلّم أبناءنا القرآن. والقتال عمل لا يدخل في اختصاص العلم والعلماء.

ولكنه قال لهم:

ـ الدفاع عن الصحراء واجب الجميع، وعندما يعلو صوت البندقية تخرس الكتب وتطوى الصحف وتخفى بعيداً.

لم يعلم أحد وقتها أنه يخفي حقيقة أخرى لم يقلها لأحد . لم يقل لهم أنه يبحث عن العزاء في الحرب. ذلك الهاجس الذي يعذبه ويحرق قلبه طوال حياته وبحث عنه في غرامياته مع نساء القبائل المجاورة وفي خلواته الطويلة في الصحراء، بين ثنايا السكون البهيم، الغامض، المخيم على الخلاء الأبدي، في الواحات بين صفحات الكتب وداخل حلقات الذكر . وها هو الآن يبحث عن سره في الحرب. لم يقل لهم بالطبع أنه يبحث عن السر الخفي، عن العزاء المجهول الذي يسيطر عليه ويطارده منذ سنوات، ولكنه حدثهم عن الواجب فاضطروا لتسجيل اسمه في القائمة إلى جانب ابنه.

وفي اليوم المحدد تزودوا باللحم المجفف وأكياس الرصاص والدقيق والتمر وقرب الماء . امتطوا ظهور المهاري وانضم مع ابنه الى قافلة المحاربين. نزلوا جبل الحساونة في اليوم السابع وتزودوا بمزيد من الماء وأكياس التمر لدى سكان الواحات الذين استقبلوهم بالذبائح والرقص والزغاريد . وفي اليوم العاشر التحقوا بجيش الشيخ عبد النبي الذي قاد الحملة بنفسه، وبدأ الصدام في اليوم الثالث عشر واستمر أربعة أيام كاملة قبل أن يتقهقروا وتضطرهم قذائف المدافع للانسحاب والاحتماء بجبل الحساونة.

قبل أن تصدر الأوامر بالانسحاب كان غوما يقاتل مع ابنه محتمياً بكثيب رملي مرتفع. وقد لاحظ تساقط طلقات العدو فوق قمة المرتفع في مواجهة رأس ابنه بالضبط فعرف أن قناصة العدو تستهدف إصابة رأسه طوال الوقت. انتزعه من جلبابه ودفعه إلى الجهة اليمنى قائلاً:

- أنت بارع في إصابة الهدف ولكن تنقصك الخبرة. عليك أن تغير مكانك باستمرار! إن الرصاص الذي تراه يثير الغبار أمام عينيك يستهدف رأسك. اخفض رأسك إذا أردت أن تستمر على قيد الحياة!

كان التراشق بين الجانبين قد بلغ ذروته عند انتصاف النهار، والشمس العمودية بدأت تلسع الجباه في نفس الوقت الذي أنقذ فيه العدو بالتعزيزات وبدأ القصف بالمدافع.

استمر القصف قرابة الساعة عندما جاءت الأوامر بالانسحاب فوراً بعد أن أصبح المقاتلون مهددين بالإبادة بسبب شظايا القنابل المتساقطة كالمطر.

قال ابنه وهو يتراجع محتمياً بالمرتفع الرملي:

- إنهم يأمرون بالانسحاب. لا نستطيع أن نواجه القصف المدفعي في العراء.

ثم بدأ يشتكي من العطش.

تنازعا طويلاً حول غالون الماء، فانتهز قنّاصة العدو الفرصة فأصابوه.

لقد مات. لقد أصابته طلقة من قناص إيطالي في رأسه فخرقت الجمجمة وسال الدم تحت اللثام وتسللت خيوطه إلى الرمال العطشى.

في نفس الوقت ظلت قوات العدو تتقدم محتمية بالمدرعات والمدافع فشعر غوما بأن المرتفع الرملي لن يحميه إذا اقتربت القوات أكثر من ذلك فسارع يدفع بجثة ابنه فوق المرتفع صانعاً منها متراساً صغيراً بدأ يطلق منه النار عليهم حتى أحاطوا به من كل جانب. كانت البندقية قد فرغت من الرصاص وعندما همّ بحشوها وضعوا في يديه القيود وألقوا عليه القبض. لحظتها فقط عرف أنه أصيب بشظية في ذراعه اليسرى بعد أن شاهد الدم الذي يلطخ ملابسه.. شعر بمرارة في فمه وحلقه وبدأ يجتاحه الدوار.

بقي في الأسر شهوراً كاملة امتدت قرابة العام، قابل خلالها ضباطا إيطاليين كثيرين يبدو من أسلوبهم أنهم من ذوي الرتب العالية، أمطروه بأسئلة كثيرة مختلفة، وقبل إطلاق سراحه بأسبوع قابله الجنرال «بالبو» الحاكم العسكري لطرابلس، كما علم فيما بعد، وقال له: «أنت تعرف أن مصير أولئك العصاة الذين يقاتلوننا أمثالك هو الإعدام الفوري رمياً بالرصاص. ولكن شجاعتك وتضحيتك بابنك أذهلتنا. سوف نطلق سراحك ولكن بشرط ألاّ تقاتلنا مرة أخرى. إذا وقعت في يدنا مرة ثانية فسوف نأمر بإعدامك فورا. إن تقاليدنا الحربية تجبرنا أن نهب الطرف المعادي فرصة أن ينجو بحياته. فإذا لم ينتهز هذه الفرصة فقد حكم بالإعدام على نفسه بنفسه. والآن اذهب. وحاذر أن تشهر السلاح في وجهنا مستقبلاً. وإن فعلت ووقعت عيناي عليك فإن مصيرك قد عرفته مسبقا».

عاد إلى القبيلة فاستقبله وفد منها في الواحات. كما أرسل له الشيخ عبد النبي برسول يحمل خطاباً يحييه فيه ويهنئه على سلامة العودة ويعزيه في ابنه الوحيد. وعندما وصل بيوت القبيلة كان المهرجان الاستعراضي الذي أقاموه

ابتهاجاً بعودته في أوجه.

أعدوا أكثر من خيمة، ونحروا الذبائح، وارتفعت حناجر النساء بالزغاريد وأطلقت الطلقات النارية، وانطلقت جمال السباق في رقصها وركضها الاستعراضي، وتقدم شيوخ العشائر يعانقونه الواحد تلو الآخر. ثم تقدمت النساء وكذلك الأطفال لتحيته وتهنئته بسلامة الوصول. حتى وقفت أمامه عروس ابنه التي انتزع من فراشها عريسها ودفنه في رمال «زلاف» الرامضة عند حضيض جبل الحساونة. لحظتها فقط تذكر كل شيء دفعة واحدة وهي تمد له يدها بالمصافحة. سحب طرف عمامته على وجهه ولم يلحظ أحد تلك الدمعة الحارة التي انبثقت من عينه وانسابت على خده - تحت اللثام - صانعة خيطاً صغيراً حارقاً كأنها سيخ يسلخ جلدة الخدّ بالنار.

كانت قد أنجبت حفيده آيس قبل وصوله بشهور قليلة. ولكنها ماتت بعد عام ونصف متأثرة بوباء الجدري الذي اختطف عدداً غير قليل من أبناء القبيلة كان من ضمنهم شيخ القبيلة بنفسه وعمه أيضاً. فآثر أن يرعى حفيده بنفسه فأخذه إلى خيمته وأتى بالزنجية لتشرف على تربية الطفل أمام عينيه.

في ذلك الوقت كان مجلس شيوخ العشائر مجتمعاً لاختيار خليفة الشيخ المتوفي فأرسلوا في طلبه ليعرضوا عليه استلام منصب المشيخة ولكنه رفض متذرعاً بانشغاله بتربية الحفيد. ولكنهم أصروا قائلين أنه ليس هناك رجل واحد يستطيع أن يتولى شؤون القبيلة طالما هو على قيد الحياة. وبقيت القبيلة ثلاثة أشهر بدون شيخ قبل أن ينزل غوما عند رغبتهم ويرضى بقبول المنصب.

وهو يذكر الآن جيدا أنه لولا التجربة القاسية الأخيرة في الحرب لما فعل ذلك قط. استطاعت الحرب أن تخرجه من عزلته وقلقه وجحيمه وتردده القديم وتجعله يعقد هدنة مع نفسه ويعود إلى حظيرة البشر بعد أن تراجع ذلك الهاجس الغامض الخبيث الذي ظلّ يوسوس له ببطلان الحياة ويسمم روحه بالفراغ طوال السنوات الماضية.

(١٠)

حلّ الغروب فرأى قرص الشمس الغارب محاطا باللون الأخضر فعرف أن نهار الغد سيكون قائظا. تمطّى خارج الخيمة ثم تناول عكازه وذهب يتفقد الطفل في

البيت المجاور. وجد العجوز منهمكة في الصلاة على بعد أمتار من المدخل. جلس بجوار الطفل وقد لاحظ زرقة خفيفة تكتسح شفتيه، ولكنه قال له مطمئناً:

ـ الحمد لله، صحتك تبدو بخير.. لقد شفيت تماماً.

جلس الطفل في فراشه، مسنداً ظهره إلى العمود المركزي وقال في عتاب:

ـ متى تقص لي حكاية البئر؟ لقد وعدتني من زمان. اتذكر؟

ـ نعم. اذكر. سوف أقص عليك الحكاية بعد أن تغادر الفراش. سنذهب إلى الجبل ونتغدى هناك. ربما غداً أو بعد الغد، ذلك يعتمد على صحتك.

طفحت عينا الطفل الحزينتين بسعادة مفاجئة وقال وهو يحاول أن يقفز من الفراش:

ـ إذا كان كذلك فسوف أغادر الفراش الآن.

أوقفه الشيخ ضاحكاً بحركة آلية من يده:

ـ لا. لا. سوف تغادر الفراش عندما تأذن خالتك.

ـ خالتي تقول انني شفيت تماماً.

ـ ولكنك ما زلت ضعيفاً بعض الشيء ولا بد أن تتناول طعام العشاء والغذاء والإفطار وتشرب الحليب كثيراً.

هزّ الطفل رأسه موافقاً في حين قال الشيخ وهو يهم بالخروج:

ـ عليك أن تنام الآن وتتغطى جيداً، وفي الصباح سوف نرى. عليّ أن أذهب الآن إلى بيت الشيوخ.

شيعه الطفل بنظرة حزينة آلمت الشيخ. ظلّ يفكر فيها حتى اقترب من خيمة مجلس الشيوخ حيث علت حناجر الرجال وهم يتخاطبون بأصوات عالية.

جلس بجوار الشيخ «خليل» على الفراش المزركش بخيوط رفيعة زاهية. قدم له أحد الرجال كوب الشاي الأخضر. قال وهو يرشف الشاي ويجول ببصره بين وجوه الحاضرين:

ـ نهار الغد سيكون قائظاً والعياذ بالله. قرأت ذلك في قرص الشمس عند الغروب.

قال الشيخ «جبور» وهو يخطط الرمل بعود صغير من الحطب:

ـ هذا يستدعي من الرسل التزود من الماء باحتياط. الاحتياط واجب في كل الأحوال.

علق الشيخ «آهر» وهو يحدج الشيخ غوما من تحت طرف لثامه:

ـ الصيف مبكر هذا العام عموماً. والعارفون يتنبأون بصيف ساخن جداً أجاركم الله!

ولكن الشيخ غوما اعتدل في جلسته وتساءل فجأة:

ـ كم خرج رصاص في حوزتك يا شيخ آهر؟

ـ تسعة فقط يا شيخ غوما. تسعة بالضبط.

ـ أرأيت؟ احتمالاتك كادت تضللنا. تحدثت عن اثني عشر خرجاً في الصباح. وكم معنا قطعة سلاح؟

ـ السلاح يكفي. البنادق على عدد المقاتلين بالضبط.

ـ وكم مقاتل مؤهل لحمل السلاح؟

ـ في حدود ٤٩٠ مقاتلاً.

ـ ها قد رجعنا إلى الافتراضات! أريد رقماً محدداً لا يأتيه الباطل!

أخرج الشيخ «آهر» ورقة من جيبه. بسطها أمامه وقال مؤكداً:

ـ ٤٨٥ بالضبط.

ـ يلزمنا مائة مقاتل لحماية البيوت. كما نحتاج إلى خمسة رجال على الأقل لاستجلاب التمر والدقيق من شيوخ واحات فزّان. نحتاج إلى مزيد من التموين.

التفت إلى الشيخ خليل الذي استمر صامتاً طوال الوقت وقال:

ـ بالإمكان مقايضتها بالمواشي أو الإبل.

صمت لحظة ثم رفع رأسه وتوجه بالسؤال إلى الشيخ جبور:

ـ ماذا بشأن الرسل؟

ألقى الشيخ جبور بعود الحطب في النار الخابئة في الموقد ثم اعتدل في جلسته قائلاً:

ـ أعددت الخطابات إلى شيوخ القبائل، وسوف ينطلق الرسل غداً إن شاء الله.

ـ على بركة الله. ولكن ماذا بشأن رحلتك أنت إلى غدامس؟

ـ يلزمني يوم أو يومين. لديّ بعض الظروف الخاصة... ربما استطعت أن أغادر بعد غد.

ـ ولماذا لا تسافر غداً؟ خير البرّ عاجله!

ـ إن شاء الله.

خبت النار في الموقد فأشعل رجل مصباح الغاز ووضعه في حلقة الشيوخ. قدم لهم الدور الثاني من الشاي. رشف الشيخ غوما ثم سحب البساط عن الرمال، غرس كوب الشاب في الرمل الناعم وتناول عود حطب وقال وهو يرسم دائرة كبيرة فوق الرمل:

ـ الخطة تبدو هكذا: هذه الجبال المنيعة المحاطة بغات. سوف يجتاحونها من هذا الطريق، سيخترقون هذه المرتفعات من الجنوب، وسوف يكون أمامهم طريق واحد لعبورها هو طريق العوينات.. ونحن سوف نسدّ هذا الطريق الضيق بالقناصة من الجبلين.. لن تستطيع ذبابة أن تمرّ في هذا الطريق، إذا اعترضها قناص واحد في الجبل. وسوف نبدأ الهجوم ليلاً، نحن وأوراغن من السلسلة الجبلية الشمالية والشرقية والفوغاس وكيل أبادا من المرتفعات الغربية، ولن يكون بوسعهم الانسحاب إلى الجنوب بسهولة لأن ذلك يستدعي عبور الجبال مرة أخرى.. خاصة إذا قطع الهوجار طريق الإمدادات. ولكن هناك المدافع.. أشد ما يزعجني هو المدافع. ولذا فإن الخطة تقتضي ألاّ نقع تحت طائلة المدافع.. لقد علمتني التجربة مع

الطليان أن تكون القوات في موقع لا تطاله المدافع، أو تقترب من العدو بمسافة لا تمكنه من استعمال المدافع... لأن القذائف سوف تسقط بعيداً خلف الهدف...

ظلوا متحلقين حول مصباح الغاز، ترتفع أصواتهم بالنقاش أحياناً، ثم يعودون للانكباب فوق الرمل حيث يرسم الشيخ غوما خطوطه، حتى الهزيع الأخير من الليل.

(١١)

تنتشر بيوت القبيلة تحت الجبل في عراء منبسط كأنه يمتد إلى الأبد: وهي خليط من الخيم المنسوجة من وبر الجمال أو الماعز، والزرائب المصنوعة من سعف النخيل المستجلب من الواحات. وتحت الجبل على مسافة مائة خطوة من تجمع البيوت يقع بئر أطلانطس العريق الذي لا يعرف له أحد تاريخاً، وعلى بعد أربعمائة خطوة أخرى تقوم المقبرة الجديدة، تليها المقابر القديمة بمسافة ثلاثمائة خطوة أخرى، ملاصقة لحذاء الجبل تماماً. أما الجبل الشاهق فيفضي إلى خلاء صخري، تتخلله أودية صغيرة تنتشر فوقها الأشجار البرية كالرتم والسدر والطلح، وينطلق الخلاء ممتداً حتى يذوب متواصلاً في صحارى الحمادة الحمراء في الشمال.

أما البئر المحاط بالأحياء من جانب والأموات من الجانب الاخر فقد بُنيت جدرانه بصخور هائلة لا يعرف أحد كيف تمكن الأولون من زحزحتها ودحرجتها من الجبل وبأي أدوات تمكنوا بواسطتها من صقلها ونحتها بهذا الشكل المصقول الرائع. ويؤكد سكان الصحراء أن حفر البئر كان بداية الحياة في الصحراء الكبرى كلها، وموقعه اختير بحيث يكون مركز الصحراء الكبرى، بل وتؤكد بعض الأساطير أنه مركز الدنيا وأصل الكون ومصدر الحياة في الزمان القديم، ولولاه لاندثر الناس والحيوانات في الصحراء منذ قرون. وتتحدث أساطير أخرى عن مزاجه الغامض فتقول انه يفيض أحياناً وتتدفق مياهه صانعة أنهاراً وأودية طافحة بالماء تغمر صحارى الرمال العطشى، وتتضاءل مياهه حتى تنضب تماماً أحياناً أخرى، ولا أحد يذكر متى حدث ذلك، ولكن العجائز تؤكد أن جفافه يحدث عبر أجيال وأجيال، وتؤكد أساطير أخرى أنه ينضب كل ثلاثة قرون ويستمر على هذا الحال أعواماً كاملة مما يضطر سكان الصحراء للهجرة إلى كل الجهات هرباً من

العطش وخوفاً من الانقراض.

حاول الشيخ غوما أن يتذكر كل هذه الأساطير التي تتناقلها الصحراء حول البئر عندما استيقظ في ذلك الصباح القائظ مصمماً أن يحتمي بقمة الجبل مع حفيده بعد أن تزود بالماء والحليب وحبات التمر وثلاث قطع من الفطائر الطازجة التي أعدتها الزنجية العجوز خصيصاً لتموين الطفل في رحلته الأولى إلى قمة الجبل.

فوق الجبل تمتد السهول الرمادية القاحلة إلى ما لا نهاية حتى تذوب في الأفق وتلتحم بالسماء. جلس الشيخ تحت شجرة طلح باهتة الأغصان، افترش عباءته، وأخرج التمر والفطائر من الجراب الصوفي. قال وهو يتناول قطعة تمر ويمسح العرق عن جبينه بطرف جلبابه:

ـ أنفاسك ما زالت تتلاحق، أراك قد تعبت!

قال الطفل وهو يتناول غالون الماء:

ـ لم أكن أعرف أن صعود الجبل بهذه الصعوبة.

ضحك الشيخ وقال مداعباً:

ـ ولكن ذلك، كما ترى، يستغرق نصف النهار علاوة على الجهد والتعب.

سحب نفساً عميقاً وأضاف:

ـ نسيم الشمال منعش فوق الجبل، أفضل من الجحيم الذي يخيم على البيوت في السهل. حسناً فعلنا بالصعود إلى القمة!

راقب الطفل وهو يتأمل العراء المنبسط صامتاً ثم قال:

ـ سوف نأخذ قسطاً من الراحة، ثم نتمشى قليلاً وسنرى ماذا فعل اللهَ بـ«تانس» وأخيها «أطلانتس» في حكاية البئر. سوف أستطيع أن أفي بوعدي.

***

«كانت تانس مع أخيها أطلانتس ضمن الفتيات الثلاث اللاتي ابتلعهن الخلاء وضعن في الصحراء مع إخوتهن في ذلك الزمان القديم. بحث الأهل عنهن وعن

أشقائهن الصغار شهوراً كاملة فلم يعثروا على أثر، وعندما يئسوا لملموا خيامهم ورحلوا. انتقلوا إلى صحارى أخرى بعيدة بحثاً عن الربيع والأمطار وكلأ المواشي كما تعودوا أن يفعلوا دائماً في مثل هذه المواسم.

ولكن الفتيات اهتدين إلى البيوت بصحبة أشقائهن فلم يعثروا إلاّ على الرماد. فآثار الرحّل في الصحراء لا يمكن الاهتداء إليها إلاّ ببقايا الرماد.

جلست الفتيات بين بقايا الرماد يندبن ويبكين أياماً كاملة حتى أشارت عليهن تانس بأن السعي في الأرض بحثاً عن الأهل هو البديل.

انطلقن في الصحراء الهائلة حتى قيّد الجوع أرجلهن وأعمى بصرهن فاقترحت أماريس همساً حتى لا يسمع إخوتهن الصغار:

ـ لم أعد أقوى على المشي. لا بد أن نسد رمقنا بشيء. ليس أمامنا إلاّ أن نذبح أخوتنا!

وافقتها تالا، ورفضت تانس. قالت:

ـ أموت جوعاً ولا أذبح أطلانتس.

وعندما هجم الليل قبلته في رأسه، واحتضنته بين ذراعيها وحاولت أن تنام عندما سمعت حشرجة مكتومة، نهضت مفزوعة فرأت أماريس تقف وفي يدها سكين يلمع تحت ضوء القمر فعرفت أنها قد نحرت شقيقها. ثم قامت تالا وتناولت السكين وهمّت بنحر شقيقها الذي جثا على ركبتيه أمامها وسمعته يقول متضرعاً:

ـ لا تذبحيني. انتظري. سوف نبلغ الواحة. وربما أدركنا أهلنا قريباً. سوف نشبع من لحم الغزلان والودان والطيور البرية.. وسوف نرقص في أمسيات السمر الليلية كما تعودنا، وعندما تنضجين وتتزوجين الأمير القادم من «تامنغست» سأدعو مائة فارس يرقصون في عرسك على المهاري البيضاء المزيّنة بسيور الجلد الملونة، وآتي لك من الأدغال بأساور الذهب والحلي وريش النعام.. لا تذبحيني...

ولكن تالا أسكتته بأن وضعت السكين في رقبته فأصدر أنيناً طويلاً أليماً.

أسرعت تانس تلتصق بأطلانتس وتحيطه بجسدها كأنها تحميه من السكين

الرهيب الذي يلمع تحت ضوء القمر.

في الصباح قدمتا لها قطعتين من لحم أخويهما، ولكن تانس لم تأكل اللحم ووضعت القطعتين، خلسة، في الجراب.

ثم واصلن مسيرتهن.

وعندما حلَّ المساء، وركنَّ للراحة بدأت تانس تتعشى بالأعشاب البرية مع أطلانتس. اقتربت منها تالا وقالت:

ـ لقد جعنا مرة أخرى. ليس أمامك يا تانس إلاّ أن تذبحي أطلانتس.

قالت تانس في فزع:

ـ لن أفعل!

قامت أماريس وصفعتها على وجهها قائلة:

ـ أخوك ليس أفضل من أخوينا. لقد أكلت قطعتين. قطعة من أخي.. وقطعة من أخ تالا. هيّا.. عليك أن تعطينا الآن قطعتين من اللحم كما أعطيناك.. كل شيء بمقابل!

أخرجت تانس القطعتين من جرابها وقدمتهما لهما.

تضاحكت تالا وقالت بخبث:

ـ هل صدقت؟ لقد كنا نمزح. اطمئني.. سوف لن نطلب منك ذبح أطلانتس مقابل القطعتين.

انطلت الخدعة على تانس هذه المرة وأكلت القطعة بعد أن قدمت الأخرى إلى شقيقها الحبيب أطلانتس.

في الصباح واصلن المسيرة.

وعندما حلَّ المساء عادتا تطالبانها بالقطعتين، ولما أصرّت على ألا تذبح أطلانتس ضربتاها وشدّتا شعرها ودفنتا وجهها الساحر الجميل في التراب دون أن يستطيع أطلانتس الصغير المسكين أن يقدم لها المساعدة. وعندما فاض بها

العذاب وافقت أن تمنحهما القطعتين. قالت أماريس في فرح:

- إذن سوف تقومين بذبح أطلانتس!

- لن أذبح أخي.

- وكيف ستردين لنا القطعتين؟

- سوف ترين.

تناولت السكين وقطعت قطعة لحم من فخذتها اليمنى وقطعة أخرى من فخذتها اليسرى وقدمتهما لهما.

ربطت جراحها بقطعة من جلبابها ثم قررت أن تفارقهما إلى الأبد.

واصلت تالا وأماريس مسيرتهما في طريق، وواصلت تانس المسيرة في طريق آخر.. تجرجر رجليها المثخنتين، المخضبتين بالدماء، يسندها حبيبها الصغير أطلانتس حتى ابتلعهما الرمل الذي تمدّد أمام البصر إلى ما لا نهاية.

بعد رحلة أيام اهتدت تانس إلى واحة صغيرة تقوم فيها نخلة باسقة فوق بئر ماء. مكثت هناك أياماً وشهوراً تقتات - مع أطلانتس - على التمر وتشرب الماء حتى جاء يوم رأت فيه قافلة كبيرة يتقدمها فارس نبيل يبدو من مظهره أنه أمير. سارعت تتسلق، مع أطلانتس، شجرة النخيل وتجلس بين أغصانها. رأى الأمير وجهها الساحر في صفحة ماء البئر فأذهله جمالها وصاح يخاطب أتباعه وعبيده:

- هذه الحسناء. التي يعكس وجهها الماء، ستكون زوجتي.. حتى لو كانت في السماء، حتى لو كانت في الحلم.. حتى لو كانت وهماً. لقد عقدت العزم على أن تكون زوجتي إلى الأبد.

- وخاطبته تانس من فوق النخلة الفارعة:

- لن تتزوج تانس حتى يكون لأخيها أطلانتس جمل أبيض ضامر... وسيف من ذهب.

- لك ما أردت!

قال الأمير.

ـ لن تتزوج تانس حتى يكون لحبيبها أطلانتس سرج مطرزٌ بخيوط الذهب والفضة.

قالت تانس.

ـ لك ما أردت!

قال الأمير.

ـ لن تتزوج تانس حتى تضع تحت تصرف أطلانتس مائة من العبيد وعشرة من الأتباع.

قالت تانس.

ـ لك ما أردت.

قال الأمير.

ـ لن تتزوج تانس حتى تضع تحت تصرف أطلانتس قافلة من النوق والجمال والرعاة.

ـ لك ما أردت!

قال الأمير.

ـ لن تتزوج تانس حتى تتأكد أن أطلانتس سيظل بجوارها ولن يفارقها أبداً.

قالت تانس.

ـ لك ما أردت.

قال الأمير.

عندها نزلت تانس من فوق النخلة مع أطلانتس وقبلت أن تتزوج الأمير الذي قرر أن يستوطن تلك الواحة، فأمر أتباعه وعبيده أن يغرسوا النخيل، ويشيدوا البيوت، ويزرعوا القمح والشعير.

وعاشت تانس مع زوجها سعيدة. يرافقها حبيبها أطلانتس في رحلات الصيد في الخلاء.. يصطادون الغزلان والوعول البرية والطيور، يجلبون الكمأ في مواسم الأمطار. ويسهمون في الحرث والزراعة في الواحة أثناء الفراغ.

ولكن سعادة تانس لم تدم طويلاً. فقد التحقت بالأمير زوجته الأولى برفقة أمها في قافلة من الجمال والعبيد. وكانت امرأة شريرة حاقدة ما لبثت أن كرهت تانس وحسدتها على جمالها الأسطوري، وشرعت تحيك ضدها المؤامرات وقد تعود الناس أن يأتوا إلى تانس في الليالي المظلمة، يركعون تحت أقدامها ويتوسلونها قائلين:

- يا تانس! اكشفي عن وجهك، وأضيئي لنا الليل البهيم. إننا نريد أن نحلب النوق على ضوء وجهك الذي ينافس البدر!

فتزيح تانس اللحاف عن وجهها الساحر وتنير الصحراء بجمالها فأثار ذلك زوجة الأمير الكريهة وقررت أن تدبر مؤامرة تتخلص بها من تانس بعد أن نهشت الغيرة قلبها. هجمت عليها مع أعوانها في إحدى الأمسيات وهي عائدة من حصاد الزرع، وأوثقتها بالحبال وشدت شعر رأسها إلى صخرة هائلة ألقت بها في واد سحيق. وعادت إلى البيوت وجلست مكان تانس بعد أن لبست ملابسها والتحفت بلحافها. وعندما جاء الليل أقبل الناس وركعوا تحت أقدامها وتوسلوها كما تعودوا أن يفعلوا:

- يا تانس، اكشفي عن وجهك، وأضيئي لنا الليل البهيم. إننا نريد أن نحلب النوق على ضوء وجهك الذي ينافس البدر!

ولكن المرأة الخبيثة رفضت أن تكشف عن وجهها لأنها تعرف أنها لا تستطيع أن تضيء به ليل الصحراء مثل تانس. استغرب الناس ولكنها تذرعت بأن صحتها ليست على ما يرام. جلس بجوارها أطلانتس كما تعود أن يفعل في الأمسيات فشرعت تقرصه وتوخز عجيزته بإبرة حادة فدهش واحتج وأعلن للناس أن هذه المرأة ليست تانس. ولما لم يصدقه أحد قامت المرأة اللئيمة وقالت انها لم تعد في حاجة إلى أطلانتس المدلل وعليهم أن يتخلصوا منه حالاً. استغرب الناس، وأقبل الأمير وتوسلها قائلاً:

- اعقلي يا تانس. لا يمكن أن تملّي حبيبك الصغير هكذا بين يوم وليلة، بعد كل

ما فعلتيه من أجله.

ولكن المرأة اللئيمة أصرّت قائلة:

ـ لقد مللته وقررت أن أتخلّص منه. عليكم أن تفعلوا ذلك أمامي الآن!

هم الناس بتنفيذ الإعدام في أطلانتس.

ولكن أطلانتس الذي شك منذ البداية في أمر هذه المرأة توسّل قائلاً:

ـ اسمحوا لي أن أنادي ثلاث مرات. ولتكن هذه رغبتي الأخيرة قبل تنفيذ حكم الموت.

ـ لك ما أردت.

قال الأمير.

وقف أطلانتس فوق المرتفع ونادى بأعلى صوته:

ـ تانس! تانس! إن أطلانتس في طريقه إلى المذبح!

فأجابه صوت تانس من الوادي كأنه يأتي من بئر عميق:

ـ وماذا تستطيع تانس أن تفعل لأطلانتس إذا كان رأسها مشدوداً إلى صخرة، وصدرها يرزح تحت صخرة أخرى!

فهرع الناس يتقدمهم الأمير إلى الوادي، وخلصوا تانس من أسرها ونجا أطلانتس من حكم الموت. وضع الناس الحكم على المرأة المجرمة في يد تانس: فأتت بجوادين يركبهما معتوهان، شدت رجل المرأة اليمنى إلى جواد، ورجلها اليسرى إلى الجواد الآخر، وانطلق الجوادان في اتجاهين متعاكسين فتمزقت المرأة إلى نصفين، دستهما تانس في وعاء كبير وبعثت به إلى أم المرأة.

ولكن الأمير أيضا بدأ يشعر بالغيرة من أطلانتس، فاستدرجه لإحدى رحلات الصيد وأوثقه إلى شجرة طلح وتركه في الصحراء فريسة للذئاب المفترسة وعاد إلى تانس وادعى أنه ضاع في الخلاء. ولكن تانس التي أحست بمشاعر زوجها نحو شقيقها الحبيب جمعت الأعوان من الأتباع والعبيد وخرجت تبحث عنه في

محيطات الرمال المجاورة. أدركته قبل أن تهاجمه الذئاب، ولكن العطش كاد يفتك به.

عادت تانس إلى البيوت وقررت أن تنتقم من الأمير الذي خدعها وحاول أن يسلبها أطلانتس، فاقترحت عليه أن تحلق له شعره. ولكنها بدل أن تقطّع شعره قطعت رأسه!

نصّبت تانس نفسها أميرة على الواحة التي بدأت تنمو وتكبر وتصبح مركزاً لتجار القوافل الذين يفدون من مدن الشمال في طريقهم إلى أدغال القارّة محملين بالأقمشة والملح والتوابل والدقيق لمقايضتها بالذهب وريش النعام وسن الفيل والأحجار الكريمة وجلود الزواحف والحيوانات.

ازدهرت الواحة الصغيرة وكبرت حتى أصبح يطلق عليها «جوهرة الصحراء الكبرى».

وكان أطلانتس قد ولع بالصيد حتى لم يعد يستطيع أن يبقى يوماً واحداً في الواحة. يحمل أمتعته على جملين أو ثلاثة وينطلق إلى العراء في الصحارى المجاورة ويمكث هناك أياماً وأسابيع تمتد حتى الشهر أحياناً، يتسلى بصيد الودان والغزال والطيور. وفي إحدى الرحلات غاب أطلانتس ما يزيد على الشهر فقلقت تانس وأرسلت الأعوان للبحث عنه ولكنهم عادوا بعد أيام دون أن يعثروا له على أثر. انزعجت تانس وانطلقت بنفسها في موكب من العبيد والأتباع يبحثون في الصحارى طولاً وعرضاً حتى وجدته تحت سدرة ضخمة ميتاً من العطش بعد أن تاه في محيط الرمال العظيم.

حزنت تانس وبكته أياماً وأسابيع، وعندما دفنته ركعت فوق قبره على ركبتيها وفاضت آلامها وقالت في بكائيتها الشهيرة: «أحببتك كما لم تحبك أمك التي ولدتك، أطعمت تالا وأماريس قطعاً من لحمي حتى لا تنهشان لحمك.. احتضنتك بين ذراعي عندما كنت اشرف على الموت جوعاً دون أن يخطر ببالي أن تمس بأذى كما فعلت تالا وأماريس بأخويهن. تزوجت الأمير بعد أن نفذ شروط حصولك على ما شئتَ من أدوات الفرسان والنبلاء. ومزقت زوجته إلى نصفين لأنها أرادت أن تنفذ فيك حكم الموت. وقطعت رأس الأمير لأنه ألقاك للذئاب وأراد أن يفتك بك. فعلت كل شيء من أجلك، وعاقبت كل من سولت له نفسه أن

يمسك بسوء، ولكن الصحراء غلبتني، وانتزعتك مني. فتبا لك ايتها الصحراء الكبرى.. ما أقساك! ولكن أقسم أنني سوف انتقم لك من الصحراء أيضاً. فاهنأ في نومك الأبدي، لأنه لن يهدأ لي بال حتى تغمر المياه رفاتك في القبر.. وقتها تستطيع أن تقول ان تانس قد وفت بوعدها».

ويقول الأولون أن تانس عادت إلى الواحة في ذلك اليوم واجتمعت بتجار القوافل وأرسلت في طلب المنجمين والعرافين وخبراء الفلك وقراء الغيب وذوي العلم من كل أنحاء الأرض، من سواحل الشمال البعيد شمالاً ومن ما وراء نهر النيجر جنوباً، ومن تمبكتو غرباً حتى وادي النيل شرقاً وقد وعدت أن تجزل لهم العطاء، وحملتهم بأكياس الذهب والأحجار الكريمة وقطعان المواشي جزاء من يستطيع أن يدبر لها أمر قهر الصحراء بتفجير منابع الماء وفاء بوعدها لحبيبها أطلانتس.

وقد جاءها الرسل والخبراء والمنجمون وقرّاء الغيب وذوو العلم من جهات الدنيا الأربع طمعاً في المال وجرياً وراء بريق الذهب فجمعتهم وقالت لهم: «قررت أن أغزو الصحراء الكبرى بالماء. وأريدكم أن تدلوني، بعلمكم وخبرتكم على المكان الذي يصلح لأن يكون نبعاً يروي عطش محيط الرمال، ويجعل منه جنة خضراء. لا بد أن تتحول قارة الصحراء إلى جنة خضراء». وعدوها خيراً، وطلبوا مهلة للتشاور واستشارة الغيب والنجوم والكواكب والأفلاك. ثم جاؤوها، بعد زمن، محملين بخرائط الأرض ورسوم الفلك والكواكب الأخرى وأجمعوا على أن يتم الحفر في نقطة تبعد مسافة شهر ونصف شمال الواحة، تحت الجبل، وأكدوا أن تلك النقطة هي قلب العالم ومركز الكون كما حدثتهم الكواكب والنجوم، وقال أحد المنجمين القادمين من بلاد الهند البعيدة أنه قرأ ذلك في صفحة وجهها الساحر المرتبط بأجمل كوكب هو القمر برباط خفي لا تعلمه إلاّ النجوم، وتنبأ لها بأن المياه سوف تتدفق وتغمر الدنيا طالما بقي وجهها يدب ويسطع فوق سطح الأرض. ولكن المياه سوف تختفي باختفائها من الوجود، ومقاومتها هي تحدٍّ لإرادة الآلهة لأنها ظلّها على الأرض، ولا تسمح بتحدي إرادتها إلاّ لمن اصطفت واختارت ونفخت فيه من روحها من دون الكائنات الأخرى.

انطلقت تانس على الفور إلى المكان الذي حدده العرافون وقراء الغيب ليكون مصدراً للنبع الذي سيغمر الصحراء الهائلة بالماء والحياة، وأمرت رعاياها بالحفر

ليلاً ونهاراً بلا توقف. انبثقت المياه بعد عام من الحفر المستمر، وتدفقت عبر الصحراء، تكتسح السهول الجرداء وتغمر الرمال القاحلة، وتغزو البيداء الأبدية، فتكونت الأنهار، وانتشرت البحيرات، ونمت غابات الكروم والزيتون والعنب وكل أنواع الفواكه، ونبتت المزروعات والأعشاب الاستوائية الخضراء وبدت السهول المكسوة بالخضرة مثل بسط من السجاد العجمي الأخضر، فارتوى رفات أطلانتس، وارتوت معه أعماق الصحراء الكبرى العطشى منذ قرون وقرون وقرون.

تنفست تانس الصعداء وقالت في نفسها: «الآن أستطيع أن أقول لأطلانتس أنني وفيت بوعدي، وسقيت رفاته، وانتصرت على الصحراء القاسية التي انتزعته مني وهو في عنفوان شبابه».

ولكن تانس الجبارة لم تكتف بتفجير النبع الذي يخترق الآن الصحراء بالأنهار والمستنقعات ويغمرها بالبحيرات والأدغال. فبعد أن أطلقت على النبع اسم «أطلانتس» قررت أن تشيد المدن وتبني الجسور والسدود، وتصل الواحة بالنبع في مدينة واحدة هائلة. وقد استطاعت أن تجعلها مركزاً لمضارب التجار، وتبادل البضائع، وتجارة الرقيق والذهب والأحجار الكريمة والتوابل والصناعات والجلود، فازدهرت المدينة وشيدت القصور والبيوت ذات المعمار البديع، وأصبح يرتادها العلماء والخبراء والمنجمون من كل أنحاء الأرض.. وامتدت المدينة من نبع «أطلانتس» حتى الواحة متواصلة على مسافة شهر ونصف وأطلقت عليها اسم «أطلانتيدا» الآفاق، وجاء الناس من وراء البحار والأنهار والمحيطات بعد أن أصبحت منارة للعلم والحضارة وقبلة لكل من ينشد العلم أو يتوق للمعرفة، وأصبح يقال بأن أطلانتيدا هي جنة الله على الأرض، ومن لم يزرها فإنه لم يعش في هذه الدنيا، فتقاطر عليها الناس من كل صوب حتى كبرت واتسعت وامتدت حدودها حتى المحيط غرباً وما وراء النيجر جنوباً والبحر شمالاً ونهر النيل شرقاً. وقد جعلت للنساء سلطة على الرجال الذين لزموا البيوت فتلثموا خجلاً في حين قاتلت النساء وجئن بالأسرى. أخضعت الملكة تانس بجيشها القوي الجبار الأمصار والأقطار، الشعوب والقبائل، البعيدة والقريبة. وتربعت على عرش الامبراطورية أربعين عاماً.

وعندما ماتت حدثت حركة غريبة في نظام النجوم، وقادت الكواكب الأخرى حملة ضد القمر، فحدث ما يسمى بـ«الخسوف» لأول مرة كما يؤكد المنجمون

من أهل الخبرة والعلم، فهبت الأعاصير العاتية والعواصف المحملة بالغبار كنتيجة لصراع الكواكب بعد أربعين يوماً بالضبط من وفاة سليلة القمر تانس العظيمة، واستمرت العواصف والرياح أربعين يوماً بلا انقطاع، حتى غمرت الامبراطورية كثبان الرمال، وأغرقت الغابات والأنهار والمدن بموجات هائلة من الأتربة المتصاعدة ليل نهار، وأبادت المواشي وقطعان الإبل والحيوانات البرية، ودمرت المعمار فهرب السكان طلباً للنجاة من طوفان الرمال. لجأوا إلى المدن البعيدة المجهولة وراء البحار والمحيطات. وعادت الصحراء تزحف على الصحراء، قاسية، متجبرة، متسلطة، تسيطر على الدنيا كما في سابق عهدها واندثرت «أطلانتيدا» منارة العلم والحضارة. وبقي «بئر أطلانتس» رمزاً بائساً لهذه الحضارة الخرافية التي لمعت فجأة وانطفأت فجأة. وظل البئر ملجأ للرعاة وعابري السبيل، تنزح مياهه فيهاجرون إلى الواحات المتناثرة هنا وهناك، تطفو المياه فيعودون إليه، ويقيمون حوله دون أن يجدوا تفسيراً لظاهرة اختفاء المياه التي تحدث، حسب ما تتناقله الأجيال، كل ثلاثمائة عام. ويؤكد البعض في قصصهم أن لاختفاء المياه في البئر علاقة مباشرة بعدد المرات التي يحدث فيها خسوف القمر في العام الواحد. أما قارة «أطلانتيدا» العتيدة فقد اختفت بعيداً في جوف الأرض، بعد طوفان الرمال الرهيب».

(١٢)

في اليوم الذي سبق الرحيل الطويل ذبح الشيخ جبور ماعزاً ودعاهم إلى الغداء في خيمته التي تنتصب في نهاية النجع حيث تبدأ متاهة الرمال وتمتد جنوباً. جاء ابنه الأصغر أمغار يوزع الكبدة المشوية في عود طويل مقتطع من شجرة رتم خضراء. في حين انشغل شقيقه الأكبر أخنوخن بإعداد الشاي الأخضر. تناول الشيخ غوما قطعة الكبد وتساءل ملتفتاً إلى الشيخ جبور الذي جلس على يمينه:

- قلت ان الشيخ أخواد سيقود الحملة بنفسه إلى هناك؟

- يؤكد على ما قلت من أن الدفاع عن الصحراء مسؤوليتنا جميعاً، كباراً وصغاراً، البعيد والقريب.

ـ بارك الله فيه. إنه رجل نبيل وشجاع.

ـ يقول أيضاً أنه لم يشترك في حرب منذ زمان حتى أن إصبعه نسي كيف يضغط على الزناد.

صمت لحظة ثم أضاف مبتسماً:

ـ .. حتى أن بندقيته أكلها الصدأ، وطلب مني أن أبلغك أن هديتك له ستكون بندقية جديدة بعد الانتهاء من حرب غات.

ضحك الشيخ غوما فجأة فانكشف فمه عن أسنان بيضاء ناصعة وقال بمرح طفولي:

ـ هدية شيخ منفساتن إلى شيخ الفوغاس بندقية! مجرد بندقية! أعتقد أنها لن تكون بندقية عادية. كعبها من ذهب وفوهتها من فضة!

وعاد يضحك مرة أخرى. ضحك معه الجميع. ربما لأنه نادراً ما يضحك.

مزاجه اليوم على أحسن ما يرام، فانعكس ذلك على الحاضرين. فسمحوا لأنفسهم بتبادل النكات وترديد بعض الحوادث الفكهة.

ولكن الشيخ غوما عاد إلى لهجته الجدية. قال وهو يلتفت إلى الشيخ خليل:

ـ أعتقد أن بقاءك أمر ضروري لحماية البيوت. سنبقي لك مائة مقاتل. أعتقد أنه عدد كاف. كان من الممكن أن يبقى الشيخ آهر. ولكنه الآن في الطريق إلى هناك مع قافلة الماء والمؤن. سدد الله خطاه. سوف ندركه بعد أيام إن شاء الله..

جاء أخنوخن يوزع عليهم الدور الأول من الشاي. ساد صمت قبل أن يتمتم الشيخ خليل:

ـ أمر الله. سأبقى هنا مختبئاً في البيوت كالنساء. وفقكم الله على أي حال.

علق الشيخ غوما بهدوء:

ـ ولكن حماية البيوت أيضاً عمل مقدّس. لا تنسَ ذلك يا شيخ خليل.

أيّده الشيخ جبور بحركة موافقة من رأسه في حين التزم الشيخ خليل الصمت

منكساً رأسه يخطط الرمال الناعمة بعود من الحطب في حركات فوضوية عصبية. أتى أمغار بصحن كبير للغسيل. وتحلقوا حول صحن الكسكسي الخشبي المتوّج بقطع كبيرة من اللحم. كانت عظمة الكتف من نصيب الشيخ غوما. لم تكن من نصيبه، ولكنه تسلل بأصابعه واستولى عليها من أمام الشيخ خليل ودحرج له المسلان حيث تندس الكلية. فعل ذلك بحركة بارعة بحيث لم يلحظ أحد.

جرد عظمة الكتف من اللحم ورفعها في مواجهة الضوء وشرع يتأملها طويلاً. فضحت عيناه قلقاً مفاجئا ولكنه اختفى فجأة أيضاً. ألقى بها في موقد النار وعاد بيده إلى صحن الكسكسي في حين ظلت ملامح وجهه جامدة، بل اكتسحتها صرامة طارئة.

تبادل الشيخ جبور مع الشيخ خليل نظرات خاطفة، ثم تساءل الشيخ خليل بهدوء:

ـ خير ان شاء الله. ماذا قرأت لنا في عظمة الكتف؟

قال الشيخ غوما دون أن يرفع رأسه عن الصحن:

ـ لا شيء. لا شيء سوى الجفاف. ولا قطرة مطر!

علق الشيخ جبور بعد لحظة صمت:

ـ كالعادة. تعوّدنا على الجفاف. لم يعد يدهشنا شيء.

قرر الشيخ غوما أن يغير مجرى الحديث فقال بمرح وهو يغسل يديه:

ـ أتدرون من أكل الكلية؟

هتفوا بصوت جماعي كأنهم اكتشفوا قارة:

ـ من؟ من بالله؟

ـ الشيخ خليل..

وأعقب ذلك بضحكة حقيقية طويلة. ضجوا معه بالضحك. قال الشيخ غوما وهو يستلقي على قفاه في ضحكه المتواصل:

ـ لقد خدعته.. أنا الذي خدعته، دفعت له بالعجيزة حيث تختبىء الكلية في لفافة الشحم، وسرقت عظمة الكتف من أمامه دون أن يلاحظ ذلك...

هتف الشيخ جبور وهو يمسح الدموع. بطرف لثامه:

ـ إذن فزنا بالوليمة القادمة. من حظك يا شيخ خليل أننا سنرحل غداً. ولكنك مدين لنا بذبيحة! لا منقذ من الوليمة! سوف تذبح لنا جملاً عندما نعود من رحلتنا.

قال الشيخ خليل في خجل وهو يرفع لثامه إلى أنفه ليخبىء عينيه:

ـ فعلها الشيخ غوما. لعنة الله على الشيطان. ولكن الذنب ذنبي... لقد سرح بي الخيال قليلاً. الفضل يرجع إلى الشيطان الذي سرح بي. لعنة الله عليه. فلا تفاخر يا شيخ غوما كثيراً ببراعتك في دس الكلية واصطياد الولائم. لعنة الله على الشيطان. ولكن لا يهم... أنا مدين لكم بالذبيحة بعد عودتكم إن شاء الله..

قال الشيخ غوما وهو يستمر في مغالبة الضحك:

ـ اعترف يا شيخ خليل أنك قليل الخبرة. لماذا لا تعترف؟ إن الشيطان عليه اللعنة لا دخل له هنا. الذنب ذنبك وحدك..

استمروا يتندرون على الشيخ خليل الذي وقع في الفخ وأكل الكلية حتى وقت متأخر من الليل.

خرج الشيخ غوما أولاً. لحق به الشيخ جبور ومشى معه خطوات ثم وقف فجأة وسأل وهو ينظر في عيني الشيخ غوما:

ـ ولكن قل لي يا شيخ غوما: ماذا رأيت حقاً في عظمة الكتف؟

فوجىء الشيخ بالسؤال ولكنه سارع يقول:

ـ لا شيء. لقد قلت لك انه الجفاف.

ـ ولكني قرأت في عينيك قلقاً أعرفه جيداً.

ـ يخيل لك ذلك.. ولكني لم أر سوى الجفاف. ماذا يمكن أن أرى؟

ـ ولكنك ألقيت بالعظمة في موقد النار.

ـ وماذا في ذلك؟

ـ حتى لا يقرأها أحد بعدك.

ـ سبحان الله يا شيخ جبور. إنك تصرّ على أني رأيت ما لم أره!

ولكن الشيخ جبور قبل أن ينصرف نظر في عينيه نظرة طويلة غامضة على ضوء القمر الباهت، ثم استدار راجعاً وهو يتمتم:

ـ حتى صباح الغد. تصبح على خير على كل حال.

استيقظ الشيخ غوما مبكراً. غسل أطرافه وتوضأ وصلّى الفجر. ارتدى فوق ملابسه البيضاء الجديدة ثوباً أزرق وعمامة زرقاء كالتي تلبس عادة في المناسبات. جاءته الزنجية العجوز بالإفطار فوق صينية من النحاس: كأس الشاي الصغير، كوب الحليب، وقطعة خبز التنور بالكركم التي تعوّد أن يأكلها في الواحات سنوات التنقل والقلق والضياع.

قال وهو يتقرفص أمام موقد النار في المدخل:

ـ حضّري عدة المهري. الجراب الملون الجديد، والحزام المطرز بسيور الجلد، وكذلك السرج الذي تلقيته هدية من شيخ أوراغن.

وافقته بحركات متتالية من رأسها، ثم نهضت وقالت مطأطأة الرأس:

ـ أم أماستان.

رفع نحوها رأسه في حين أضافت بصوت مكتوم:

ـ انتقلت إلى دار الحق.

ـ متى؟

ـ في وقت متأخر من ليلة البارحة. قبل الفجر بقليل.

تمتم وهو ينكس رأسه وينشغل بمد النار بالحطب:

ـ رحمها الله. سوف يقوم الشيخ خليل بالواجب. الصلاة ومراسم الدفن. لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

انصرفت العجوز وأقبل آيس. قال وهو يجلس بجواره مغمض العينين. ما زال يغالب النعاس:

ـ خالتي قالت انك تتأهب لرحلة طويلة. هل هي رحلة صيد؟

ـ نعم. ولكن ما الذي أيقظك في هذا الوقت المبكر؟

ـ أريدك أن تأخذني معك. أريد أن أتعلم الصيد.

ـ في المرة القادمة. سآخذك معي وتتعلم الصيد. ولكن قبل أن تذهب إلى الصيد سوف نبدأ بتعلم القراءة والكتابة. سأعلمك كيف تقرأ القرآن وكذلك كتب التفسير.

ـ متى؟

ـ في المرة القادمة عندما أعود.

ـ ولكن متى ستعود يا أبي؟

لقد تعود الطفل أن ينادي جده بـ«أبي» ربما لأنه لم يعرف أبيه أبداً.

قال الشيخ بعد لحظة تفكير:

ـ عندما يشاء الله. ربما بعد شهر.. ربما أكثر..

أتى له أحد الأتباع بالجمل، أناخه أمام البيت وشرع يثبت فوقه السرج الجديد المطرز بخيوط الفضة الذي تلقاه هدية من شيخ أوراغن.

طوق الشيخ خصره بحزام جلدي مطرز بالرصاص ووضع البندقية فوق كتفه. صافح العجوز مودعاً وداعب رأس الصبي ومشى في عتمة الفجر صوب السهل حيث يتجمع المقاتلون مع الشيخ جبور كما تواعدوا البارحة.

مشى بخطى بطيئة يقود المهري خلفه والبندقية منصوبة فوق كتفه الأيمن. في مداخل الأكواخ والبيوت تجمعت النساء وبعض الرجال ولكنه لم يسمع زغرودة

واحدة. تذكر المأتم المفاجيء فاكتأب وتشاءم وفكر «هذا فأل سيء».

في السهل علا الضجيج، أصوات الرجال المترجلة والتي أخذت مكانها فوق ظهر المهاري، ورغي الجمال، اختلطت كلها صانعة صخباً وضوضاء تخرق سكون فجر الصحراء.

استقبله الشيخ خليل مترجلاً عن جمله. رفع حاجبيه مستفهماً فقال خليل:

ـ لقد قررت أن أودعكم.

ـ حسناً. ولكن لمسافة يوم فقط. لسنا بغرباء ولا بضيوف نبلاء حتى تشيعنا ثلاثة أيام. ثم لا تنس أن وراءك الصلاة على المتوفاة وتشييع جنازتها.

وافقه بهزة من رأسه في حين أقبل الشيخ جبور يصافحه ويقدم له التعازي:

ـ عانت كثيراً، رحمها الله.

ـ نعم. لقد أراحها الله من الألم. مسكينة، لم تتحمل الصدمة. لقد فتك المجرم بقلبها.

لاحظ الشيخ جبور أنه لم يذكر اسم أماستان، فعرف أن القطيعة بينهما أبدية.

عندما أشرقت الشمس واكتسحت أشعتها الذهبية الصحراء تحركت القافلة الكبيرة في طابور طويل عبر الخلاء الأبدي الموحش. كانت أرجل الجمال تدوس التضاريس البكر التي رسمتها الرياح فوق صفحة الرمال فتنتهك براءة البيداء التي تبدو الآن، في ضوء الشمس، مستمرة بلا نهاية حتى تلتصق بالفضاء، في عناق سرمدي حميم.

وبرغم الكآبة التي سادت على القافلة منذ الصباح بسبب موت أم أماستان المباغت إلاّ أن المقاتلين فوجئوا بالشيخ غوما يرفع عقيرته بالغناء مردداً أبياتاً قديمة:

عندما أقبل أمود ودقت طبول الحرب،
استقبلناه بالبنادق والرجال،

قدمنا له ما عندنا من المهاري والجمال

الضامرة، الساحرة، المدربة على الركض والقتال.

(١٣)

وقف آيس في مدخل بيت باتا وقال وهو يتأمل جمال هذه المرأة الساحرة:

- خالتي تطلب أن تعيريها حفنة من الملح.

بحلقت فيه بعينيها الخضراوين الآسرتين اللتين تبدوان كأنهما تنظران في الفراغ وقالت باسمة:

- آه. هذا أنت.. آيس، حفيد الشيخ العظيم غوما. ادخل.. لماذا تقف في المدخل كالغريب؟ لقد كبرت. قريباً ستكون رجلاً مثل المرحوم أبيك، بل مثل الشيخ نفسه، عندها سوف أزوجك زارا.

ولكن آيس طأطأ برأسه وقال في خجل:

- لا أريد أن أتزوج زارا.

- لماذا؟ إنها تكبرك كثيراً.. ولكن هذا لا يهم. أفضل زوجة هي التي تكبر الرجل بعشر سنوات. ألا توافقني؟

ظل آيس منكس الرأس يعبث بجلبابه بأطراف أصابعه ثم أعلن بغتة:

- أريد أن أتزوجك أنت!

عقدت الدهشة لسان المرأة. حدقت في وجهه لحظات قبل أن تفلت منها قهقهة جذابة. ثم أخذته من يده وأجلسته أمامها وقالت:

- أنت حقاً حفيد الشيخ غوما. لم أر طفلاً أجرأ منك أبداً. ولكن ماذا يعجبك فيّ؟

ـ أنت جميلة مثل تانس. جمالك ينافس القمر ووجهك يضيء الصحراء في الليل!

عادت باتا تقهقه نفس قهقهة الإغراء والجاذبية قبل أن تقول:

ـ آه، وتعرف تانس ابنة القمر وملكة الصحراء، أيضاً. من أين تعرف تانس؟

ـ أبي حدثني عنها في حكاية البئر.

ـ الشيخ غوما بنفسه حدثك عنها؟ يا له من شرف كبير. من المؤكد أنه يعرف تفاصيل في حكاية البئر لا يعرفها أحد غيره. ولكن رجلاً مثله لا يبوح بأسراره لأحد. ولا يعلن عما يريد فعله إلا في لحظة الفعل! يا له من رجل غامض!

ـ قال انه سيعلمني القراءة والكتابة، وسأحفظ القرآن على يديه عندما يعود.

ـ هذا أكيد. لا بد أن تكون رجلاً عالماً مثله.

ـ وسوف يعلمني الصيد أيضاً.

ـ هذا أكيد. الصيد من مزايا الرجال. إذا لم تتعلم كيف تصطاد الغزلان الطائشة في الهواء، والودان الذي يتسلق الجبال في سرعة الريح فأي فتاة يمكن أن ترضى بك عريساً؟

ولكن آيس عاد يقول في إصرار مدهش:

ـ ولكني لا أريد الفتيات. أريد أن أتزوجك أنت!

ضحكت مرة أخرى ثم تمتمت وهي تنحني فوقه وتداعب شعر رأسه:

ـ أرجو المعذرة. لقد نسيت أنك خطبتني.

ثم انتصبت بقامتها الفارعة، فبدت أردافها المكتنزة مستديرة برغم الثوب الفضفاض، ودخلت خلف الستارة ونهداها النافران يكادان يهتكان الثوب. عادت بعد قليل بكوب كبير من اللبن. قالت وهي تقدم له الكوب وتجلس أمامه على النطع:

ـ ولكن باتا لن تتزوج حتى يكبر آيس ويصير رجلاً يركب جملاً ضامراً

أبيض وسرجاً مطرزاً بخيوط الذهب والفضة، يتمنطق بسيف من ذهب، ويملك مائة عبد وعشرة أتباع، تحت تصرفه قافلة من النوق والجمال والرعاة.

هتف أيس وقد غمرت وجهه تعابير الفرح:

ـ آ.. هذه تانس. هذا ما تقوله تانس للأمير عندما جاء يخطبها وهي فوق النخلة.

ـ طبعاً، هذا مقطع من تانس.

ـ إذن. لك ما أردت!

قالها آيس مقلداً صوت جده وهو يسرد الحكاية، فضحكت باتا وقالت بلهجة غريبة:

ـ أنت طفل ذكي حقاً. في عينيك تحدّ وسحر، وبريق لا تخطئه العين البصيرة. سوف أفكر جدياً في انتظارك حتى تكبر! أعدك بذلك.

ثم ذهبت وجاءت له بالملح في كيس صغير من القماش.

(١٤)

باتا. امرأة آسرة، ساحرة، خارقة الجمال، أجمل امرأة في الصحراء الكبرى كلها. ماتت أمها وهي تعاني آلام الوضع أثناء ميلادها. أما أبوها فقد قتلته باتا وهي طفلة لم تتجاوز الثالثة بطلقة من البندقية. ويقال ان ذلك حدث بمحض الصدفة، ولكن الزنجية التي ورثتها باتا عن أبيها تؤكد أنها رأتها بأم عينيها وهي تتناول البندقية خلسة وتسدد فوهتها إلى رأس أبيها الذي كان نائماً في قيلولة أحد أيام الصيف القائظة، وتطلق عليه النار، وعندما هرعت الزنجية إلى الرجل كانت باتا تغرق في ضحكة هستيرية وتعبث بيديها الصغيرتين بالدم المنبثق من رأس الأب المسكين الذي فارق الحياة على الفور.

وعندما سأل الخبثاء من الأهالي الزنجية: «ولكن لماذا لم تهرعي لإنقاذه، أيتها الشقية، إذا كنت تقولين انك لاحظت نيتها المبيتة؟» أجابت الزنجية المسكينة:

«لقد شلني الذهول. ثم أنه لم يخطر ببالي أن تقدم طفلة في الثالثة على عمل كهذا». ومضى الخبثاء في استنطاق المسكينة سائلين: «هل كانت تغسل يديها في دمه وهي تقهقه أم أن الدماء المنبثقة لطختها بمحض الصدفة؟» فأجابت الزنجية بإصرار: «لقد كانت تغسل يديها في الدماء وهي تدري ماذا تفعل في حين تنطلق ضحكتها الشيطانية الغريبة حتى تستلقي على قفاها».

ويقال ان الزنجية ضبطت فوقها أحد أبناء الجيران وهي في التاسعة من عمرها عندما كانت ترعى الجديان في السهول المجاورة. وأكد هذه الواقعة أكثر من لسان لأن «ابنة الشيطان» كان يروق لها أن تستدرج الشبان إلى المراعي وتدعهم يعانقونها ويعتلون جسدها في التحام محموم. حدث ذلك أكثر من مرة.

تربّت باتا على يدي المرأة الزنجية حتى شبت ونضجت وطبّق جمالها آفاق الصحراء. وقد عشقها كل الشبان دون أن يتقدم لخطبتها أحد. ربما لأنهم يخشون جمالها الفاتن، وربما لأن سيرتها السابقة أرعبتهم، وجعلتهم يترددون في الاقتران بـ«ابنة الشيطان» التي كتمت أنفاس أمها وهي تهبها الحياة وتقدمها للوجود، وأقدمت على اغتيال أبيها بيديها عن عمد وسبق ترصد وهي في الثالثة من عمرها».

ويقال في القبيلة أن من ضمن الذين عشقوها كان الشيخ غوما بنفسه أيام كان مغرماً بمعاشرة النساء من القبيلة ومن القبائل المجاورة قبل أن يرحمه الله ويفتح له أبواب السماء ويلجأ إلى الواحة باحثاً عن الحكمة، ساعياً لتلقي العلم على أيدي العلماء. ولا أحد يستطيع أن يؤكد هذه الشائعة ولا يستطيع أحد أن ينفيها أيضاً. وقد تزوجت باتا بعد هجرة غوما إلى الواحات بشهور فقط. تزوجها شاب نبيل من قبائل آير التي تستوطن بمحاذاة نهر النيجر وتعيش متنقلة بين أغاديس في الشرق حتى تمبكتو في أقصى الغرب، بعد أن تعرف بها في حفلة سمر. ولكن المفاجأة كانت ليلة الزفاف، أثناء الدخلة، عندما حطمت باتا، لأول مرة في تاريخ الصحراء، العادات المقدسة. إذ لم يتصور أحد أن تقدم العروس لحظة تسليمها للعريس من قبل النساء، إلى الارتماء في أحضان العريس دون خجل، في حين تقتضي التقاليد العريقة أن تبكي وتهرب وتختفي في الخلاء بين ثنايا الليل. وهذا الفعل المشين جعل الشاب النبيل المسكين يتردد كثيراً في أخذها معه إلى بلاده خوفاً من قبيلته، ورعباً مما يمكن أن تفعله امرأة مثلها ترتمي في

أحضان الرجل ليلة الزفاف بدل أن تطلق ساقيها للريح!

بكت مربيتها الزنجية ثلاثة أيام بعد هذه الفضيحة وهي تردد متنقلة بين البيوت:

«لعنة الله عليها وعلى أبيها الذي أورثني لفتاة مثلها».

أنجبت باتا ابنتها زارا في آير، وهي فتاة جميلة هادئة، حالمة، في عينيها حزن غريب ولا تشبه أمها في شيء. ولما مات زوجها في معركة مع قبائل بامبارا عادت باتا إلى القبيلة مع زارا. ولا أحد يعلم ما اقترفته هذه الشيطانة الشقية هناك أثناء إقامتها عند قبيلة زوجها. ولم يشأ الرجل الذي جاء بها أن يكشف شيئاً عن حياتها هناك. ظل صامتاً طوال الوقت، يجيب باقتضاب على أسئلة الأهالي الملحاحة، ويراوغ في الإجابة ويتصبب جبينه بالعرق حرجاً، وفي اليوم الثاني اختفى. وربما هرب من أسئلة الأهالي.

وقيل بعدها أن قبيلة زوجها في آير لم تنتظر حتى يجف قبر زوجها حتى بادرت بالتخلص منها بإعادتها إلى قبيلتها التي جاءت منها.

بلغت الآن السادسة والثلاثين، ولكن جمالها ازداد طغياناً وسحراً ونضارة.

(١٥)

زحف الشيخ غوما بقافلته نحو الجنوب مهتدياً، طوال الوقت، بنجوم الليل. لقد تعمد أن يقطع أطول مسافة ممكنة ليلاً في ضوء القمر احتماء من شمس النهار ورحمة بالمهاري. في اليوم العاشر أشرف على نهاية الصحراء الرملية الرخوة العارية وبدأت الصحراء الصلبة المغطاة بالأحجار والحصى تمتد، وامتدت بموازاتها شرقاً سلسلة الجبال ذات القمم المتساوية كأنها قطعت بسكين خرافي هائل. هذه الجبال الشاهقة نفسها سوف تصاحبهم الآن لتتواصل في جبال أكاكوس، حتى غات نفسها.

بعد يومين أدركوا الشيخ آهر مع أتباعه ومساعديه في قافلة الأمتعة والمؤن. ولكنهم انطلقوا في اليوم التالي مخلفين آهر خلفهم مع قافلته. تذرع الشيخ

غوما بالسفر فوراً نظراً لارتباطه بموعد مع فرقة أوراغن في العوينات.

في العوينات انضمت لهم فرقة أوراغن ولكن الشيخ غومرا لم يكن على رأسها.

استاء الشيخ غوما لذلك كثيراً ولكن عزاءه كان في اجتماع مبعوثي القبائل الذي انعقد على مسافة تبعد يومين من غات قبل بدء المعارك بخمسة أيام.

قال رسول شيخ الهوجار: وصلتني أنباء تفيد أنهم يحشدون قوات هائلة لغزو الصحراء من الجنوب عبر غات. برغم أنني أشك في قدرتي على قطع طريق الإمدادات تماماً إلاّ أنني سوف أفعل كل ما بوسعي. ولتكن جبال الهوجار حليفنا وساعدنا الأيمن في ذلك.

قال رسول شيخ الفوغاس: سأكون على رأس القوات كما وعدتك. سنصل في الموعد المحدد إن شاء الله. سنبدأ الحصار فوراً على طول المساحات والمرتفعات التي تشرف على الواحة غرباً. سيكون « كيل أبادا » همزة وصل بيني وبينك. على بركة الله.

قال رسول كيل أبادا: سنبلغ المكان المحدد بيومين قبل الموعد المحدد لبدء المعارك، وفقكم الله.

في ذلك اليوم جاء رسول آخر مع هجوم المساء. قال ان الفرنسيس تمكنوا من اجتياح الواحة بعد قصف مكثف استمر ثلاثة أيام. بدأ الأهالي يلجأون إلى جبال أكاكوس، وبعضهم في الطريق إلى هنا هرباً من البطش والتنكيل والقنابل المتساقطة على رؤوسهم ليلاً ونهاراً.

عسكر الشيخ غوما في سهل خلف المرتفعات المطلة على غات مباشرة وأطلق المهاري ترتع بين أشجار الطلح والأعشاب البرية الشاحبة التي تقاوم العطش طويلاً وتنتشر في الأودية المنحدرة من سلسلة الجبال الشرقية. انتشر المقاتلون على السفح وأرسل الشيخ غوما بمجموعة للتسلل إلى الواحة قصد الاستطلاع ورصد حركة الغزاة بعد الاجتياح. وأوقد النار وجلس يحضر الشاي الأخضر بنفسه. في عتمة المساء، بعد الغروب، رأى مجموعات الأهالي تحمل أمتعتها فوق ظهور الجمال والحمير والجياد متجهة نحو الشمال عبر طريق العوينات فعرف أنهم

أفواج النازحين.

تقرفص الشيخ جبور في مواجهته فقال الشيخ غوما وهو يتابع تحرك أفواج النازحين:

ـ لا أستطيع أن أصدق أن يكون أماستان سبباً في كل هذا.

لم يعلق جبور فأضاف باستسلام:

ـ ولكنها إرادة الله. ما حصل قد حصل ولا حول لنا لدفع المكتوب.

سحب إناء الشاي من الجمر وقال بعد صمت طويل:

ـ ينبغي أن تأمر القناصة بالصعود منذ الآن. عليهم أن يأخذوا أماكنهم فوق قمم الجبال. في الغد يجب أن يكون كل شيء في مكانه.

بدأ يخلط الشاي بين وعائين ثم أضاف:

ـ احرص على الجبلين اللذين يشرفان على طريق العوينات. لا أريد أن تمر ذبابة من هناك منذ اليوم. ينبغي تزويدهم بماء ومؤنة يومين على الأقل. لا نعرف كيف ستسير المعارك، ولكن قافلة الشيخ آهر ستدركنا خلال ثلاثة أيام على الأكثر. لا نعرف كم سيستمر الحصار. نحن سنحاصرهم ولكن الصحراء تحاصرنا أيضاً. الحذر والاحتياط واجب. والصحراء لا تغفر أدنى خطأ. أنت تعرف ذلك ربما ليس أكثر مني ولكن ليس أقل أيضاً.

قدم له كوب الشاي المتوج بالرغوة وعاد يقول وهو يرشف الرغوة من كأسه:

ـ بل إن موقفهم أفضل من موقفنا. نحن المحاصرون في الواقع. إنهم يستولون على مصادر الماء في الواحة، أما نحن فتحاصرنا صحراء أقرب بئر فيها يبعد خمسة عشر يوماً إن لم يكن أكثر. هذه مفارقات الحياة. أليس كذلك؟

ظل الشيخ جبور صامتاً يخطط بسبابته على الأرض ويرسم أشكالاً متداخلة. فنهض الشيخ غوما وأهال التراب على الجمر الخابي بقدميه. ثم اتجه صوب السفح لتفقد المقاتلين الذين انتشروا في مجموعات صغيرة وتجمعات كبيرة طوال السفح يوقدون النيران لإعداد الشاي أو يعجنون الدقيق لتحضير خبز الملآل، ومنهم من

شرع يجرب قوته في المصارعة، وآخرون يتمشون فرادى وأزواجاً يتبادلون أحاديث هامسة، والبعض يمّم نحو القبلة مكبراً لصلاة المغرب.

وقف الشيخ غوما فوق المرتفع وراقب في عتمة الغروب أفواج المهاجرين النازحة من الواحة. ما زالت الأفواج تتحرك في مجموعات كبيرة متجهة نحو الشمال عبر طريق العوينات مع المواشي والقطعان التي تثير بحوافرها غباراً كثيفاً يحجب الأفق الأرجواني القاتم.

(١٦)

في الصباح خرج آيس من البيت مع الشروق. غزت أنفه رائحة الدخان المتصاعد فوق قمم البيوت وأكواخ الجريد في ذيول كثيفة تتصاعد وترتفع نحو السماء الساكنة الصافية. النهار يبشر بالحر.

هكذا فكر آيس وهو يحوم حول البئر ويلامس بيديه الصغيرتين أحجار جدرانه الكبيرة الملساء. ألقى بالدلو فسمعه يثير ضجيجاً في الماء. شرب من الدلو مباشرة ثم غسل أطرافه ودلق الباقي فوق رأسه واتجه إلى الجبل.

بدأ يصعد وهو يفكر في ذلك اليوم الذي صعد فيه الجبل لأول مرة مع جده. يا له من نسيم منعش ذلك الذي لفحه فوق القمة في ذلك اليوم!

«إنه نسيم الشمال القادم من البحار البعيدة حيث تقوم المدن المجهولة، وتنتشر المروج الخصبة دائماً. ويتسكع بشر مسحورون غامضون». قال له جده. ولكنه لم يحدثه عن النساء. خجل أن يسأله عن النساء في هذه المدن البعيدة الراقدة على سواحل البحار، النائمة فوق ضفاف الأنهار. لا شك أنهن رقيقات كالفراشات، خفيفات كالطيور التي تكتسح الصحراء في الربيع بعد المواسم الممطرة، ناعمات كالغزلان، غامضات كالبحار، كمدنهن الغامضة نفسها، غامضات مثل... مثل باتا التي ينافس جمالها البدر! لا يدري منذ متى بدأ هاجس النساء يسيطر عليه. الذي يعلمه جيداً أنهن بدأن يسيطرن على عقله منذ وعى الحياة، منذ ولد على الأغلب. يذهب إلى الفراش لينام فلا ينعس إلا وهو يفكر في امرأة جميلة أسطورية فارعة، جميلة تهدهد صدره وتمسح على رأسه، وتحتضنه وتقبله

في أنفه أو خدّه. وأثناء السبات يحلم بنساء لا حصر لهن، يرقصن معه في حفلات السمر، يشدّن يده، يقدنه إلى زاوية مظلمة خلف الخيمة أو الكوخ وهناك يحطن جسمه بأيديهن الناعمة الرقيقة ويغمرنه بالقبلات.

ويحدث دائماً عندما يصحو من النوم ويفتح عينيه فإن أول ما يرى في تلك اللحظة الخاطفةشبح امرأة رشيقة كحفيف النسيم في أوراق الرتم! ولكنها سرعان ما تختفي ويجد نفسه أمام خالته تدلق فوق رأسه إناء الماء البارد! فينتفض كالعصفور وينهض واقفاً على قدميه ويكتشف أنه سقط من سماء الحلم على أرض الناس الموحشة!

أشد ما يقلقه ويؤرقه هو الشعور الذي يحسه المرء وهو ينام بجوار امرأة، أي امرأة. وكان يذهب بخياله بعيداً، يصور نفسه - وهو راقد في الفراش - انه ينام الآن بجوار امرأة ساحرة تبعث فيه الدفء،وتسري رعشة خفيفة في بدنه عندما تطوقه بيديها الحريريتين، الناعمتين، الرحيمتين.. ويتصور - أيضاً - أن أنفاسها الرقيقة تلفح خده بنسيم كالعبير. ويظل هكذا راقداً يعاني الأرق، ويعيد تصوراته مرات ومرات حتى وقت متأخر من الليل.

حدث أن سأل أحد أبناء الجيران وهما يلعبان بجوار البئر: «ماذا تشعر عندما تنام بجوار أمك؟» غضب الولد واحتقن وجهه بالدم وصمت طويلاً قبل أن يقوم وهو يستدير ويوليه ظهره: «غبي! أنت غبي!»، ولكنه توقف بعد أن قطع مسافة في الطريق إلى بيته وصاح: «كما تشعر أنت عندما تنام بجوار خالتك الزنجية!». ذهب إلى بيته بخطوات سريعة ولكنه هتف وراءه: «أنا لا أنام بجوار خالتي الزنجية». ولقد قال الصدق.

خالته تنام بعيداً في نهاية الكوخ وينام هو في فراش لوحده في النهاية الأخرى. يذكر طوال حياته أنه لم ينم بجوار امرأة.

ويذكر أيضاً أنه لم يعرف أمّاً ولا جدّة ولا عمّة ولا خالة حقيقية.

حتى «خالته» الزنجية يعرف أنها ليست خالته، هي مجرد خادمة لجده تقوم على خدمتهما معاً. ولذلك يحسد الصغار من أبناء الجيران الذين تضج بيوتهم بأصوات النساء وضحكاتهن: أمهات، أخوات، خالات، عمات، جدات، بنات خالات، بنات عملات، بنات أعمام... قريبات...

والآن سوف يمتلك كل هذه النساء مجتمعات. سوف يمتلك أجمل امرأة في الدنيا: باتا! ستلفه بذراعيها وتحتضنه بشعرها الفاحم وتغمره بالقبل على خده وأنفه... استمر يصعد حتى بلغ منتصف الجبل وهو يلهث، أنفاسه تتلاحق، والعرق يتدفق على جبينه ووجهه وإبطيه. انتصف النهار وبدأ قرص الشمس الملتهب يصهر الكائنات. نظر إلى أعلى فرأى الصخور الخرساء الضخمة الملساء التي تؤدي إلى القمة ما زالت بعيدة. عرف أنه لن يستطيع أن يبلغ القمة فجلس على صخرة وشرع يتمتع بمشاهدة البيوت والأكواخ المتناثرة في السهل المنبسط العاري تحت الجبل، فكر لحظات ثم نزل السفح بعد أن شعر بالعطش. اتجه نحو البئر وشرب من الدلو ودلق الماء فوق رأسه وملابسه. لم يوفق في اعتلاء القمة ولكن يجب أن يتدرب على الصعود بمفرده، ودون مساعدة أحد.

لجأ إلى بيت باتا!

رأى زارا تنطلق إلى المرعى تهش الجديان فعرف أن باتا في البيت الآن بمفردها. خفق قلبه وانتفض عندما وجدها تستظل بسياج الجريد الذي يحيط بالبيت، تمشط شعرها الفاحم الكثيف المسترسل على كتفيها، المنهمر على نهديها النافرين، هتفت مرحبة:

ـ آه، هذا أنت. أميري الصغيري!

ثنت ركبتها الممدودة، وهي تفسح له مكاناً على الكليم المزركش فانكشفت ركبتها البضة البيضاء، تساءلت بخبث:

ـ أرى ملابسك مبتلة.. هل تبولت على نفسك؟

احتقن وجهه خجلاً وقال مستنكراً:

ـ أنا لا أتبول على نفسي. لقد صعدت الجبل فعطشت وكواني الحرّ فدلقت دلو الماء فوق رأسي.

ـ إنني أمزح. هل تريد كوباً من اللبن؟

ـ لا. لقد شربت الماء من البئر.

صمتت لحظة ثم قالت بغنج:

- أما زلت مصراً على الزواج مني؟

- طبعاً. أنا لا أمزح!

جلس بجوارها على الكليم الملون في حين قالت:

- أنا أيضاً!

مررت يدها على شعر رأسه وأضافت:

- ولكن أين السرج المطرز بخيوط الفضة والذهب، والمهري الأبيض الضامر؟

- سيكون لديّ سرج مطرز بالذهب والفضة، وسأقتني المهري الضامر أيضاً. سوف ترين!

ضحكت وهي تلقى برأسها إلى الوراء حتى يلامس شعرها الكثيف الأرض.

حدقت في وجهه لحظات قبل أن تتساءل:

- كنت أريد أن أصل إلى القمة. الهواء هناك لذيذ عندما يسكن النهار ويجثم الحر في البيوت. صعدته مع أبي قبل سفره بأيام. هناك يهب نسيم الشمال القادم من البحار البعيدة.

ضحكت مرة أخرى وألقت برأسها إلى الوراء. نفس الضحكة. نفس حركة الشعر المثيرة. همهمت وهي تداعب أسنان المشط بأصابعها الطويلة:

- تفكر في أشياء غريبة مثل جدّك. لم أخطىء عندما قلت ان البريق الغامض في عينيك يعد بشيء لا أعرفه!

ثم ربتت على كتفه ودخلت الخباء وعادت بطبق خشبي مليء بقطع اللحم المجفف.

(١٧)

انسحب المقاتلون إلى الجبال مرة أخرى بعد الهجوم الفاشل الذي شنوه على

القوات الفرنسية في الواحة في تلك الليلة التي حددها الشيخ غوما لبدء المعركة.

لقد حدثت مفاجأة لم يتوقعها الشيخ غوما في خطته.

هجموا على الواحة بعد صلاة العشاء. الشيخ غوما من الشمال تدعم جناحه الأيسر ناحية الغرب فرقة أوراغن، وشيخ كيل أبادا يدعمه في الوسط عند الروابي التي تؤدي إلى شريط المرتفعات غرباً حيث يهجم الفوغاس بقوات كثيفة. أما الجنوب فبقي عارياً معتمداً على الهوجار في قطع طريق الإمدادات القادمة من الجزائر.

فوجىء الفرنسيس وارتبكوا في البداية، وفقدوا عدداً كبيراً من القتلى عدا الجرحى، ولكنهم سيطروا على الموقف فيما بعد. أشعلوا الأنوار الكشافة فغرقت غات في أضواء كشمس النهار، وشرعوا يحصدونهم بالبنادق الرشاشة. لم يتمكنوا من استعمال المدافع نظراً لضيق المسافة، وبسبب موجة الارتباك الأولى التي أحدثها الهجوم المفاجىء. وفي بعض المناطق جرى قتال بالسلاح الأبيض وتشابك بالأيدي.

ولكن الشيخ غوما سحب قواته في النهاية هرباً من الأضواء الكشافة التي لم يحسب حسابها.

في اليوم التالي حاولت القوات الفرنسية فك الحصار بالزحف شمالاً عبر طريق العوينات ولكن نيران القناصة المرابطة في قمم الجبال، خلف الصخور، ردتها على أعقابها.

في اليوم الخامس عاود الشيخ غوما الهجوم الليلي بعد أن أبلغ كل الفرق بواسطة الرسل واستطاع بعد معارك ضارية أن يحتل نصف الواحة. أصبحت القلعة العثمانية القديمة التي اتخذها الفرنسيس مقراً لقيادتهم، على مرمى البصر، ولكنه عاد وأمر بالانسحاب إلى الجبال تحت نيران المدافع الكثيفة.

بلغ عدد القتلى من كل أطراف القبائل ست وثلاثون، والجرحى فوق الثمانين.

ولكن التراشق بين الجانبين استمر ليلاً نهاراً.

دخلت المعارك أسبوعها الثاني.

جلس الشيخ غوما فوق صخرة وقال وهو يخاطب الشيخ آهر ويغمز للشيخ جبور بعينه:

ـ الآن نريد أن نشرب الشاي الأخضر من يديك يا شيخ آهر! يقال انك أمهر من يحضر الشاي في كل الصحراء.

تنحنح الشيخ آهر وقال وهو يعتدل في جلسته:

ـ والله لا يعد الشاي الأخضر إنسان في الصحراء أفضل منك يا شيخ غوما. ولكن سأعده إكراماً لك.

ابتسم الشيخ غوما وهو ينهض ويأخذ مكاناً بجواره. قال وهو يعد موقد النار:

ـ سوف أساهم معك في إعداد نار تليق بشاي يصنع من يديك. نار حطبها من الطلح الخالص.

ثم رفع رأسه نحو الشيخ جبور المنهمك في عجن الدقيق وتحضير الخبز المطبوخ في أحشاء الرمل وغمزه بعينه مرة أخرى وقال يخاطب الشيخ آهر وقد بدت الدعابة في لهجته:

ـ لدي طلب آخر. طلباتي كثيرة اليوم كما ترى. أريدك أن تقص علينا قصتك مع ذلك الرجل الذي كنت ترعى عنده الأغنام والإبل في «أغاديس» سنوات الشباب والجفاف. لقد سمعتها ولم أصدقها، وأريد أن أسمعها منك.

أفلتت ضحكة مباغتة من الشيخ جبور، ولكنه سرعان ما عاد ينهمك في عجن الدقيق بعد أن سحب طرف اللثام وغطى فمه بحركة خاطفة.

قال بعد قليل:

ـ ولكن هل ترى الوقت مناسباً يا شيخنا! إن في ديارنا قتلى!

وافقه الشيخ آهر بحركة من رأسه في حين انتصب غوما وراقب الشفق الأحمر الذي صاحب تظاهرة الغروب. قال وهو يميط الثام على فمه ويشرب جرعة ماء:

ـ فليغفروا لنا رحمهم الله. هم بلغوا دار الحق ونحن ما زلنا في دار الباطل. ألا

يحق لنا أن نعزي أنفسنا قليلاً في دار الباطل؟ لقد سبقونا اليوم، وربما لحقنا بهم في معارك الغد. فلنستقبل قدرنا ضاحكين. إن الله سيغفر لنا قدراً أكبر من ذنوبنا إذا جئناه والابتسامة تعلو وجوهنا. فأسمعنا حكايتك يا شيخ آهر. دعنا نستقبل ربنا ضاحكين بالله.

لقد فقدت قبيلته وحدها أحد عشر مقاتلاً أغلبهم من الأتباع والمساعدين..

بدأت العتمة تخيم على الجبال وخرس تبادل إطلاق النار وقدّم لهما الشيخ آهر الدور الأول من الشاي الأخضر وقال:

ـ الحكاية بسيطة ولا علاقة لها بما نسجته الألسن حولها من أساطير وإضافات. فقد لجأت إلى «أغاديس» في تلك السنوات العصيبة بعد أن خيم الجفاف على الصحراء سنوات وسنوات فانفضت المجاميع، وتفرقت السبل بالقبائل والعشائر، وهرع الناس إلى جهات الدنيا الأربع هرباً من القحط والعطش والجوع، ساقني الحظ إلى رجل ثري يملك قطعاناً هائلة من الإبل والماعز لن يسعفك الوقت لحصرها في يوم واحد. كانوا يسمونه «مغرى» وهو رجل دنيء وثقيل الدم وفوق ذلك كله بخيل. اتفقنا على أن أرعى له القطيع الهائل مقابل ثلاثة جمال وعشرة رؤوس من المعيز في العام. كنت شاباً يافعاً وقتها وباستطاعتي أن أسيطر على القطعان الهائلة. ولكنه أعطاني ناقة واحدة وثلاثة رؤوس من الأغنام في نهاية العام مدعياً أن الجمال والماشية التي ماتت خلال العام كله أنا السبب في موتها برغم أن الشرط الذي اتفقنا عليه منذ البداية يحدد مسؤوليتي في المواشي التي تأكلها الذئاب فقط.

ندت ضحكة من الشيخ جبور في حين تساءل الشيخ غوما مدارياً ابتسامة ساخرة:

ـ ولكن لماذا لا تشكوه إلى الشيخ؟

تمتم آهر بخيبة:

ـ في أغاديس ليس هناك شيخ. الشيوخ عندهم هم الأغنياء. المهم أنني أوكلت أمري لله وقبلت الناقة ورؤوس الماعز، وكنت أعلم أنه ينوي أن يرحل إلى غدامس في ذلك العام لمقايضة بعض رؤوس الإبل والماعز ببعض البضائع والمؤن

التي يفتقدونها في أغاديس. وقد رافقته في هذه الرحلة وأنا في طريق العودة إلى الديار حتى أشرفنا على «جانت». عندها قررت تنفيذ الخطة التي خطرت ببالي في أغاديس للانتقام من هذا اللص الشقي! تسللت في الليل وسبقته إلى مركز جانت حيث يعسكر الفرنسيس. طلبت الرئيس فجاءني رجل وقور أشيب برتبة كابتن. قلت له باختصار: «إنني في طريقي إلى غدامس وقد خلفت خلفي هناك على الروابي التي تراها عبدي وبعض رؤوس الجمال والماشية. الحق أني تعبت من الرحلة وأريد أن أتخلص من العبد ومن القطعان. فكم تدفع لي ثمناً للعبد وللقطيع معا؟».

ضحك غوما وجبور في وقت واحد في حين سمع تراشق بالنيران ناحية الجبهة الغربية حيث يعسكر الفوغاس.

بدأ الشيخ آهر يخلط الدور الثاني من الشاي وأضاف يكمل قصته دون أن يرفع رأسه:

ـ فكر الفرنسي قليلاً ثم سألني: «كم عدد الماشية؟»، قلت له: «خمسون ماعزاً وثلاثة عشر جملاً». فكر مرة أخرى وقال وهو يهرش رأسه الأشيب: «لا أستطيع أن أدفع لك أكثر من خمسين ألف فرنك». فقلت: «تبارك الله»،في ذلك الوقت بدأ «مغرى» ينزل المرتفع في طريقه لعبور «جانت». أنقدني الفرنسي بالمبلغ وأطلقت لجملي العنان. لم ألتفت خلفي حتى دخلت غات.

انفجر الشيخ غوما بالضحك حتى انحنى برأسه إلى الوراء. أما الشيخ جبور فتساءل:

ـ وماذا فعلوا به بعدك؟

أجاب آهر بهدوء دون أن يرفع رأسه فوق أدوات الشاي الأخضر:

ـ وما أدراني؟ يقال انهم مزقوا جسده بالسوط وأودعوه السجن عندما حاول أن يتمرد ويتنصل من كونه عبداً.

رشف من الشاي مختبراً كمية السكر ثم أضاف:

ـ معهم الحق. لقد دفعوا لي ثمنه!

قال الشيخ غوما وهو يتوقف عن الضحك ويمسح عينيه الدامعتين:

- استغفر الله. فليغفر لنا موتانا ذنوبنا الصغيرة.

ثم أنصت لتبادل إطلاق النار الذي بدأ يتصاعد على طول الجبهة الغربية وبدأ يشمل جبهة الوسط حيث يعسكر مقاتلو كيل أبادا.

(١٨)

بعد العشاء سحب آيس فراشه واستلقى في الفضاء أمام البيت هرباً من الحر. راقب السماء الصافية المرصعة بالنجوم قبل أن يسحب الغطاء فوق رأسه. لم تمض لحظات حتى رآها، ترتدي ثوباً مزركشاً من الحرير، فتحت له ذراعيها الرقيقتين وضمته إلى صدرها الدافىء، وضع رأسه بين نهديها النافرين وقبلها في جيدها المرمري وهو يتنفس عطر جسدها الفواح كزهور الرتم، رائحة جسدها جعلته يحس بالدوار والنشوة. اندس معها بين ثنايا شرشف ناعم وغرقا معاً في حلم طويل.

تمنى أن يستمر هذا الحلم إلى الأبد، ولكن «خالته» العجوز دلقت عليه الماء في الصباح فقفز من الفراش كالملدوغ وهو يفرك عينيه بيديه.

قالت كعادتها:

- الشمس بلغت كبد السماء وأنت تغط في النوم العميق. لا يرقد حتى مطلع الشمس إلاّ النساء أو الجبناء!

ثم عادت تخض الحليب في المدخل وتهمهم كأنها تكلم نفسها:

- الحليب والشاي بجوار الموقد.

غسل أطرافه وجلس بجوار الموقد وهو يفكر في الحلم الذي تمنى ألاّ ينتهي، الحلم الذي لم يكن حلماً في البداية. لقد رآها بالفعل عندما أغمض عينيه لأول مرة. ولا يدري متى نعس فتواصلت الحقيقة في الحلم كما يحدث في خرافات السحر. حدثت تفاصيل أخرى كثيرة نسيها واختفت من ذاكرته بمجرد أن أيقظته

العجوز التي تصر دائماً أن الشمس بلغت كبد السماء في حين يلف ظلام الفجر كل شيء، وتصر بحكم العادة أن توقظه بدلق الماء فوق رأسه. كم مرة فكر أن يصرخ في وجهها: «أين الشمس التي بلغت كبد السماء؟ أين؟ أين؟»، ولكنه لم يجرؤ.

وكم من مرة أيضاً فكر أن يصحو قبلها ويوقظها بأن يدلق على رأسها قربة كاملة من الماء البارد. «دعها تجرب لسعات الماء البارد في الصباح!» يقول لنفسه. ولكنه لم يحدث أن استيقظ قبلها أبداً! حتى في الليل عندما يحدث أن يستيقظ ليقضي حاجته يجدها جالسة كالجنية تبسمل وتسبح وتردد آيات القرآن. بعد الإفطار قالت له:

- ستحمل بعض قطع خبز التنور إلى باتا.

فرح لاقتراحها كثيراً. سيجد مبرراً مقنعاً لزيارتها.

دخلت إلى الخباء وعادت بطبق مضفور بالسعف وخيوط الصوف الملونة مملوء حتى حافته بقطع الخبز التي أعدتها البارحة احتفاء بعيد ديني لا يعرف ما هو. ما أكثر هذه الأعياد التي لا يذكر منها سوى عيد الأضحى وعيد الفطر.

ارتفعت الشمس وربتت أشعتها على قمم الأكواخ والخيم المنسوجة من وبر الماعز والجمال خصيصاً لامتصاص الحرارة واللهب أيضاً أيام الصيف.

في مربط المعيز قابل زارا تهش أغنامها إلى المرعى. تناولت قطعة خبز من الطبق وقالت وهي تدسها في الجراب وتزم شفتيها:

- هل ترافقني إلى المرعى؟ متى ترافقني إلى المرعى؟ النهار هناك بين أشجار الطلح جميل جداً.

- ليس اليوم. ربما غداً أو بعد غد.

قرصته في خده وهي تبتسم بغنج ثم أولته ظهرها ومضت خلف الأغنام. زارا الفاتنة أصبحت امرأة في عمر الزواج. شمس الصحراء تجعل الصبايا ينضجن بسرعة في حين تسحق عقول الصبية وتجعلهم أطفالاً إلى الأبد حتى الرجال منهم. وزارا التي تكبره بعدة سنوات وكانت بالأمس طفلة أصبحت عروساً تتعطش

أحضانها لاستقبال العريس. زارا يعشقها أخنوخن..

زارا يعشقها أمغار شقيق أخنوخن أيضاً.

شاهدهما وهما يتسللان ليلاً إلى خيمتها يبادلانها الغزل والأشعار. لم يشاهدهما معاً طبعاً. ولكنه رأى أخنوخن أول من رأى. وبعد أسابيع رأى أمغار أيضاً.. ولكن أيهما تعشق زارا وتريد أن تتخذه عريساً ياترى؟ هذا ما لا يعلمه أحد سواها هي.

هذه الفتاة الفاتنة التي تريد باتا أن تزوجها له. إنها فاتنة حقاً ولكن في عينيها حزن مخيف. في نظرتها شقاء كأنها تستغيث. وهو لا يحب الحزن في عيون النساء. إنه يحب التحدي والجرأة في عيني باتا!

وجدها تستظل من شمس الأصيل بسياج الجريد، ترتدي فستاناً فضفاضاً، واسع الأكمام، وتضع على رأسها شرشافاً وردياً شفافاً كالذي ترتديه البارحة عندما جاءته بعد أن أغمض جفنيه.

إنه نفس الشرشاف.

قالت باسمة:

ـ آ... عريسي. بماذا جئتني؟

ـ خالتي تقول ان هذا نصيبك من خبز العيد الذي أعدته البارحة.

ـ خبز التنور. هذا ألذ خبز وهي أحسن من يتقن صنعه! تشرب حليباً أم لبنا؟

هزّ رأسه علامة الرفض وهو يجلس على الكليم بجوارها:

ـ لقد شربت.

ـ ربما خبز بالسمن؟

ـ لقد تناولت الإفطار.

هو لا يريد شيئاً بجوارها. يفقد الشهية بمجرد أن يراها. حتى إذا أكل فإنه يفعل ذلك على مضض. حتى عندما جاءته باللحم المجفف منذ يومين لم يتمكن من

بلع القطعة، التي مضغها طويلاً، إلاّ بصعوبة شديدة. أما القطعة الثانية فتحين الفرصة عندما التفتت فبصقها خلفه وأهال عليها التراب خلسة. لقد وقفت في حلقه.

هو يريد أن يتمتع بجمالها، ويتسلى بحديثها الحلو الشيق، ويستمع إلى صوتها الذي يشبه صوت أوتار «امزاد» التي تثير الشجن وتشعل قلبه بالأحلام فيجد نفسه في عالم لم يره، ويعاشر نساء لم يسمع بهن، ويرفرف كأنه يطير في السماء مهاجراً إلى حياة سحرية يتوق إليها برغم أنه لم يعشها.

انحنت برأسها حتى لامست خصلات شعرها خده، وقالت في صوت حالم كالهمس:

- متى ترتدي لثاماً كبقية الرجال؟ إن اللثام هو رمز الرجولة!

- قريباً. أبي يقول إنه سيتوج رأسي بلثام ناصع في حفل كبير قريباً.

ضحكت ضحكة قصيرة ممتعة ذكرته بلفحات نسيم الشمال الرقيق المحمل بالرطوبة. ثم أحاطته بذراعيها وضمته إلى صدرها. ووجد نفسه يرقد بين نهديها البارزين بعد أن سحبت عليه الشرشاف الشفاف فأحس بالدفء يغمره ويتسلل إلى.. بدأ يرتعد بشدة وهو يفكر: «مثل البارحة. لقد حدث هذا البارحة أيضاً. هذا ما حدث البارحة بالضبط». استسلم للخدر اللذيذ الذي بعثه عبير جسدها الطري العطر في أنفه حتى شعر بالدوار، وانتزعته الغيبوبة من الوجود.

(١٩)

قال الشيخ جبور وهو يقف مسنداً كلتا يديه على بندقيته التي انغرس كعبها في التراب:

- بدأوا يفقدون أعصابهم. البارحة حاولوا فتح ثغرة في المرتفعات الغربية بين كيل أبادا والفوغاس، ولكنهم فشلوا.

قال الشيخ غوما وهو ينهمك في تطويق خصره بالحزام المرصع بالرصاص:

ـ هذا طبيعي. لم يعد الوقت في صالحهم. برغم أنه ليس في صالحنا أيضاً، ولكن الواحة أصبحت فخاً بالنسبة لهم الآن، وهو ما اعتمدت عليه منذ البداية، لولا تلك الأضواء اللعينة التي لم أحسب حسابها.

بدأت خيوط الشمس الأولى تداعب رؤوس الجبال.

أهال الشيخ غوما التراب على موقد الجمر الخابي برجليه. علق بندقيته على كتفه الأيمن وأضاف:

ـ لولا تلك الأضواء لجرت الأمور مجرى آخر. خسائر تلك الليلة ما زالت تحرق قلبي. حجمها يفوق ما توقعت.

ـ لن نندم على ما مضى. الحرب هي الحرب، والحسابات فيها نادراً ما تصيب وكثيراً ما تخطىء.

ـ معك حق. الحرب كالحياة إذا لم تقرأ حساب الهزيمة فلن تذوق طعماً للنصر.

ـ الشيخ أخوّاد وفق في احتلال موقعين وقواته تحاصر فرقة أخرى قرب المرتفع الذي يؤدي إلى الجنوب ويقود إلى طريق الإمدادات.

ـ قلت لكم إن أخواد رجل شجاع. أعرفه جيداً. وفوق ذلك حكيم.

ـ لقد أخبرني رسوله أن الإمدادات لم تنقطع إلاّ منذ يومين فقط.

ـ لا!

أفلتت من الشيخ غوما وأدار ظهره ومشى فوق الجبل شرقاً بضع خطوات ثم استدار فجأة وعاد خطوات في اتجاه الشيخ جبور وصرخ ثائراً:

ـ ولماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟

نكس الشيخ جبور برأسه وقال بهدوء:

ـ الواقع أن رسوله لم يأت إلاّ البارحة.

ـ ولماذالم تخبرني البارحة؟

ـ كنت نائماً، ولم أشأ أن أزعجك.

شرع الشيخ يتمشى يميناً ويساراً، يدحرج الأحجار بمداسه، ويتمتم كأنه يخاطب نفسه:

ـ نائم! يقول نائم! كأني قطعت مسافة شهر إلا قليلاً لأنام هنا فوق الجبل على مشارف غات! لم أجد مكاناً أنام فيه إلاّ هنا!

ثم اقترب من جبور وصرخ في وجهه:

ـ هل جئنا هنا يا شيخ جبور لننام؟ هل نحن في حرب أم في عرس يخلد فيه للراحة كل من أدركه تعب؟! كان عليك أن توقظني. إن خبراً كهذا بوسعه تغيير خطة اليوم بالكامل. لا أريد أن أهاجمهم وهم في عنفوانهم. كنت أسعى لإنهاكهم طوال هذا الوقت برغم أننا مهددون بالعطش، ولا أدري الآن متى يستطيع الشيخ آهر أن ينقذنا بالماء من آبار العوينات. سبحان الله. أقود حرباً وأنا آخر من يعلم بأحداثها. أنت تعرف ماذا يعني أن يظل طريق الإمدادات مفتوحاً. إنه كارثة. احمد الله أنك ما زلت على قيد الحياة. إنني أفهم شراستهم طوال الأيام الماضية الآن. ولكن.. هل الشيخ أخوّاد على يقين أن الإمدادات انقطعت منذ يومين؟

ـ هذا ما أكده رسوله.

عاد غوما يتمشّى جيئة وذهاباً كأسد أسير في قفص. ثم توقف فجأة وراقب تحرك المقاتلين عبر سلسلة الجبال. ثم أعلن:

ـ على بركة الله. سوف نهاجم الآن في وضح النهار. لن نستطيع تغيير شيء بعد أن أبلغنا كافة الجبهات. باسم الله.

ثم شرع ينزل السفح. مشى خلفه الشيخ جبور.

بدأت سفوح سلسلة الجبال المحيطة بغات تتحرك، فتبدو من بعيد كأن أحجارها هي التي تتحرك وتتدحرج عبر السفح نحو الواحة الغارقة، حتى تلك اللحظة، في سكون كالموت.

بدأ هجوم النهار.

أول هجوم في أول يوم الأسبوع الثالث.

(٢٠)

في ذلك اليوم غرقت غات في الجحيم وأعمدة الدخان والحرائق.

نزت السماء لهب الشمس منذ الصباح، وتنفست الأرض بالصهد والبخار الحارق، وتطاير الرصاص والشظايا في الهواء كالمطر. وتساقط الرجال من الجانبين، وسالت الدماء الساخنة الممزوجة بالعرق فامتصتها الرمال العطشى في غمضة عين.

انتصف النهار ولكن القتال الضاري استمر. سقطت كل المواقع وبقيت قوات محتمية بالقلعة العثمانية الحصينة تدعمها مجموعة تحتمي بالبنادق الرشاشة بعد أن صمتت المدافع البعيدة المدى التي تفقد مهمتها عندما يتلاحم القتال.

جلس الشيوخ غوما خلف الربوة التي تشرف على الموقع الشرس الذي استمر يمطر برصاصه كل الجهات، يلهث، ممسكاً ببندقيته بكلتا يديه، جسمه وملابسه مغمورة بالعرق، لثامه ينحسر عن شفتين شاحبتين يعلوهما التراب، ولكن عيناه تومضان بالتصميم. قال بصوت متهدج:

- يبدو أنني كبرت يا شيخ جبور. لم نعد نقوى على مقاومة العطش والتعب كأيام زمان.

طنت رصاصة فوق رأسيهما فقال الشيخ جبور وهو يتقوّس ويغرس مرفقيه في الرمال ويرقد على بطنه والبندقية بين يديه:

- هذا نهار يشيب منه الرضيع يا شيخ غوما فما بالك برجال تجاوزوا الخمسين. ليس لديك حل إلاّ أن تتزوج إذا أردت الاحتفاظ بشبابك. فتاة في الثامنة عشرة سوف تعيد لك الحياة وتهديك الشباب الأبدي. رحيق الصبايا هو السر، هو الدواء. هذا سيجعلك أكثر شباباً من ابني اخنوخن!

اغتصب غوما ضحكة قصيرة ثم قال وهو يزحف ويرقد على بطنه بجواره:

ـ أنت تسخر مني يا شيخ جبور! أنا لا أنفع صبية الثامنة عشرة ولاهي تصلح لي. الشباب الحقيقي هنا، في الروح.

التفت خلفه وأشار للمقاتلين أن يبدأوا. انهمر الرصاص ناحية القلعة، سدد غوما وبدأ يضغط على الزناد، بعد لحظة التفت إلى جبور قائلاً:

ـ عليك أن تهاجمهم من الناحية الأخرى مع مجموعتك. ناحية الوادي. وسأزحف مع مجموعتي من هنا. ما رأيك؟ يجب أن يكون الهجوم الأخير. لن يستطيع المقاتلون أن يتحملوا أكثر مما تحملوا حتى الآن. لقد هدّهم العطش.

بدأ الشيخ جبور يزحف على مرفقيه عبر الوادي صوب الشرق. شفتاه ترتعدان وعيناه ذابلتان. في عمق الوادي نهض على قدميه مقوساً ظهره وأشار لمجموعته أن تتبعه. كان الهواء يتنفس برائحة البارود.

أشار غوما بحركة من يديه لمجموعته أيضاً، ثم وقف فجأة واجتاز الربوة راكضاً حتى ارتمى خلف صخرة ضخمة تفصل بينه وبين حماة القلعة. بعد الصخرة امتد العراء فرآهم بوضوح. بعضهم مسلح بالبنادق الرشاشة والبعض الآخر يحتمي بالمدافع. مدافع نهمة، شرسة يراها لأول مرة. الآن لا يفصل بينه وبينهم إلاّ العراء! ولا يحميهم إلاّ القلعة خلفهم. المعقل الأخير.

استطاع أن يصيب جنديا يجلس خلف أحد المدافع ولكن سرعان ما احتل آخر محله. في تلك اللحظة شاهد الجندي الذي احتل مكانه يسقط أيضاً وهو يصرخ صرخة طويلة. سمعها بوضوح. التفت يساراً فرأى الشيخ جبور يظهر خلف الربوة التي تفصل القلعة عن امتداد الجبال الشرقية. ظهر فجأة وبدأ يصوب واقفا على طول قامته في العراء. وجد نفسه يصرخ بأعلى صوته:

ـ الأرض يا شيخ جبور. الأرض. أرقد على الأرض.

ولكن جبور لم يسمعه برغم قرب المسافة، فأعاد نداءه مرة أخرى.. ولكن في تلك اللحظة كان جبور قد أصيب. ترنح.. وسقطت بندقيته من يديه، مشى خطوات آلية إلى الأمام ثم إلى الوراء و.. سقط على الأرض.

وجد نفسه يجري نحوه كالمجنون، غير عابىء بالرصاص المنهمر، لم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً. خيل له فقط ـ فيما بعد ـ أن المقاتلين اندفعوا جميعاً خلفه.. خيل له أنه سمع دبيب أقدامهم يهز الأرض ويغطي على صوت الرصاص المنهمر. أخذه بين يديه ووجد بقعة كبيرة من الدم تغطي ملابسه عند صدره. لقد مات على الفور.

ثم أحس بسائل لزج حار، أحر من حر ذلك النهار، يسيل من كتفه على يده اليمنى متذكراً المعركة مع الطليان والشظية التي أصابته في يده اليسرى و.. عرف أنه أصيب. قاوم الدوار لحظات ورأى ظلال الرجال تحيط بهما.. ظلال كثيرة. ثم أحس بزحف الغيبوبة.

عندما عاد له الوعي أحس بآلام في كتفه وذراعه وبضعف شديد. اكتشف أن ملابسه مبتلة بالماء والدماء. لقد دلقوا عليه الماء. نهض ورأى صفوف الرجال تقف في مجموعات كبيرة وتنتشر في كل مكان ولكن البنادق ما زالت في أيديهم. فعرف أن المعركة قد انتهت. وقف بينهم وقال وهو ينظر إلى ذراعه الملفوفة في قطعة قماش بيضاء ينز منها الدم مشدودة إلى رقبته:

ـ أرجو المعذرة. لقد غفوت قليلاً.

أقبل نحوه الشيخ أخواد وعانقه طويلاً ثمّ قال وهو يربت على ظهره بكلتا يديه محاذراً أن يلمس الذراع الجريحة:

ـ الحمدلله على سلامتك. سلامتك كبيرة والله.

حدق فيه الشيخ غوما دون أن يجيب فعرف أخواد أنه ما زال غائباً.

عاد يجول ببصره حوله في ذهول حتى وقع نظره على الشيخ جبور المسجى بين مجموعة من الرجال فتذكر الأحداث التي سبقت الغيبوبة. تقدم في خطوات مترنحة وسقط على ركبتيه أمام الجسد المسجى. حدّق فيه لحظات ثم أمسك رأسه بيده اليسرى ونهض واقفاً. وجد في مواجهته أخنوخن الذي يقف بين الرجال ساحباً لثامه على عينيه. لاحظ أن اللثام مبتل فعرف أنه يبكي. تقدم نحوه بخطواته المترنحة وعانقه طويلاً. انتفض فجأة كأنه تذكر شيئاً أعاد له حيويته. شرع يتنقل بين الرجال ويردد:

ـ أين هو؟ أين؟ أين هو؟ أين؟

تهامس الرجال وتقدم نحوه الشيخ أخواد وقال مطمئناً:

ـ لقد قبضنا عليه وأسرنا معه مائة وعشرين فرنسياً. إطمئن.

ولكن الشيخ غوما عاد يردد كالمجنون:

ـ أين هو؟ أين؟

ـ هناك. بجوار القلعة.

اخترق الشيخ غوما صفوف الرجال وهو يردد:

ـ بجوار القلعة. بجوار القلعة.

تحركت المجاميع خلفه يتقدمهم الشيخ أخواد الذي أسرع في خطوه وقال وهو يمشي بمحاذاته:

ـ اقترح أن ترجىء الحسابات الآن. لدينا الوقت لذلك. يجب أن تعتني بنفسك. إنك جريح.

ولكن الشيخ غوما مضى نحو القلعة بخطوات سريعة كأنه لم يسمعه.

تحت القلعة انتصبت شجرة أثل ضخمة وحيدة. جلس أماستان باستسلام تحت الشجرة ويداه مقيدتان إلى الوراء وقد انحسر لثامه عن وجهه الذي غزته التجاعيد.

عبر المنحدر المؤدي إلى الأكواخ وبيوت الطين تجمع الأهالي رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، ولم يمض وقت حتى تعالت حناجر الصبايا بالزغاريد تخرق عنان السماء وتشق السكون الذي جثم على الواحة بعد سقوط القلعة.

وقف الشيخ غوما أمام أماستان لحظات كأنه يحدق في الفراغ. ومضت عيناه الحادتان ببياض، ثم غمغم بكلمات مبهمة قبل أن ينقض عليه وينزع لثامه. جثم على ركبتيه أمامه وهمهم بصوت مبحوح كالفحيح:

ـ هذا أنت! أماستان الذي يستعين علينا بالأغراب ويريد أن يقهر الصحراء

بالغزاة. هذا أنت أماستان! تريد أن تذلنا وتستعبدنا بمعاونة مدافع الفرنسيس!

ثم امسك ثوبه الفضفاض وانتزعه بيده اليسرى في حركة عنيفة مباغتة فتمزق الثوب وانكشف صدر أماستان الذي تناثر فوقه شعر مجعد تعلوه حبات الرمل. ومضت عينا الأسير بالشقاء وحاول أن يخلص يديه في حركات متتالية متوترة.

قال الشيخ أخواد بتوسل:

ـ يا شيخنا هذا لا يجوز.

ولكن الشيخ غوما لم يسمعه، حاول أن ينزع سرواله ولكنه لم يستطع رفع رأسه ورمق الرجال الواقفين بنظرة شاملة حتى وقعت عينه على أحد الأتباع. صرخ فيه وقد تناثرت على شفتيه رغوة كالتي تعلو شفاه الجمال الهائجة:

ـ هيا. ساعدني. ماذا تنتظر؟

أقبل الرجل ومزق السروال إلى نصفين فانكشفت عورة أماستان. سرت همهمة صاخبة بين الرجال وعاد الشيخ أخواد يتوسل:

ـ سبحان الله. هذا عار. هذا لا يجوز.

أقبل نحو الشيخ غوما فدفعه بيده اليسرى وهو يردد:

ـ ابتعد يا شيخ أخواد ابتعد. لا تتدخل. أنا أعرف ما يجوز وما لا يجوز.

ـ ولكنه أخوك.

ـ أخي مات منذ سلم نفسه للأعداء. لقد أبحت دمه وأنت تعرف.

ثم التفت إلى الرجل التابع وصرخ في وجهه:

ـ هات الجمل، هات جملي الآن!

عاد الشيخ أخواد يتوسل:

ـ ولكن هذه قسوة لا مبرر لها. الأفضل أن تضربه بطلقة!

قال غوما وهو يخطو بين الرجال هائجاً:

ـ اضربه بطلقة! هذا أنت يا شيخ أخواد تقول ذلك؟ إنني لا أضرب بالطلقات إلاّ الرجال. طلقتي أشرف منه. لن أخسر طلقة لقتل أماستان. لماذا لا تضربه أنت بطلقة؟

لحظتها تكلم أماستان لأول مرة. قال بصوت مخنوق وهو يحاول أن يستر عورته برجليه:

ـ اتركه يا شيخ أخواد، اتركه.. لقد انتصر ومن حقه أن ينتقم. إنه يراهن على انتحاري. إنه يفعل هذا لكي أنهي حياتي بنفسي. إنه مغرور ومتكبِّر.. أنا أعرفه أكثر منك..

تقدم منه الشيخ غوما وصرخ فيه:

ـ اخرس أيها الخائن. أنت جبان.. امرأة أشجع منك. أجل، أريدك أن تفعل ذلك بنفسك. إنني أراهن على ذلك. افعلها بيدك. هذا أشرف لك إن كان فيك بقية من شرف...

ـ لن أفعل ذلك نكاية فيك!

ـ هذا شأنك. مهمتي أن أجللك بالعار أمام نساء غات التي أردت أن تغزوها مستعيناً بالفرنسيس!

ـ لقد فقدت كل شيء وليس لدي شيئاً اخر أفقده. الرجل الذي يصنع نهاية لحياته بيده ليس لديه ما يفقد. أنت تعرف.

ـ لم أجيء إلى هنا لكي أضيع الوقت في محاورتك..

ثم أضاف وهو يخاطب الرجل الذي أتى بجمل يعلوه السرج:

ـ هيّا اربطه إلى الذيل.. شد يديه إلى الذيل بحبل متين.. هيّا!

حاول الشيخ أخواد أن يعترض طريقه ولكنه صرخ فيه بوحشية:

ـ ابتعد عن طريقي يا شيخ أخواد. ابتعد قلت لك..

حاول أن يقفز فوق السرج ولكن جسمه الضعيف الذي أنهكه التعب والعطش

وفقد كثيراً من الدماء خانه فسقط على الأرض في اللحظة التي نهض فيها الجمل الذي شد الرجل أماستان إلى ذيله.

كان عارياً.

أقبل الشيخ أخواد يساعده على النهوض فأزاحه بحركة من يده اليسرى وهو يترنح وعاد ينيخ الجمل مهمهماً بكلمات غير واضحة.

هرع الرجل يساعده على الركوب. انتصب الجمل واقفاً وجلس الشيخ غوما ثابتاً فوق السرج هذه المرة. انطلق عبر المنحدر المؤدي إلى بيوت الأهالي يجرّ أماستان العاري خلفه.

تحركت مجاميع الرجال وهم يمسكون ببنادقهم يتقدمهم الشيخ أخواد الذي شرع يضرب كفاً بكف ويردد:

ـ لا حول الله. هذه فضيحة. فضيحة. فضيحة والله.

اخترق الموكب ساحة كبيرة أسفل المنحدر تجمع على أطرافها الأهالي في طوابير طويلة. انطلقت الزغاريد، ورقص الزنوج وهم يقرعون الطبول والدفوف وينفخون في مزامير مزينة بالحلي، يرددون أغاني النصر.

ظل الشيخ غوما ثابتاً فوق السرج يغالب الدوار والغثيان في حين استمر أماستان يترنح ويردد خلف المهري:

ـ عبثاً تفعل كل هذا. لن أفعلها. قلت لك لن أفعلها.. لقد فقدت كل شيء من زمان.. ليس لديّ ما أفقده الآن..

وكان الشيخ يلتفت نحوه ويصرخ مغالباً الدوار:

ـ اخرس يا خائن. اخرس. تريد أن تذلنا في صحرائنا. ذق الآن طعم الذل. يا قاتل. قتلت أمك. ماتت كمداً عليك.. أيها الخائن.. الجبان..

كانت النساء يشحن بوجوههن كلما وقع بصرهن على أماستان العاري دون أن تتوقف حناجرهن الحادة عن إطلاق الزغاريد الراعدة.

عبر السفح انتشرت مجموعات من الرجال تنصب خيم الضيافة وتشيد

المعسكرات لإيواء الجرحى والمقاتلين من مختلف القبائل.

حاول الشيخ أخواد أن يعترض طريق الجمل مرة أخرى وصاح يتوسل الشيخ غوما:

ـ يكفي يا شيخنا. هذا يكفي.. خذ بجاهي.. استمع الى رجائي وشفاعتي..

ولكن الشيخ غوما استمر في عناد وهو يردد:

ـ ابتعد يا شيخ أخواد، ابتعد. ابتعد عن طريقي.. دعني أذيقه طعم الذل الذي أراد أن يذيقنا إياه.. ابتعد..

ضرب الشيخ أخواد كفاً بكف وهو يردد في يأس متنقلاً ببصره بين الرجال:

ـ لا حول لله. الرجل فقد صوابه.. هذا لا يجوز.. هذا أقسى مما ينبغي. كان الأحرى به أن يقتله.

ولكن الشيخ غوما سقط من السرج فجأة بعد أن خارت قواه وقهرته الغيبوبة في حين استمر الجمل يشق طريقه بين صفوف الأهالي.

(٢١)

مع الغروب فتح الشيخ غوما عينيه فرأى الشيخ أخواد يتقرفص بجواره وينهمك في خلط الشاي الأخضر. في المدخل تجمع الرجال يحضرون الشواء ويتبادلون الأحاديث بصوت خافت.

رفع رأسه عن الوسادة المبتلة بالعرق وقال وهو يقاوم الآلام في كتفه اليمنى:

ـ هذا أنت يا شيخ أخواد؟ أرجو المعذرة. لقد غفوت مرة أخرى.

ابتسم أخواد تحت اللثام في حين أضاف غوما:

ـ إنني أشعر بآلام رهيبة. كتفي اليمنى تنفصل عن جسدي.

قدم له كوباً خشبياً وقال:

ـ اشرب. هذا سيجعل الجرح يلتئم بأسرع مما تتوقع.

قطب غوما حاجبيه وهو يتجرع الدواء بمساعدة يده اليسرى. كانت ترتعد كسعفة في الريح. استلقى على الوسادة مرة أخرى وهو يتنهد بعمق:

ـ هل ستشل يدي اليمنى يا شيخ أخواد؟

ـ ستشفى بأسرع مما تتصور. سوف ترى. مرهم الأعشاب له مفعول السحر.

ـ كيف سأشترك في الحروب الآن؟ لن أستطيع أن أشترك في المعارك القادمة. ماذا سأفعل بحياتي وقتها؟

صمت لحظة ثم أضاف:

ـ اللهم إلا إذا كانت هذه آخر المعارك في الصحراء.

ـ لم تكن المعركة الأولى ولن تكون الأخيرة. المعارك قدر الصحراء ولن تتوقف إلاّ إذا اختفت الصحراء نفسها من الوجود. ويدك ستعود أقوى مما كانت. سوف ترى.

ـ معك حق. المعارك لن تنتهي في الصحراء. أصابني الطليان في ذراعي الأيسر وها هم الفرنسيس يصيبونني في ذراعي الأيمن بمساعدة أماستان!

صمت أخواد وعاد غوما يقول:

ـ فجعني الطليان في ابني الوحيد وها هم الفرنسيس يفجعونني في الشيخ جبور بمساعدة أماستان!

صمت أخواد منشغلاً في خلط الشاي واستجلاب الرغوة في الكؤوس الصغيرة وأضاف غوما وهو يغالب الانفعال والآلام:

ـ ولكن هل فقدنا الشيخ جبور حقاً؟ أنا لا أصدق ذلك.

ـ رحمه الله.

ـ كان ساعدي الأيمن. رجل لم تعرف الصحراء مثله. إنني أشعر الآن بالفراغ.

ـ في الحروب لا بد من ضحايا.. في ذلك يكمن سرّ الحياة.

ـ ولكن لماذا هو بالذات؟

ـ استغفر الله. هذه حكمته.

ساد صمت تخرقه همهمة الرجال. بعد قليل جاء أحدهم بمصباح الكيروسين.

عاد غوما يقول:

ـ أتدري يا شيخ أخواد؟ في الزمان القديم، سنوات الشباب أصبت بمرض غريب. كان شيء هنا (وأشار إلى صدره بسبابة يده اليسرى) يحرق قلبي كالنار ويدفعني إلى الجنون، حتى لم أعد أجد لي مكاناً على الأرض فحاولت أن أهرب منه وأبحث عن العزاء، عن الشفاء في مكان آخر، في الدنيا الواسعة.. في الهجرة والبحث عن المجهول. لجأت إلى الواحة لتلقي العلم على أيدي أهله ولكن المعرفة والكتب لم تزدني إلا شقاء. فعدت إلى الصحراء، ولكن المرض استمر يعذبني حتى جاء رسل الشيخ عبد النبي بالخبر لتجميع الناس لصد الطليان عن غزو الواحات فالتحقت بهم بلا تردد. وأخذت ابني معي. فقدته هناك وبقيت أنا. مات في عزّ شبابه ونضارته وبقيت أنا الكهل المريض الذي جاء للحرب أصلاً لكي يعالج مرضه.. كنت أسعى لأن أتلقى طلقة قاتلة ولكنها أصابت ابني بجواري، على بعد مترين مني، وتركتني أنا فريسة المرض الذي فشلت النساء والصحراء والعلم وكل شيء في علاجه. أتفهمني يا شيخ أخواد؟ هذا جعل الحروب لعبتي المفضلة!

ـ أفهمك. طبعاً أفهمك...

ـ لاأريد الآن أن أعترف لك حرفياً بأنني كنت أسعى إلى الانتحار ولكنه شيء مثل ذلك.

ـ أفهمك.. هذه حكمته.

ـ يترك الذين لا يجدون للحياة معنى، ويأخذ شباباً يزينون بنضارتهم الدنيا ويندفعون لاحتضان الحياة.

ـ له في ذلك حكمة.

- يدع الأشرار يعيثون في الأرض فساداً ويصادر الأبرياء!

- استغفر الله.

- هل هذا عدل يا شيخ أخواد؟

- استغفر الله. أنت تهذي يا شيخنا. يجب أن تخلد للراحة.

- أنا لاأهذي. فقدان الشيخ جبور يحرقني.

- عليه رحمة الله.

- لقد أطلق عليهم في العراء وهو منتصب القامة. صرخت فيه أن يلزم الأرض ولكنه لم يسمعني، ترك لهم نفسه لكي يصيبوه..

- هل تريد أن تقول انه..

- نعم. نعم. هذا ما أردت أن أقول. لقد نضبت آخر قطرة من مخزون الماء، ومقاومة المعقل الأخير أربكت كل حساباتنا. ولم نكن نستطيع أن نتراجع لأن ذلك يعني الانتحار، سنموت عطشاً. كان العطش قد أفقده صوابه برغم أنه استمر يداعبني حتى آخر لحظة. أنت تعرف ماذا يفعل العطش بالعقل...

- أعرف. أعرف.

- أتدري يا شيخ أخواد؟ لقد رأيت ذلك كله في عظمة الكتف.

- أي عظمة كتف؟

- قبل سفرنا دعانا على الغداء. وقد تعمدت الاستيلاء على عظمة الكتف لاقرأ فيها الأحداث التي يخبئها المستقبل. رأيت كوكبنا القمر يغرق في العتمة ولا يبدو منه إلاّ جزؤه العلوي مخضب بالدماء فعرفت أن الأمور لن تسير على ما يرام. ضبطني الشيخ جبور خلسة من تحت طرف لثامه وشاهدني عندما ألقيت بالعظمة في موقد النار. ادعيت طبعاً أنني لم أشاهد سوى الجفاف، ولكنه لم يصدقني. لحق بي عندما خرجت عائداً إلى البيت وسألني عما رأيت. فعدت أؤكد أنني لم أر سوى الجفاف. ولكنه لم يصدقني. ودعني وقد لمعت عيناه بنظرة شك وتأنيب. كان ذلك قبل رحيلنا بليلة. لقد كذبت عليه وهو يعرف ذلك. كذبت يا

شيخ أخواد لأول مرة في حياتي.

صمت لحظة ثم أضاف بصوت متهدج:

ـ لن أغفر لنفسي ذلك أبداً.

قدم له الشيخ أخواد كأس الشاي الأخضر المتوج بالرغوة ولكنه كان قد أغمض عينيه وأغفى. أدرك أخواد ذلك من خلال تنفسه المنتظم.

(٢٢)

تماثل الشيخ غوما للشفاء بعد انقضاء أحد عشر يوماً من استسلام المعقل الأخير في القلعة. نهض مع الشروق وجلس يراقب المخيم الذي يدب بالحركة، ويتفقد ذراعه الجريحة، محاولاً أن يستحضر الأحداث الماضية التي يتذكرها الآن ضبابية غائمة كأنها حلم.

أقبل الشيخ أخواد يتبعه رجلان من أتباعه. افترش الأرض بجواره في حين انهمك الرجلان في إشعال النار لمباشرة طقوس شاي الصباح. قال أخواد مداعباً:

ـ ها قد شفينا والحمد لله.

ـ الحمد لله. تراجعت الحمى. وأستطيع الآن تحريك أصابع اليد.

ـ الحمد لله إن الرصاصة لم تخترق عظمة الكتف. أصابت العضلة ومزقت الألياف المجاورة للعظم.

ـ الحمد لله. لقد تعودت على الإصابات التي تمزق العضلات المجاورة، قافزة فوق الرأس لتخطىء الهدف!

ـ استغفر الله.

راقب غوما الرجال المتنقلين بين الخيم في حين قال أخواد وهو يخطط الأرض بعود حطب:

ـ لقد وصل الشيخ آهر عند الفجر.

ـ وصل متأخراً. قل له أن يسقي الصحراء بالماء الذي جاء به.

رمقه أخواد بنظرة استنكار قائلاً:

ـ استغفر الله. الماء نعمة الله.

أضاف غوما بنفس اللهجة القاسية:

ـ لو وصل في موعده لما فعل الشيخ جبور بنفسه ما فعل.

ـ عذر الغائب معه كما يقال. لقد حاصرته عاصفة، ولا تستطيع قافلة مثقلة بالأمتعة والماء أن تقطع مسافة كهذه في زمن أقصر مما قطعت.

ـ لو اعتمدنا عليه لمتنا عطشاً أو وقعنا في يد الفرنسيس كالخراف.

ـ الله غالب.

سادت لحظة صمت يخرقها طنين الذباب ثم عاد أخواد يقول:

ـ جاء رسول من آهجار.

بدا الاهتمام على وجه غوما. قدم لهم أحد الرجلين الدور الأول من الشاي. رشف أخواد من كأسه قبل أن يضيف:

ـ لقد تعذبوا كثيراً هناك. قصفوهم بالمدافع وأغاروا عليهم بالطائرات. خسائرهم كبيرة. ولولا الجبال لأبادوهم جميعاً.

ـ لا حول لله.

ـ لم يتمكنوا من إيقاف الإمدادات إلاّ أخيراً.

ـ حمّلناهم أكثر مما ينبغي.

ـ لم يفعلوا إلا الواجب.

ـ الحق أني اعتمدت في خطتي على انقطاع طريق الإمدادات منذ الأيام الأولى. وقد أخبرني المرحوم جبور على لسان رسول آهجار بمصير طريق الإمدادات في آخر لحظة قبل هجومنا الأخير. فهمت الآن السبب.

ـ عذر الغائب دائماً معه.

ـ معك حق.

صمت لحظة ثم قال بألم:

ـ من كان يعتقد أن يحدث هذا كله بسبب أماستان.

ـ الفرنسيس كانوا ينوون غزو الصحراء منذ زمن بعيد. وكانوا سيفعلون ذلك بأماستان أو بدون أماستان.

ـ لم أسمع بذلك من قبل. هل أنت على يقين أم أنك تبحث لي عن العزاء؟

ـ استغفر الله. لم يخطر ببالي أن أفعل. ولكن نيتهم في غزو الصحراء قديمة. إنهم ينوون أن يستخرجوا من باطن الصحراء سائلاً جهنمياً اسمه النفط.

ـ النفط؟

ـ نعم، يقال انه سائل له القدرة على أن يحول الليل نهاراً وتستخرج منه مواد تستخدم في أغراض لا أول لها ولا آخر. منها بنزين السيارات.

ارتفعت الشمس وبدأت أشعتها تسلع الأرض بسياط اللهب. قال غوما:

ـ هذا هو إذن السبب الذي جعلهم يدفعون بكل تلك القوات ويستميتون هذه الاستماتة.

ـ طبعاً، لقد أكد لي ذلك أحد الأسرى أيضاً.

ـ كدنا نضيع. لو استولوا على غات لركعت لهم الصحراء وبقوا فيها إلى الأبد. لن يخرجوا منها بسهولة إذا استخرجوا منها سائلهم الجهنمي الذي تتحدث عنه. ثم من قال انهم لن يكتشفوا كنوز أطلانتيدا الراقدة في جوف الأرض؟

ـ طبعاً.

ـ كدنا نصبح عبيداً إلى الأبد.

ـ طبعاً.

ـ لا شك أن في باطن الصحراء كنوزاً لا حصر لها اختفت مع اختفاء القارة، وأنت تعرف أمر جرار الذهب والأحجار الكريمة التي عثر عليها أكثر من عابر سبيل. ولكن الصحراء لن تكون صحراء حقاً إذا فقدت كنوزها التي تخفيها بعيداً في أعماقها. إنها تفقد سرها وسحرها. أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ لو استخرجوا كنوزها وثرواتها لاستباحوها. يا ربي، كادوا يتمكنون من بكارتها! ولكن الحمد لله..

صمت طويلاً. ثم نهض فجأة وقال:

ـ إنني أشعر بالخجل لتخلفي عن تشييع جنازة الشيخ جبور. يجب أن أصلّي على المقابر. حق الأموات أولاً. هل ترافقني؟ أريد أن أهتدي إلى قبر الشيخ جبور.

(٢٣)

خرج آيس مع زارا إلى المرعى لأول مرة.

انتشرت الأغنام والجديان والتيوس على طول السهل الرمادي الطيني المغطى بطبقة من حبات الحصى الرقيقة تمتد غرب الجبل وتخترقها أودية صغيرة حفرتها السيول في مواسم الأمطار الغزيرة. عبر الأودية تبعثرت أشجار الطلح والرتم والسدر ونباتات صغيرة شاحبة تتشبث بالأرض وقد امتصت الشمس اللاهبة نضارتها ولكنها استمرت خضراء تقاوم الجفاف الأبدي بعناد. في نهاية السهل الرمادي امتدت صحراء أخرى، رملية، يرقص فوقها السراب الفضي وتركع تحت أشعة الشمس القاسية، الأبدية كالقدر في متاهة تمضي، وتمضي فيجرح امتدادها الوحشي البصر، ويخز العيون بألم كوخز الابر.

انشغل آيس بمراقبة تيس يغازل معزاة، اقترب منه تيس آخر فهاجمه واشتبكا معاً في معركة حامية سلاحها القرون.

في السماء تسكعت بعض السحب، الممزقة، العابرة، وهبت نسمة مشبعة بالرطوبة ورائحة الزهور. زهور الرتم.

قـال آيس وهـو منطرح على بطنه في مـواجـهـة زارا التي ارتدت ثوبـاً وردياً ووضعت على رأسها طرحة زرقاء قاتمة منشغلة في رتق ثوب وضعته في حجرها :

ـ سوف أتزوج باتا .

رمقته بفضول بطرف عينها ، ابتسـمـت واستمرّت في رتق الثوب في هدوء قالت بعد صمت طويل :

ـ ولكنها تكبرك بأكثر من عشـر سنوات . إنها في عمـر المرحومة أمك . أو أكثر .

ـ هذا لايهم . إنني أحبها .

أذهلها عناده ، وصمتت وهي ترمقه بين الحين والآخر . ثم حدقت فيه وقالت فجأة :

ـ أنت حقاً ابن أبيك وحفيد جدك . لقد أحبها أباك بنفس الاندفاع الذي أحبها فيه جدك .

ـ من؟

ـ أمي . باتا!

أنصت لثغاء الجديان وضجيج حوار المعز المتنقلة بين الأشجار والأعشاب . تساءل :

ـ حتى جدي؟

قالت وهي تنظر إلى الأفق :

ـ حتى جدك . كل الرجال يعشقون باتا!

ـ ولكن لماذا لم يتزوجها؟

ـ ربنا أعلم . لقد سافر بعدها لتلقي العلم في الواحة فوقع في غرامها أباك .

عادت لرتق الثوب المكوم في حجرها وأضافت بعد لحظات :

ـ هذا ما يقال. حدث ذلك قبل أن تتزوج أبي.

استمر آيس يتابع تناطح التيسين اللذين تشابكت قرونهما ولم يعد أحدهما يستطيع التخلص من الآخر فوقفا عاجزين متشابكي القرون يتابعان المعزاة التي انتهز تيس آخر الفرصة واستولى عليها. كان يتقافز ويتسلقها من الخلف في حماس.

قال آيس بهدوء:

ـ لقد رأيته أكثر من مرّة في الليل. هل يحبك؟

غزت وجنتيها مسحة طارئة من التورد في حين أعاد آيس:

ـ لقد رأيته أكثر من مرّة في الليل. هل يحبك؟

تمتمت وقد ازدادات وجنتاها توردا:

ـ نعم.

ـ رأيت أخنوخن أيضاً.

ارتعدت شفتها السفلى وهمست:

ـ حقاً؟ يا لك من ولد خبيث!

ـ هل يحبك أيضا؟

ـ نعم.

انهمكت في الرتق محاولة إخفاء ارتباكها. ارتعشت أصابعها فوخزتها الإبرة. انتفضت وشرعت تمتص إصبعها حيث انبثق الدم.

ـ هل وخزتك الإبرة؟

ـ كله بسببك.

قال متخابثاً:

ـ بسببي أم بسبب أخنوخن!

ـ أخنوخن؟ نعم. إني أحب أخنوخن!

ـ هل ستتزوجينه عندما يعود؟

ـ نعم.

ـ وماذا سيفعل أمغار؟

ـ لا أعرف.

ـ هل تحبين أمغار أيضاً؟

ـ لا أعرف.

ثم أزاحت الثوب من حجرها ونهضت. تمطت باسطة ذراعيها في الهواء فانكشف جيدها المرمري مثل جيد أمها. بعد لحظات بدأت تتقافز في الهواء كالفراشة مرددة أغنية غرامية قديمة.

انتصف النهار.

جردت الشمس أشعتها اللامعة كالسيوف. انطلقت ألسنة الجحيم من عقالها. كشفت الصحراء عن صدرها العاري دائماً، البكر دائماً، استعداداً لاستقبال سياط اللهب وممارسة طقوس العذاب الخالد.

عبر الخلاء الذي ينداح منبسطاً، متواصلاً، اندلق السراب كسيول من الفضة، كنهر من الزئبق، يندفع، في إصرار، حتى يحجب الأفق، في نقطة الالتحام المحموم بين السماء والصحراء، متصاعداً في بخار ضبابي شفاف.

استجار آيس من الشمس بظلال شجرة سدر. جاءت زارا أيضاً وأخرجت من الجراب حبات التمر، بسطتها على طرحتها الزرقاء. تناولت حبة تمر. شقّتها نصفين. كانت دودة صغيرة ترقد بجوار النواة. سحقت الدودة بأصابعها ورمت النواة خلفها. قالت وهي تضع شطر حبة التمر في فمها وتقدم له الشطر الثاني:

ـ ولكن إياك أن تخبر أحداً بما قلته لك. هل تعدني؟

(٢٤)

استيقظ الشيخ غوما عند الفجر. توضأ وصلّى وانطلق إلى مقبرة الشهداء عند سفح الجبل الشمالي. وقف أمام قبر الشيخ جبور طويلاً، ثم جثا على ركبتيه وقرأ الفاتحة بصوت مسموع. مكث هناك يسبح ويتمتم بآيات القرآن حتى ارتفعت الشمس. كان يحجبها جبل الشمال ولكن أشعتها بدأت تداعب قمم جبال الجنوب.

نهض وذهب، بخطوات بطيئة إلى «سوق الحدادة» في أقصى الطرف الجنوبي من الواحة. في مدخل بيت الطين استقبله الزنجي العجوز، متلفعاً بلثام رمادي اللون. كان نحيفاً. طويل القامة، يكشف لثامه عن فم مرصع بأسنان بيضاء بارزة. لقد عرفه منذ سنوات عندما كان يمر عبر غات في رحلاته التجارية الى أغاديس وكانو.

استقبله الزنجي بالعناق.

هتف وهو يقفز ويفرش له بساطاً وردياً على سدة الطين الملاصقة للبيت:

ـ هذا شرف كبير. الشيخ غوما بلحمه ودمه. سلامتك كبيرة يا سيدنا الشيخ. لقد شرفت ديارنا. لقد حررتنا من الذل. شرف كبير أن يتنازل سيدنا ويعطيني شرف استقباله في داري. يا سيدنا الشيخ أنت مخلصنا. نحن مدينون لك بحياتنا.

همهم الشيخ محاولاً أن يوقف سيل الإطراء المتدفق من بين أسنان الزنجي الناتئة:

ـ مضى وقت طويل قبل أن نلتقي.

ـ طويل جداً يا سيدي الشيخ. غات كلها ترقص وتغني ليل نهار منذ اقتحمتها برجالك مظفراً..

أراد الشيخ غوما أن يضع حداً لثرثرته المستمرة مقاطعاً:

ـ آخر مرة كانت منذ خمسة عشر عاماً على ما أذكر.

ـ خمسة عشر عاماً أو اكثر. كأنها بالأمس.. الوقت يمر خاطفاً كالبرق.. بسرعة الرصاصة، ونحن نشيخ ونزحف نحو الموت من حيث لا ندري. وقتها كنت لم تستلم مشيخة أمنغساتن بعد. وكنت قاصداً كانو، لقد أهديتني شريحة كبيرة من لحم الغزال المجفف.. أتذكر؟ لم أذق طعماً أشهى من تلك الغزالة.. طعمها ما يزال في فمي حتى الآن.. وكلما تذكرتها سال لعابي.. ولحست شفتي بطرف لساني كما يفعل الكلب الجائع.. ماتكو.. ماتكو..

من المبنى الملحق خرج شاب نحيف طويل القامة يحمل ملامح أبيه.

وقف كالأبله أمام الزنجي العجوز الذي صرخ فيه:

ـ لماذا تقف هكذا؟ سلم على سيدك الشيخ أولاً.

ثم ملتفتاً إلى غوما.

ـ هذا ابني.. في تلك السنوات لم يكن يتجاوز عمره أربع سنوات..

تقدم الشاب يصافح الشيخ مطأطىء الرأس في حين قال العجوز:

ـ قل لأمك أن تحضر لنا الشاي والكعك. لا أعتقد أن سيدنا الشيخ تمكن من تناول إفطاره بعد..

ثم افترش الأرض، مقتعداً القرفصاء، تحت أقدام الشيخ الذي خيل له أن أسنان الرجل تزداد نتوءاً مع ازدياد ثرثرته التي لا تنتهي. تهدّل لثامه الرمادي عن وجهه فظهرت لحيته الهزيلة المتناثرة في شعيرات صغيرة بيضاء مجعدة. قال باكتئاب:

ـ فليسمح لي سيدنا الشيخ أن أتجرأ فأقول ان ما فعلته بأماستان كان قاسياً، وسوف يعاني بسبب ذلك طوال حياته. أنا أعرف أنه اقترف الخيانة العظمى، وأعرف أن من حقك أن تعاقبه بالأسلوب الذي تراه.. ولكن هذا سوف يدفعه لأن يفعلها في نفسه.

ـ هذا إذا كان فيه عرق ينبض بالرجولة.

ـ أفهمك.. لقد فهمتك الآن. لقد فعلت ذلك خصيصاً لكي..

قاطعه الشيخ الذي ملّ ثرثرته:

ـ دعنا من أماستان الآن. الحق أني جئتك في أمر آخر.

نهض الزنجي فجأة وقال وهو ينحني بهامته الطويلة إلى الأمام في حركات متتابعة:

ـ أنا رهن إشارتك سيدنا الشيخ. رغباتك أوامر..

جاء الشاب يحمل طبقاً مزدحماً بقطع الكعك وكوبين صغيرين من الشاي الأخضر. تناول الشيخ كأس الشاي. رشف منه مرتين قبل أن يقول:

ـ الحق أن لدي بندقية أريدك أن تصنع كعبها من الذهب الخالص وفوهتها الأمامية بالفضة. أريد عملاً متقناً..

هرش الزنجي رأسه وفكر لحظات قبل أن يقول:

ـ تقول أن الكعب كله من الذهب الخالص؟

ـ نعم. أريده من الذهب الخالص. كم سيكلف ذلك؟

عاد الزنجي يهرش رأسه، وتراجع خطوتين إلى الخلف وقال بتردد:

ـ هذا سيكلف غالياً يا سيدنا الشيخ. الذهب نادر هذه الأيام.. التجار القادمون من كانو يبيعونه غالياً جداً. تستطيع أن تسأل.

قال الشيخ في نفسه: «لقد بدأت مساومات التجار». ثم سارع يقول مشجعاً:

ـ لا أريد أن أسأل أحداً. كم تريد؟ لدي فرنكات فرنسية.. هل تقبل فرنكات فرنسية؟

لوح الزنجي بيده في الهواء، وقال وقد استعاد حيويته:

ـ وما عساني أفعل بالفرنكات الفرنسية يا سيدنا الشيخ؟ لا أنوي الذهاب إلى بلادهم. ولا أريد أن ألجأ إلى جانت أو وهران.. لو مكثوا هنا لاحتجت إليها، ولكنك طردتهم وخلصتنا من شرّهم..

ـ حسناً.. حسناً، سأقايضك بناقة. هل تكفي ناقة؟

تردد الزنجي قبل أن يقول:

ـ الحق أن ناقة واحدة لا تكفي. ناقتان. سأفعل ذلك ليس بأقل من ناقتين، سيكون عملاً متقناً حقاً يا سيدنا الشيخ.

قال الشيخ وهو ينهض:

ـ لك ما أردت. فلتكن ناقتان. سوف أبعث لك بالبندقية مع أحد أتباعي.

انحنى له الزنجي في احترام. ولكنه التفت وقال مستدركاً:

ـ لقد نسيت. لا تنس أن تكتب عليها اسم أخواد شيخ الفوغاس. إنها هدية للشيخ أخواد.

عندما انصرف سمعه يصيح خلفه:

ـ أما أماستان فسيفعلها، يا سيدنا الشيخ يوما ما. سيفعلها طال الوقت أم قصر. سوف ترى!

(٢٥)

اختل توازن النهار، ومالت الشمس نحو الغرب في رحلتها اليومية الأبدية، لكن الأرض استمرت تنفث الصهد والبخار الجاف فحمل الشيخ غوما فراشه واستلقى في الجهة الشمالية من الخيمة هربا من حر الشمس التي سلطت أشعتها على طرف الخيمة الغربي.

غفا وهو يسبح في العرق.

أيقظه الشيخ آهر فزحف نحو القربة المعلقة في مدخل الخيمة وملأ الإناء بالماء وتوضأ وصلّى العصر وعاد يجلس بجوار الشيخ آهر. تساءل وهو يراقب آخر فلول الأهالي التي هاجرت إلى العوينات أثناء القصف تهشّ المواشي وتقود الجمال والحمير المحملة بالأمتعة والأثقال:

ـ الآن خبرني. كم عدد ضحايانا؟

صمت الشيخ آهر لحظات قبل أن يقول:

ـ فوق الثلاثين.

رمقه غوما بنظرة صارمة. وقال بهدوء ينذر بغضب وحشي:

ـ يبدو أن لديك عداء مستحكماً مع الأرقام يا شيخ آهر. لقد لاحظت ذلك أكثر من مرة. ما معنى فوق الثلاثين؟ قل لي بالله.. ألا تعتقد أنك تستهين بأرواح البشر؟ هل كنت تحصي الخراف أم تحصي قافلة الشهداء؟ هل العدد الذي يزيد على رقم ٣٠ هم رؤوس ماعز؟ سبحانك يا ربي..

سارع الشيخ آهر يخرج ورقة من جيبه ويتمتم في ارتباك:

ـ أربعة وثلاثون بالضبط. إنهم ٣٤

ـ رحمهم الله. بما في ذلك الشيخ جبور طبعاً؟

ـ نعم. نعم.

ـ وكم عدد شهداء القبائل الأخرى؟

ـ فوق الثمانين. أقصد ٨٤ بالضبط. هذا هو الرقم المدون هنا.

ـ الذي أعرفه أن شهداء الفوغاس وحدهم ٤٦ شهيداً.

ـ نعم من الفوغاس ٤٦ ـ المجموع يكون ١١٧ شهيداً في كل المعارك. هذا باستثناء كارثة آهجار طبعاً التي لا نعلم تفاصيلها حتى الآن.

ـ فليلهمهم الله الصبر في مصابهم.

ساد صمت طويل يخرقه طنين الذباب وضجيج حوافر المواشي التي يهشها الأهالي العائدين إلى ديارهم.

قال آهر مغيراً موضوع الحديث:

ـ أفواج العائدين لا تنقطع.

ولكن الشيخ غوما قال فجأة قافزاً إلى موضوع آخر:

- أريد شاياً حقيقياً. منذ دخلنا غات وهؤلاء الشباب الطائشون يسقوننا الماء الملون مدعين أن هذا شاياً.

- إنهم قليلو الخبرة يا شيخ غوما.

- إنه غسيل جلود مدبوغة، إنه غسيل جذوع شجرة الطلح ولا يشبه الشاي إلاّ بالاسم. لا تنقصهم الخبرة ولكنهم طائشون. صدقني صناعة الشاي الأخضر مثل طقوس العشق تحتاج إلى الصبر والاتقان. تحتاج إلى أن تضع فيها قطعة من قلبك تصب فيه جزءاً من روحك. وإذا كان هؤلاء الصبية يعشقون زوجاتهم كما يحضرون الشاي فإن تطليقهن منهم حلال. لن ألومهن إذا طالبن بالطلاق. إن إعداد الشاي شيء يشبه صيد الغزلان. لن يكون لحم الغزال شهياً حقاً إلاّ إذا كان الصياد يعشق الغزلان!

قال آهر مبتسماً:

- هذه فتوى قاسية يا شيخنا.

- هذه ليست فتوى دينية. إن طريقتهم في صنع الشاي تدل على أخلاقهم وأرواحهم البائسة. هؤلاء هم شباب هذه الأيام.

أقبل الشيخ أخواد. قال مرحباً وهو يقتعد القرفصاء على الرمل:

- أرى مزاج شيخنا رائقاً اليوم. هذا فضل الله.

قال غوما وهو يسوي لثامه على وجهه:

- إننا نتعاند: من يحضر الشاي اليوم. لقد مللنا بول الإبل الذي ظل شبابنا وشباب الأتباع يسقوننا إياه طوال الأيام الماضية.

انفجر أخواد بضحكة مجلجلة. ضحك معه آهر. ولكن غوما ظل متجهماً. قال:

- من منا سيقوم بإعداد الشاي؟

قال أخواد وهو يحاول أن يكتم الضحك:

ـ أعواد الحطب هي الحكم. سنلجأ إلى القرعة. التفت يا شيخ غوما.

تناول ثلاثة أعواد من الحطب المكوّم بجوار الخيمة في حين أشاح غوما بوجهه نحو الناحية الأخرى. تهامس أخواد مع آهر، بعد لحظات قال أخواد:

ـ تستطيع الآن أن تلتفت. أيهما تختار؟

تناول غوما عوداً قصيراً، أقصر عود، وقال وهو يرفعه أمام وجهه:

ـ هذا!

اندفع الشيخ آهر يحتج:

ـ هذه خدعة. لقد رأيت الشيخ وهو يسترق النظر من خلف اللثام.

ـ لا. أقسم بالله. أقسم بتانس!

قال أخواد حسماً لخلاف وهو ما يزال يغالب الضحك:

ـ حسناً. سنعيد التحكيم. التفت أنت يا شيخ آهر هذه المرة.

تهامس مع غوما وأعلن:

ـ تستطيع أن تختار الآن. القرعة هي القرعة.

تردد آهر لحظات ثم قفز إلى أطول عود قائلاً:

ـ هذا!

انفجر غوما وأخواد بالضحك في وقت واحد فعلم آهر أنه لا مناص له من تحضير الشاي. قال محتجاً:

ـ حظ الشيخ غوما من حديد. إنني أخسر معه دائماً.

نهض يوقد النار.

قال غوما:

ـ لاأعرف لماذا أكره تحضير الشاي برغم أن المرحوم الشيخ جبور يصر أني

أحسن من يتقن تحضيره. ولكني أحب أن أشربه من اليد الماهرة. الشيخ آهر ايضاً يتقن تحضيره.

وافقه أخواد :

ـ هذا حالنا جميعاً. إن الطباخة الماهرة لا تستطعم طعامها مهما كان لذيذاً!

ـ هذا صحيح. ولكن يجب أن تتفق معي في أن ما يصنعه هؤلاء الشباب ليس شاياً. لقد تحملته طوال الأيام الماضية ولا أستطيع أن استمر في تحمله أكثر.

عاد أخواد يقهقه في حين اكتفى غوما بالابتسام تحت اللثام. بدأ آهر يغسل أواني الشاي.

اصطدمت أشعة الشمس المائلة للغروب بقمم الجبال الغربية. في نهاية المنحدر رأى الشيخ غوما ثلاثة من الشباب يصارعون كبشاً متوجاً بقرنين ملتويين والسكين تلمع تحت أشعة الشمس في يد أحدهم.

قال :

ـ ألا تعتقد أن الأوان قد حان لكي نرحل؟ جئنا إلى الواحة كي نصد عنها الغزاة لا لكي نبيد لها قطعان المواشي. ألا تتفق معي؟

ـ معك حق. ولكن أغلب الرجال غادرت ولم يبق سوى بعض الجرحى. للضرورة أحكامها يا شيخنا. وأنت بنفسك لم تتماثل للشفاء تماماً إلاّ منذ أيام. نستطيع أن ننطلق متى أردت. أنا جاهز منذ زمان ولم يبق من رجالي سوى خمسة أشخاص أستطيع أن أصرفهم في أي لحظة.

ـ من رجالي بقي سبعة. سوف ننطلق بعد يومين. سنمر على كيل أبادا تلبية لدعوة شيخهم كما اتفقنا. ثم نمضي إلى دياري. المسافة من كيل أبادا قريبة. أريد أن أستضيفك إلى الأبد. ما رأيك؟

ضحك أخواد وفضحت عيناه سعادة وطيبة لا حد لها. ثم قال :

ـ حبذا لو أستطيع البقاء إلى الأبد. ولكن الإنسان في هذه الدنيا مقيّد بحزمة من الظروف. وإلا فمن يكره أن يبقى بجوار الشيخ غوما؟

ـ بارك الله فيك. سوف نستعيد ذكرياتنا أيام الشباب عندما كنّا نتصارع، ونتنافس في صيد الغزلان. أتذكر ذلك الربيع السخي في وادي الجعيفري؟ أتذكر مزارع الكمأ في الحمادة الحمراء؟

ـ طبعاً أذكر. وهل هذه سنوات تنسى؟ ليتها تعود يا شيخ غوما؟ ثلاثة أرباع حياتنا مغمورة في الذكريات.. مدفونة في الماضي.. إنني على استعداد لأن أقايض لحظة واحدة من تلك السنوات المدهشة بالسنوات الباقية من عمري. سأتمرد على قيدي وأمكث في ضيافتك ما تسمح به مسؤولياتي.

تلألأت عيناه بالدموع فسارع يسحب اللثام على عينيه.

جاء آهر بالدور الأول من الشاي.

رشف الشيخ غوما وقال وهو يمط شفتيه:

ـ هذا شاي حقيقي. لم أذق طعماً لمثله منذ زمان. آخر مرة كانت في الجبل من يد المرحوم جبور.

ساد صمت ثقيل.

قال أخواد:

ـ ولكن لم تخبرني يا شيخ غوما. ماذا سنفعل بالأسرى؟

فكر غوما قليلاً قبل أن يعلن:

ـ عليكم بتسليمهم لشيخ آهجار كي يبادلهم بأسراه. هذا أقل ما يمكننا أن نفعله له في مصيبته الكبيرة. لقد كنا سبباً في ذلك.

ـ مصيبته مصيبتنا وهو لم يفعل إلاّ الواجب.

ـ ربما استطاع أن يساوم بهم سلطات الفرنسيس في الجزائر لعقد هدنة تمكنه من التقاط أنفاسه.

ـ معك حق.

ساد الصمت مرة أخرى.

راقب غوما الشباب وهم ينهمكون في سلخ الكبش. بدأت عتمة الغروب.

عاد أخواد يقول:

ـ الحق أن ثمة موضوع آخر أريد أن أفاتحك فيه.

رمقه غوما بنظرة مستفهمة. اعتدل أخواد في جلسته قبل أن يقول بلهجة مترددة:

ـ الأمر يخص أماستان.

انتفض غوما:

ـ لا أريد أن أسمع بهذا الاسم. كفى!

ـ قليلاً من الصبر. أعتقد أنه نال ما يستحق وربما أكثر. وهو يريد أن يقضي بقية أيامه في هدوء بجوار قبر المرحومة أمه.

قال غوما في عناد:

ـ أمه؟ لقد قتل أمه. إنه مجرم وخائن. إنه لعنة تلاحقونني بها. قل لي. لماذا لا تلحقوه بالفرنسيس وتسلموه لشيخ آهجار كي يقايضه بالأسرى أسوة ببقية الجنود الفرنسيس؟ إنه واحد منهم.

ـ استغفر الله.

ـ لماذا تستغفر الله؟ لم أقل سوى الحق. الله حسيبي. إنه واحد منهم..

خيم صمت قصير قبل أن يقول أخواد وهو يعتدل في جلسته:

ـ لقد دفع ثمن الخيانة مضاعفاً. وهو الآن جثة. مجرد جثة على قيد الحياة. اعتبره جثة تتنفس وتسعى في الأرض. لن يكون أكثر من ذلك بعد العار الذي لحق به. ثم أين تريده أن يذهب؟

هب الشيخ غوما واقفاً في حركة مفاجئة. قال غاضبا:

ـ نعم جثة. ولكنها جثة كريهة الرائحة يا شيخ أخواد!جثة عفنة! هل تريد أن

أؤوي في دياري جثة تفوح بالعفن؟

ثم هجم على إناء الماء ودلقه فوق النار. توجعت النار بفحيح غريب. ثم مشى عبر المنحدر بخطوات واسعة.

إنه يغرق النار بالماء دائماً عندما يكون غاضباً.

قال الشيخ آهر وهو يقدم كأس الدور الثاني من الشاي إلى أخواد:

- إنه عنيد كالطفل.

- دعك منه. قلبه أرق من عصفور. سوف أقنعه!

قال أخواد ذلك وتمدد على الأرض. مسنداً رأسه بذراعه، متابعاً خطوات الشيخ غوما وهو يهبط المنحدر.

ثم شرع يرشف من كأس الشاي بهدوء.

(٢٦)

مكثوا في غات بضعة أيام أخر بعد أن شيعوا الأسرى برفقة خمسة مقاتلين من القبيلتين. وكان الشيخ غوما في هذه الفترة يشكو كالطفل ويتضرع للشيخ آهر أو أخواد أن ينقذوا الشاي من أيدي الشباب. وكلما رأى الشباب قادمين نحو الخيمة مع هجوم المساء يقوم ويلكز آهر أو أخواد بمرفقه ويتضرع باكيا: «إنهم قادمون! سوف يهجمون على أدوات الشاي! لقد استغلوا مرضي طوال الأيام الماضية وسقوني بول الإبل حتى شبعت. خبئوا أدوات الشاي من أمامهم! أنقذوا الشاي من أيديهم! أنا لا أستطيع أن أطعن في كفاءتهم في القتال. ولكن لا يستطيع أن يتقن الشاي من لا يتقن العشق! تستطيعون أن تسألوا زوجاتهم إن كنتم لا تصدقون». وكان أخواد يتلوى كاتما الضحك. حتى إذا انصرف الشباب انفجر في ضحكة مجلجلة طويلة. يستطيع الشيخ غوما أن يمتنع عن الأكل ويصوم عن الطعام أياماً كاملة مفلسفاً ذلك بأنه مفيد للمعدة ومقو للعضلات ولكنه لا يستطيع أن يبقى يوماً واحداً بلا كأس من الشاي الصيني الأخضر. عندها يصيبه الصداع والدوار ويهاجمه المرض حتى يلزم الفراش. ولذا فإنه يحرص على أن

يتزود بالشاي قبل أي زاد آخر في رحلاته. يحتسي الدور الأول والثاني في الصباح، وثلاثة أدوار بعد الظهر، أما في المساء فيمكث الوعاء يئن فوق الجمر لوقت متأخر من الليل حتى يغلبه النعاس ويذهب لينام. إنه يعبد الشاي المركز المتقن الصنع ويعتبره دواء لكل الأمراض.

وقد حرص، منذ تعافى وعادت الحياة ليده اليمنى، أن يبعد أدوات الشاي عن يدي الشباب الذين اعتبرهم قد ساهموا في مرضه بسبب ما يحضرونه له من صنوف الشاي الرديء! فيلجأ مع أخواد وآهر إلى القرعة حتى جاء موعد مغادرتهم للواحة.

لم ينس الأهالي، في ذلك اليوم، أن يشيعوهم بما يستحقون من الزغاريد والأهازيج وضجيج الطبول والمزامير.

اتجهوا شمالاً، ثم غرباً، إلى كيل أبادا تلبية لدعوة شيخهم. بعد مسيرة ثلاثة أيام توقفوا في واد كبير مكتظ بالطلع والسدر والنباتات القصيرة المتشبثة بالأرض.

أطلقوا سراح الجمال ترعى بين الأشجار تلتهم الأعشاب البرية في نهم. استعانوا بالقرعة في تحضير الشاي. كانت من نصيب آهر مرة أخرى.

تمتم آهر أمام أنفه حانقاً: «هذا سحر. هذا ليس عدلاً. الشيخ غوما يقرأ عليها التعاويذ الخفية من كتبه. هذا لا شك فيه». في حين وقف غوما وأخواد يتضاحكان ويتفرجان عليه وهو يمضي عبر العراء ويلتقط الحطب دون أن يكف عن ترديد اللعنات على حظه التعس. غرقت الشمس الغاربة في مظاهرة من اللون الأرجواني القاني.

انطلق غوما يجلب الحطب أيضاً في حين قام أخواد يسحب وعاء ويبدأ في عجن الدقيق استعداداً لتحضير خبز الملال.

هب نسيم المساء المنعش.

الشمس الغاربة جرجرت خلفها ذيول الصهد والحر فتنفست الصحراء الصعداء بعد أن تراجع جلادها الأبدي خلف الأفق!

أشعل غوما ناراً هائلة شق دخانها عنان السماء.

قال أخواد وهو يغرس يديه السمراوين في الدقيق الأبيض وينهمك في العجن بحماس:

- ما حاجتك إلى هذه النار؟ ليس لدينا لحم نشويه. في غات التهمنا قطيعاً كاملاً. شبعنا من اللحم. في بطوننا مخزون يكفي لسنوات. هل تريد أن تجعل من ليل الصحراء نهاراً بالقوة:

قال غوما وهو يلقي بالمزيد من الحطب في الموقد الهائل:

- سوف ترى؟ سنتبارى في لعبة القفز كأيام زمان. أريد أن أتأكد بنفسي مما يقال ان الصبية الحلوة التي تزوجتها أخيراً لم تمتص شبابك حتى النخاع. سوف نرى يا شيخ أخواد ماذا صنعت بك تلك المرأة. إن مصارعة الصبايا في الفراش أمر صعب.

جلجل أخواد بالضحك في حين أضاف غوما بنفس اللهجة الجادة:

- الشيخ آهر سوف يتولى التحكيم. ما رأيك يا شيخ آهر؟

ظل آهر صامتاً منشغلاً بغسل أدوات الشاي والاعتناء بالنار التي أوقدها في الجهة الأخرى على بعد خطوات من الأمتعة وقرب الماء الملقاة على الأرض. انحسر لثامه عن وجهه فظهر حاجباه المعقودان على جبينه. ما يزال حانقاً.

قال أخواد مازحاً:

- والله يا شيخنا لم أذق طعماً لشيء ألذّ من الصبايا. أنا معك في أن ترويضهن في الفراش أمر يحتاج إلى أقصى درجات الجهد واليقظة ولكن رحيقه، يا شيخ غوما، بلسم الحياة. أنصحك أن تختطف لك واحدة قبل أن تبلغ الستين وتزحف عليك الشيخوخة. أنت الآن في السن المناسب. أراهن أنك تتوق لمعاشرة صبية جامحة كالفرس!

غرقا في الضحك معا. ضحك آهر أيضاً.

ولكن غوما ابتلع ضحكته فجأة. وضع يديه حول خصره وقال وهو يراقب الأفق

الأرجواني الذي خفته الشمس بعد غيابها:

- رحمه الله. الشيخ جبور قال لي ذلك أيضاً. بل هذا كان آخر ما نطق به، هل تعلم؟ إنني لا أستطيع أن أصدق أني فقدته إلى الأبد. رحمه الله.

ثم التفت إلى النار وعاد يطعمها بالحطب.

ساد صمت. تواصل الصمت في سكون الصحراء المهيب كالموت.

ولكن حشرجة النار وهي تبتلع الحطب استمرت.

اقترب أخواد من الموقد الهائل يحمل الصحن الخشبي وقرصاً كبيراً من العجين يرقد في الصحن.

صاح غوما:

- ابتعد بخبزك من هنا. نار الخبز هناك أمام الشيخ آهر.

عاد أخواد بالصحن نحو الشيخ آهر مبتسماً. ولكن آهر صاح فيه مقلداً لهجة غوما:

- ابتعد بخبزك من هنا. العجين سيفسد نكهة الشاي. نار الخبز هناك أمام الشيخ غوما.

وقف أخواد لحظات حائراً. ثم انفجروا بالضحك جميعاً في وقت واحد.

قال أخواد وهو يضع الصحن بجوار آهر ويخطو نحو غوما:

- لن أصنع لكما خبزاً بعد اليوم. سوف نرى من سيجوع بعد قليل. سوف يضطر للقيام بإعداده بنفسه. سأريكما.

قال غوما وهو مستمر في الضحك:

- لست أنا، أنا لن أجوع، أنا أتحاشى أن أتعشى بالليل. عشائي هو كأس جيد من الشاي الأخضر. ولكن لا أعرف كيف ستسير الأمور مع معدة الشيخ آهر. إنه رجل أكول!

واستمر يتلوى، بجوار النار، ضاحكاً.

اقترب أخواد ومدّ أمامه ذراعه النحيلة الملوثة ببقع الدقيق وقطع صغيرة من العجين. قال:

- هيا! جرب! سوف نتبارى بلعبة الأذرع أولاً. سنرى إن كانت صبايا الثامنة عشرة داءً أم دواء!

أطبق غوما على ذراعه بأصابع يده متسائلاً:

- يجب أن نتفق على قانون اللعبة: هل يقضي القانون بنزع اليد مرة واحدة أم يجيز المحاولة؟

- مرة واحدة. المرة الأولى فقط.

- حسناً. أنا على استعداد. تستطيع أن تحاول انتزاع يدك!

أفلتت صرخة هائلة من صدر أخواد وهو يقفز في الهواء وينتزع يده من قبضة غوما.

قال وهو يلهث:

- هل رأيت؟ لقد قلت لك: عليك بالتسليم فيما يخص الصبايا، إنهن لا يهبن إلا القوة. وكل ما سمعته هو مجرد أساطير!

ضحك غوما وتمتم:

- سنرى. سنرى. اللعبة بدأت ولم تنته بعد. العبرة بالنتيجة. الآن سنجرب القفز. سأبدأ أنا.

ثم شرع يعد خطواته متجهاً نحو النار التي ظلت ألسنتها تتلوى في الهواء كرؤوس الثعابين.

قال وهو يستعد للقفز:

- خمس خطوات تكفي؟

ـ كافية. إنني أشفق عليك يا شيخنا.

ـ سوف نرى من منا أحوج للشفقة. أنا أم أخواد الذي لا يمل معاشرة الصبايا. كم صبية تزوجت حتى الآن؟

ولكنه لم ينتظر الجواب. جاء يعدو كالريح وقفز فوق النار حتى ظن آهر أن النار ابتلعته. تجاوزها بشبرين.

هتف أخواد:

ـ هذا رائع. أمامك فرصة كي تتزوج صبيتين على الأقل.

ثم جاء يجري نحو النار. قفز برشاقة أيضاً ولكن جمرة لسعت قدمه الحافية فشرع ينتفض في حين غرق غوما وآهر في الضحك.

قال غوما وهو يختطف حجراً من الأرض:

ـ حسناً. سوف أمنحك فرصة أخرى. يقال ان تأثير الصبايا على البصر أقوى! الصبايا تدمر البصر قبل أي شيء آخر!

واستدار يمشي عبر العراء حتى غاب في عتمة المساء.

عاد وهو يقول بمرح:

ـ هل تستطيع أن تصيبها من هنا؟ هذا امتحان عسير يا شيخ أخواد. هذا امتحان لا يقارن بترويض بنات الثامنة عشرة في الفراش.

تناول أخواد بندقيته من بين الأمتعة المكومة بجوار آهر وقال وهو يصوب:

ـ ولكن الدنيا ظلام. إنني لا أرى شيئاً.

ـ حاول. عليك أن تعصر عينيك إن كان فيهما بقية من أمل. كم مضى من الوقت وأنت بعيد عن زوجتك الشابة؟

انطلق الدوي يخرق سكون الموت في الصحراء ولكن الحجر ظل منتصباً.

ضحك غوما وهو يتناول البندقية:

ـ الآن سأريك كيف يعالج الأمر. يدي اليمنى ما زالت تؤلمني ولكني سأريك برغم ذلك. صوب غوما واقفاً. انبثق الدوي. تردد صداه طويلاً في الخلاء.

الحجر انشطر إلى نصفين. ولكن أخواد لم يره. مشى كي يتأكد بنفسه وعاد بالحجر المشطور إلى نصفين.

قال وهو يلقي بشطري الحجر قرب موقد النار:

ـ إن عينيك أقوى من عيني صقر. الآن سنجرب لعبة أخرى. ما رأيك بالمصارعة؟

ـ ولكن يدي اليمنى لا تسمح بعد.

لحظتها صرخ آهر:

ـ الشاي. الدور الأول جاهز.

قال غوما وهو يرشف من كأسه واقفاً:

ـ تستطيع أن تجرب المصارعة مع الشيخ آهر. إنه قوي كالجن!

ولكن أخواد، الذي وقف يرشف من كأسه بهدوء، كان يرمقه بنظرة إعجاب. قال:

ـ اليوم أيقنت أنك أمهر قناص في الصحراء الكبرى! إن إصابة الهدف في الظلام البهيم أمر مستحيل.

ابتسم غوما وقال:

ـ هل صدقت أن للبصر دوراً هنا؟ لا تصدق ذلك. قلت ذلك من باب الدعابة! إنني أهتدي للهدف بالإحساس وليس بالنظر المجرد. أستطيع أن أصيب أي هدف يتحرك أو يتنفس في الظلام مهتدياً بالإحساس. بالروح. اعترف أن البصر هنا لا دور له.

رشف كأسه إلى النهاية وقال بنفس لهجة الدعابة:

ـ الآن سنجرب لعبة الحبال. لا بد أن أتأكد حتى النهاية، ماذا فعلت بك

(٢٧)

وصلت قوافل المقاتلين المخيم في عز الظهر. كانت الشمس قد بلغت ذروة طقوسها اليومية: تشوي الأرض وتقلي الأحجار وتنفث ألسنة النيران المتسكعة عبر السهول الجرداء.

ترجلوا عن المهاري وشقوا طريقهم عبر مجاميع الرجال والنساء والأطفال، يقودون جمالاً أخرى مسرجة ولكن السروج نفسها فارغة.

علت الزغاريد، ودقت الطبول وارتفعت حناجر النساء بالأغاني.

انهمرت العيون بالدموع أيضاً.

دموع حارة تنبثق بغزارة، حزناً على السروج الفارغة، على أولئك الذين تخلفوا هناك، ولن يعودوا أبداً.

أمغار كان يقف هناك أيضاً.

وعندما رأى أخنوخن يترجل عن جمله ويقود خلفه جمل أبيه المسرج سرت فيه رعشة، وشعر بضعف مفاجيء، اصطفقت رجلاه وغالب السقوط. في الصف المقابل شاهد أمه واقفة بين الجموع والدموع تتسلل من عينيها وتختفي وراء لحافها. تداري دموعها بلحافها. فعرف أن السرج الفارغ لن تملأه حتى المعجزة. سيظل فارغاً إلى الأبد.

ظل واقفاً حتى تدفقت الدموع الحارقة من عينيه أيضاً.

ولكن الزغاريد لم تتوقف.

دموع الحزن امتزجت بدموع الفرح في لعبة الحياة الفوضوية.

أمغار بلغ العشرين، وأخنوخن يكبره بعام. وقد اشتعلت بينهما حرب المنافسة في الاستيلاء على قلب زارا منذ سنوات.

قبل أن يبرز صدرها، ويتكور نهداها، ويتمايل ردفاها في مشيتها، وتشق قامتها عنان السماء. قبل أن تفعل بها شمس الصحراء ما تفعله بالكمأ الذي يشق الأرض فجأة كالعفريت ويطل برأسه بين ليلة وأخرى ويرتفع فوق الأرض وينضج في عمائم كبيرة في حجم ضلفة الرحى! زارا الآن صبية، عروس، امرأة.

قال له أخنوخن قبل أن يسافر للاشتراك في حرب غات عندما التقى به أمام بيتها في آخر الليل: «إنها حائرة في الاختيار بيننا. إنها حساسة وشقية ولا أريد أن أكسر قلبها وأجبرها على ما لا تريد. إنني أعشقها وأنت كذلك. وإذا استمرت في التردد فليس أمامنا إلاّ أن نبتعد عن طريقها».

ما زال يذكر صوت أخنوخن المخنوق عندما قال: «سنفعلها معاً. سنذهب إلى البئر معاً. أنت تفهم ما أعني!».

نعم. لقد اتفقا على الانتحار معاً، قفزاً في البئر.

ولكنه الآن لا يفكر في ذلك. يقف مشدوهاً، مشدوداً إلى سرج أبيه الفارغ، وقد انشلت أطرافه وآل جسمه إلى السقوط.

اقتربت منه الزنجية العجوز تجرجر آيس وسألته بلهفة:

- أين سيدنا؟ إنني لا أرى سرج سيدنا الشيخ.

ولكنه لم يجب. شقت طريقها في الزحام واعترضت أخنوخن:

- أين سيدنا؟ إنني لا أرى سرج سيدنا الشيخ.

ربت أخنوخن على رأس الصبي قبل أن يقول:

- اطمئن! ذهب لتلبية دعوة شيخ كيل أبادا مع شيخ الفوغاس والشيخ آهر.

تنفست الصعداء، وتهلل وجه آيس بالفرح في حين غاب أخنوخن في صفوف الزحام يجرجر جمله وجمل أبيه المتوج بسرج مزركش جميل فارغ.

مع العصر، بعد مظاهرة الاستقبال الصاخبة خيّم شبح الموت على المخيم. أطبق هدوء عميق خرس فيه حتى ضجيج الأطفال. في بيت الشيخ جبور ازدحمت طوابير المعزين.

جاء الشيخ خليل وتصدر حلقة الرجال بجوار أخنوخن في الخيمة التي نصبت خصيصاً لتلقي التعازي، في حين تزاحمت النساء في الخيمة الأخرى. ولكن الصمت الشامل استمر يوحي بالموت ويخبىء الفجيعة ويخفي ألماً مكتوماً على أولئك الذين غابوا ولن يعودوا.

خيم مأتم الصمت على المخيم ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع طلبه أخنوخن على انفراد. تواعدا عند البئر مساء.

خلف الربوة، المطلة على البئر. ارتفع قمر باهت، ومن الشمال هبت نسمة منعشة مشبعة بالبرودة.

بعد قليل جاء أخنوخن وتقرفص بجواره. عدل لثامه فوق رأسه وقال وهو يغرس كلتا يديه في الرمال الباردة:

ـ ما حدث سيقلب خطتنا رأساً على عقب. لم نجرؤ على تنفيذ ما اتفقنا عليه بعد أن ثكلت أمنا في أبينا. إذا فجعت فينا أيضاً فإنها ستجن لا محالة.

قال أمغار وهو يرمقه من تحت لثامه عبر ضوء القمر الشاحب:

ـ اطمئن. خطتنا لم تعد قائمة منذ زمن.

ـ لماذا؟ هل تحدثت مع زارا أثناء غيابي؟

ـ نعم.

ـ هل أخبرتك بجديد؟ هل اتخذت قراراً أم لا زالت تصر على التزام الصمت؟

ـ أعتقد أنها تميل إليك.

لمعت عيناه ببريق خاطف قبل أن يتساءل بحماس:

ـ هل أنت على يقين؟

تمهل أمغار قبل أن يجيب:

ـ يخيل لي ذلك. لا أستطيع أن أجزم. إنها صموتة وخجولة وتخشى المجهول.

تتحاشى التصريح.. من الصعب أن تنتزع منها اعترافاً واضحاً. عيناها المفجوعتان تخفيان كل شيء.

- هذه طبيعتها. إنها رقيقة كالطفل.

- وهي ليست المرأة الوحيدة في العالم على أي حال.

- بالنسبة لي هي الوحيدة.

ساد صمت.

قال أمغار وهو يعبث بالتراب:

- إنني أنسحب.

- أرجو ألا تفعل ذلك من أجلي.

- لا.

- هل هذا قرار نهائي؟

- نعم.

نهض أخنوخن عائداً إلى البيت في حين بقي أمغار راقداً على الرمال مقرراً أن يقضي ليلته في العراء.

سأله أخنوخن قبل أن ينصرف:

- هل ستذهب إليها؟

حدّق فيه أمغار طويلاً قبل أن يعلن بتصميم:

- لا.

في الطريق إلى البيت قابل آيس وهو يعقد سرواله بعد أن قضى حاجته في العراء. ربت على كتفه وداعب شعر رأسه الحاسر ثم سأله:

- قيل لي أن زارا أخذتك معها إلى المرعى أثناء غيابي. هل هذا صحيح؟

ـ نعم .

تردد قبل أن يلقي سؤالاً آخر :

ـ ألم تقل لك شيئاً بشأني؟ بلغني أنها تودعك أسرارها .

هزّ ايس رأسه علامة الموافقة ثم ضحك بخبث :

قال أخنوخن في لهفة وهو يهز الصبي من كتفه :

ـ إذن فقد صرحت لك شيئاً بشأني . اعترف!

ـ نعم .

ـ ماذا قالت؟

ـ لا أستطيع . هذا سرّ بيني وبينها .

ـ هل تحبني؟ هل صرحت بأنها تحبني أم تحب أمغار؟

ـ لا أعرف .

ـ أنت صبي خبيث!

ـ لا أستطيع أن أبوح بأسرارها . لقد وعدتها . هذا سرّ بيني وبينها .

ـ يا لك من خبيث!

(٢٨)

أمضى الشيخ غوما أربعة أيام في ضيافة كيل أبادا ولكنهم لم يأتوا على ذكر أماستان أبداً . وعندما رافقهم شيخ القبيلة منفذاً واجب وداع الثلاثة أيام انتهز فرصة انشغال أخواد في حديث ممتع مع آهر وقال للشيخ غوما على انفراد : «أستطيع أن أتصور كم عانيت حتى تفعل به ما فعلت . ولكن الله يعلم أننا لم نكن

نريد له هذا المصير المشووم إكراماً لك أنت » . ولكن الشيخ غوما لم يعلق بكلمة.

ودعهم الرجل وسلموا أمرهم للخلاء .

أمضوا ليلتهم الأخيرة على مسافة قريبة من المخيم. لكي يتمكنوا من الوصول في النهار. في صباح اليوم التالي، عند الأصيل، أشرفوا على المخيم. استقبلهم الشيخ خليل أولاً. ترجلوا عن المهاري وغرقوا في مظاهرة الاستقبال الشاملة التي أتقن الأهالي إعدادها واستمرت صاخبة حتى منتصف الليل.

حرصوا أن يكون مهرجاناً فريداً.

تذكر الشيخ غوما استقبالهم له منذ سنوات عندما عاد من الواحة بعد غياب طويل. ارتمى آيس في أحضانه فأخذه وأجلسه على السرج وقاد المهري عبر صفوف الرجال والنساء الذين تجمهروا لاستقباله.

توجه أخواد وآهر إلى خيمة مجلس الشيوخ في حين شق غوما طريقه إلى بيت الشيخ جبور. لم يكن أحد في البيت فوقف في المدخل. جاءت زوجته بعد لحظات. فرشت كليماً فاخراً فجلس يداعب آيس.

جاءته بالحليب وقالت:

ـ سلامتكم كبيرة يا سيدنا الشيخ.

قال وهو يضع إناء الحليب أمامه:

ـ ولكنها لم تكتمل. سلامتنا ناقصة كما ترين. لقد فقدت ساعدي الأيمن في هذه الحرب.

سحبت لحافها على وجهها والتزمت الصمت.

أضاف قائلاً:

ـ ولكن يبدو أن الحرب لا تشتعل إلا لكي تلتهم أشجع الرجال.

تمتمت:

ـ لا مفر من إرادة الله. هكذا أراد .

ـ مصابك مصابي، وأبناؤك أبنائي.

ـ الله يبارك فيك يا سيدنا الشيخ. لم أشك في ذلك أبداً.

ثم قال وهو ينهض:

ـ لن تحتاجي لشيء أبداً ما دمت على قيد الحياة.

نهضت أيضاً ولكن لحافها ظل مسحوباً على وجهها.

وقف لحظات مطأطىء الرأس ثم انصـــرف يقـــود آيس من يده دون أن يصافحها.

مرّ على البيت فاستقبلته زنجيته العجوز باكية. احتضنت يده الممدودة لمصافحتها بكلتا يديها وركعت كأنها تلثمها. قالت من بين دموعها:

ـ خلفت لنا فراغاً هائلاً. الدنيا بدونك لا تساوي حفنة من الرمال. كدنا نموت من القلق.

ظل واقفاً يعبث بشعر الصبي في حين أضافت وهي تمسح دموعها بطرف لحافها:

ـ آيس كاد يموت من الشوق. كل ليلة في سيرتك، يحلم بعودتك وباليوم الذي سيبدأ فيه تعلم القراءة والكتابة والقرآن. ولا يمر عابر سبيل إلاّ ويحاصره بالأسئلة متسقطاً أخباركم.

تمتم وهو يتوجه إلى خيمة مجلس الشيوخ:

ـ لا يمكن أن يجتمع الناس في لقاء دائم. هناك فراق أيضاً.

ثم وهو يربت على كتف آيس:

ـ أنت ستبقى هنا الآن. لدينا ضيوف يجب الاعتناء بهم.

في الطريق إلى الخيمة تعالى الضجيج وارتفعت الحناجر بعاصفة من الزغاريد.

في الخيمة عبقت رائحة الشاي الصيني الأخضر. كانت نكهته زكية.

أخذ مكانه بجوار الشيخ أخواد فوق كليم فاخر وقال يداعب الشيخ خليل الذي يشرف على تحضير الشاي:

. هذا شاي فريد يا شيخ خليل. لقد شممت رائحته على بعد خمسين خطوة من هنا. من أين حصلت عليه بالله؟

ابتسم أخواد وقال خليل:

. بمحض الصدفة. قايضته بمعزاة مع تاجر من التبو مرّ علينا قبل أيام. هذه مجرد صدفة. أنا لست خبيراً في أنواع الشاي مثلك.

. هذا شاي جيد. آه يا شيخ خليل لو ذقت الشاي الذي سقوه لنا في غات! إنه كفيل بأن يجعلك طريح الفراش إلى الأبد!

جلجل أخواد بالضحك وابتسم آهر الذي قال معقباً بخبث لكي يستدرج غوما إلى مداعبة الشباب:

. هل يكمن الداء في نوع الشاي أم في أولئك الذين أشرفوا على تحضيره؟

قال غوما بلا تردد:

. في كليهما. لا خير في كليهما. ليس أسوأ من الشاي نفسه إلاّ الأيدي التي أشرفت على إعداده. آه يا شيخ خليل لا أراك الله شاياً كذلك! هل تعلم أن الشاي في غات أسوأ من حرب غات نفسها؟ لقد عذبنا الشاي أكثر مما عذبتنا مدافع الفرنسيس!

ضج الشيوخ بضحكة جماعية طويلة في حين ظلت ملامح غوما جادّة كعادته عندما يخص الأمر الشاي.

أحكم لثامه فوق أنفه وأضاف:

. أنا رجل مدمن، ولا أستطيع أن أشرب أي شيء يقدم لي على أنه شاي كما فعلوا معي في غات. سامحهم الله على أي حال وغفر لهم الذنوب التي ارتكبوها في حقنا.

عاد الشيوخ يضحكون، وعلت ضحكة أخواد المجلجلة حتى طغت على صخب

المزامير والطبول في الخارج.

عاد غوما يقول:

- أرجو أن تكون قد حضرت لنا مهرجاناً ممتعاً يا شيخ خليل. لقد شبعنا من الزغاريد والطبول والمزامير في غات. ولا أعتقد أن حناجر نساءنا يمكن أن تنافس حناجر نساء غات قوة وصفاء. نريد أن نحتفل بالشيخ أخواد بمهرجان يليق بمقامه.

قال خليل وهو يقدم الدور الأول من الشاي في صينية جميلة مزخرفة من النحاس:

- كل شيء جاهز يا شيخنا. سنبدأ مع العصر.

رشف غوما من الكوب الزجاجي الصغير المتوج برغوة كثيفة. قال وهو يمط شفتيه:

- آه... هذا شيء آخر. هذه نكهة إلهية. هذا شاي لم أشرب ألذ منه. سبحان الله ما ألذه! سوف تعيرني منه حفنتين يا شيخ خليل. سأظل وراءك حتى انتزع منك نصيبي. هذا إذا لم أتسلل إلى بيتك في الليل وأستولي على الكمية كلها التي اشتريتها من ذلك التاجر التباوي اللعين. هذا ليس شاياً. إنه سحر! بلسم الحياة الذي يشفي أمراض الروح وآلام الصحراء، أليس صحيحاً ما أقول يا شيخ أخواد؟

قال أخواد وهو يكتم ضحكته:

- لست خبيراً مثلك يا شيخ غوما. إنك تتحدث عنه كأنك تتحدث عن صبية حسناء!

- صبية حسناء؟ ليس في رأسك إلاّ الصبايا والحسان! الحق أني لا أخبرهن كما أخبر الشاي! الخبرة في الحسان أتركها لك أنت يا شيخ أخواد. بل لقد تركتها من زمان وانتهى الأمر!

ثم ملتفتاً إلى خليل الغارق في الضحك:

- هل تعلم يا شيخ خليل أنه يشبه كل شيء بالحسان؟ إذا رأى غزالة شاردة

قال عنها: «إنها هيفاء، رقيقة، كحسناء!» وإذا رأى شجرة طلح وحيدة في الخلاء هتف: «أنها باسقة متكبرة، متوردة الوجنتين كحسناء خجول!» وإذا رأى ثعباناً يزحف على الرمال قال عنه: «إنه إنسيابي، ناعم، كحسناء!». لم أر رجلاً يتجرأ على أن يشبه الثعابين بالحسان إلاّ أنت يا شيخ أخواد. إن الحسان سوف يسلبن عقلك والله!

استمروا يتلوون من الضحك. قال آهر وهو يمسح دموعه:

- لقد أضحكتنا يا شيخ غوما. اللهم اجعل العاقبة خيراً. لا يجوز أن نضحك هكذا. هذا أكثر مما يجب. إن رئتي تتمزق.

ولكن غوما أضاف بنفس اللهجة الجادة:

- اليوم لديك الفرصة في أن تتمتع بمشاهدة الحسان في المهرجان إن شاء الله. ربما اخترت شابة أخرى من قبيلتنا تضيفها إلى قائمة زوجاتك. اقترح عليك أن تتزوج من كل قبيلة فتاة كما يفعل القادة العظام في التوحيد بين الشعوب والقبائل. سوف أنادي بك، عندها، زعيماً على الصحراء الكبرى كلها.

مسح أخواد الدموع من عينيه بظهر يده وقال محاولاً أن يسيطر على نوبة الضحك:

- والله لا يصلح زعيماً على الصحراء الكبرى سوى رحالة باحث عن الحقيقة مثلك يا شيخ غوما.

- هذا كان أيام زمان. أيام الشباب والحماس في البحث. وأنا لا أصلح لهذه المهمة طالما تشترط الزواج من امرأة من كل قبيلة. هذا شرط تعجيزي بالنسبة لي. المؤهل الوحيد لذلك حتى الآن هو أنت وحدك!

عاد أخواد يقهقه ثم تمتم من بين أنفاسه المتلاحقة:

- استغفر الله. لقد غلبتني، لا أستطيع أن أحاورك. لقد قتلتنا بالضحك!

في الخارج استمر الصخب.

استلقى غوما مسنداً رأسه بيده وقال مغيراً الحديث:

ـ ماذا بشأن ذبيحتنا يا شيخ خليل؟ أرجو ألآ تعتمد على ضعف ذاكرتنا . إننا لم ننسها .

ثم ملتفتاً إلى أخواد :

ـ لقد أكل الكلية يا شيخ أخواد . هل تصدق أنه التهم الكلية في المرة الماضية قبل سفرنا؟ لقد ادعى ان الشيطان هو الذي دسها له في حلقه . هل تصدق هذا؟

قال أخواد ضاحكاً :

ـ هل هذا صحيح يا شيخ خليل؟ هل أنت غشيم إلى هذا الحد؟

تشبث خليل بالصمت في حين أكد غوما :

ـ نعم . هو غشيم . هذا كل ما في الأمر برغم أنه لا يريد أن يعترف بذلك ويلقي المسؤولية على كاهل الشيطان الرجيم لعنه الله . الشيطان بريء من هذا العمل المشين براءة الذئب من دم يوسف . اعترف يا شيخ خليل بأنك غشيم وهات لنا ذبيحتنا . ما رأي الجماعة؟

هز الشيوخ رؤوسهم بالموافقة في حركة جماعية وهم يتضاحكون . قال خليل :

ـ ما أكثر الذبائح اليوم . إن المخيم غارق في الذبائح اليوم منذ الصباح .

اعترض غوما :

ـ لا . ذبائح اليوم لا دخل لها . ذبائح اليوم لا تدخل في الحساب . سوف نلتهم ذبيحتك في يوم آخر .

صمت لحظة ثم أضاف وهو يعتدل في جلسته ويحكم لثامه على رأسه :

ـ رحم الله الشيخ جبور . كان معنا في ذلك اليوم . إنني أذكره في ذلك اليوم كأنه أمامي الآن .

ساد الصمت .

في الخارج استمر الصخب .

ـ ولكن خبرتك في القتال تغفر لك يا شيخ أخواد . لا أعرف ماذا كان سيحدث في ذلك اليوم عند مصرع الشيوخ جبور لولا تدخلك في اقتحام القلعة . يبدو أن الصراع مع الصبايا في الفراش يساعد في الصراع مع الأعداء!

استمر الفرسان يتعاكسون في انسجام بديع عند حلقة النساء مثنى وثلاث ورباع .

قال خليل وهو يقدم لهم الدور الأول من الشاي :

ـ النساء تدرب على الصبر يا شيخ غوما .

علق أخواد :

ـ هذا صحيح . إن المرأة، يا شيخنا، مثل هذه الصحراء التي تمتد أمامك إلى الأبد . تبدو قاحلة، قاسية، باعثة على اليأس ولكن أعماقها تخفي سحراً وأسراراً وكنوزاً وحياة. واكتشافها يحتاج إلى الصبر والخبرة. هذه حكمة الصحراء وأنت أدرى بها أكثر مني .

هتف غوما مازحاً :

ـ ألم أقل لكم أنه يصر على أن يشبه كل شيء بالنساء؟ ها هو يشبههن بالصحراء! هذا آخر ما توقعت والله .

عادوا يضحكون ويرشفون من أكواب الشاي المتوجة حتى منتصفها بالرغوة .

تمتم أخواد :

ـ الشيخ غوما يحاصرني ويصرّ على استدراجي..ألا يستطيع أحد منكم أن ينقذني من تعليقاته اللاذعة؟

من أقصى الشرق أقبل بعض الشباب يهشون قافلة من الجمال .

بعد قليل بدأت طقوس الصراع مع الجمال. أقبل شاب مكتنز، قصير، يعدو، ممسكاً بذيل جمل هائج، حتى بلغ حلقة النساء فصرع الجمل في حركة بهلوانية بارعة حتى كاد يسقط فوق رؤوس النساء .

قال أخواد :

ـ هذه استعراضات الأعراس. هل تزفون أحداً اليوم؟

انتهز غوما الفرصة وعاد يلسع أخواد بتعليقاته :

ـ لا نزف أحداً غيرك. لقد اتفقنا البارحة على أن نزوجك بصبية من قبيلتنا حتى تساهم في توحيد القبائل. ألا تذكر اتفاقنا؟

جلجل أخواد بالضحك قبل أن يقول :

ـ ولكنني لا أستطيع أن أتزوج امرأة لم أر حتى وجهها.

قال آهر الذي انكب يخطط الأرض بعود من الحطب غير عابىء بطقوس المهرجان :

ـ يجب أن تثق في ذوق الشيخ غوما. إن خبرته القديمة في النساء تفوق خبرتنا نحن الثلاثة مجتمعين. لم تنج منه امرأة في القبيلة في شبابه ولا نساء القبائل المجاورة!

ابتسم غوما معقباً :

ـ هذا كان في الزمان القديم. أما الآن فقد تنازلت عن نصيبي من النساء للشيخ أخواد. إنني مطمئن على مصيرهن بين يديه!

صمت لحظة ينصت للغناء ثم أضاف بلهجة حادة :

ـ لا نزف أحداً ولكن نفعل ذلك استثناء وابتهاجاً بزيارتك. لا نبخل على الرجال أمثالك بالاستثناء!

ثم التفت يتابع تظاهرة الاحتفال عبر السهل التي بدأت تبلغ ذروة الحيوية والحماس في انطلاق عاصفة الزغاريد وضجيج إيقاع التصفيق.

استمرت المهاري تتبختر، وتتهادى، راقصة بكبرياء، غادية، رائحة شرقاً وغرباً حتى انكفأت الشمس نحو الغروب منهية رحلتها اليومية الخالدة.

بدأت المهاري تختفي من ساحة الرقص في مجموعات تركض بسرعة فائقة

كالوهم!

ويحدث أيضاً أن يتجهم النهار مع حلول العصر وتتكاثف رمال كثيفة حول قرص الشمس حتى تحجبه عن الرؤية منذرة بهبوب العواصف المحملة بالأتربة والغبار فيستقر قوس قزح شاحب اللون منشطراً في نصف قطر.

عندما حانت ساعة الرحيل وتأهب غوما لمرافقة أخواد للإيفاء بواجب الوداع اقترح غوما قبل بدء الرحلة:

- ربما كان من الأفضل أن أكلف أحد المساعدين لمرافقتك حتى غدامس.

ولكن أخواد رفض قائلاً:

- وما الداعي؟ إنني أخبر الصحراء كأصابع يدي. ولا حاجة بي لمساعد.

في صباح اليوم الثالث تناولا شاي الصباح عند الفجر.

هنا كان لا بد أن يفترق الطريقان. يواصل أخواد إلى غدامس نحو الغرب، ويعود غوما على عقبيه إلى المخيم نحو الشرق.

الآن يحاول كل منهما جاهداً أن يؤجل لحظة الوداع، أن يبعد شبح الفراق.

قال أخواد وهو ينكب على تثبيت الأمتعة على ظهر الجمل الإضافي الذي تلقاه هدية من غوما لغرض حمل قرب الماء والتموين:

- لدي اقتراح يصعب رفضه.

صمت لحظة ثم التفت إلى غوما، الذي انهمك بدوره في تثبيت السرج على المهري، وأضاف وقد لمعت عيناه ببريق خاطف:

- في الربيع القادم، بعد موسم الأمطار إن شاء الله، سوف نترافق في رحلة لصيد الغزلان في الحمادة الحمراء. ما رأيك؟ لا أعتقد أنك تستطيع أن ترفض اقتراحاً كهذا.

أطلت الشمس برأسها مسلحة بأشعة كأنها مخالب من نار، واعدة بالحر، مهددة بالجحيم. من الشمال زحفت سحب غامضة.

أضاف أخواد في إلحاح طفولي:

ـ هل تستطيع يا شيخنا أن تقاوم عرضاً مغرياً كهذا؟ ثم لا تنس غابات الكمأ التي تطل من الأرض برؤوسها كالعفاريت. إن الحمادة الحمراء في الربيع مزرعة من الكمأ المتعدد الأنواع والألوان والأشكال. شيء مدهش كالخرافة والله.

ابتسم الشيخ غوما قبل أن يعقب:

ـ هذا إذا رحمنا الله بالأمطار في الخريف. لا ينبغي أن نحلم بالكمأ في الربيع ما لم تهطل الأمطار الغزيرة في الخريف.

ـ سوف تهطل. سترى. المنجمون يؤكدون ذلك.

تناول القربة من الأرض. أسندها بركبته اليمنى إلى جانب الجمل ثم شدّها بالحبل الذي وصله بكيس المؤونة المعلق في الجانب الآخر لحفظ التوازن على ظهر الجمل.

قال دون أن يلتفت:

ـ متى ذقت الكمأ الأسود آخر مرة يا شيخ غوما؟

ـ أووه. منذ زمان بعيد. منذ سنين. أكاد أنسى متى بالضبط.

ـ إنه أندر أنواع الكمأ، أندر حتى من الأحمر. ولكننا سوف نعثر عليه في الربيع.

ـ في موسم العام الماضي اشتريت جراباً من قافلة متوجهة إلى تمبكتو، ولكنه كان من النوع الأبيض وفوق ذلك كان مجففاً.

ـ الكمأ إذا جفف فقد نكهته الساحرة، ورائحته الأسطورية. يا ربي لم أشتم رائحة أزكى من رائحة الكمأ! كم هي غامضة كأنها السرّ الإلهي الأعظم!

قال غوما وهو ينتهي من إعداد السرج:

ـ نعم. نكهة غامضة جداً، ككل شيء في الصحراء. غامضة كالصحراء الكبرى نفسها!

ـ آه. كدت أنسى. لدي هنا شيء يصلح لتخليد معركتنا الأخيرة في غات.

أخرج من الجراب الصوفي المعلق في السرج البندقية الملفوفة في قطعة بيضاء من القماش. بدأ يزيح القماش حتى لمع كعب البندقية الذهبي تحت أشعة الشمس، ولمعت الفوهة الفضية أيضاً. قدّمها لأخواد وأضاف:

ـ ما رأيك؟ أعتقد أنها تصلح أليس كذلك؟

تناول أخواد البندقية، وشرع يقلبها بين يديه مبهوتاً، سرت رعشة في أصابعه وهو يتحسس النقوش الرقيقة، والرسوم المحفورة في الفضة، وفي قطعة الذهب الملصقة إلى الكعب. قال دون أن يرفع رأسه:

ـ هذه تحفة! هذه ليست بندقية يا شيخ غوما! هذه تحفة نادرة!

تمتم غوما:

ـ هذه للذكرى بدل بندقيتك التي بلغني أن الصدأ أكلها. المرحوم جبور أخبرني بذلك.

قال أخواد وهو يرفع رأسه عن البندقية لأول مرة.

ـ ولكن هذه ليست بندقية يا شيخ غوما! إنها تحفة! إنها ثروة! ثم إنني كنت أمزح عندما قلت ذلك للمرحوم عندما جاءني بخطابك الأخير من غدامس! تلك كانت مزحة!

ـ أعرف. اعتبر البندقية دعابة أيضاً مني!

ضحك أخواد بعصبية قائلاً:

ـ ولكن هذه دعابة باهظة الثمن يا شيخنا.

ـ إنها ذكرى حرب غات! لولا مساعدتك لما استطعنا اقتحام القلعة خاصة بعد مصرع الشيخ جبور. العطش كان أقسى من قذائف المدافع في ذلك اليوم.

ـ لم أفعل إلاّ الواجب.

ثم عاد يقلب البندقية بين يديه قبل أن يقول:

ـ أعاهدك أن أشترك بها في المعارك القادمة.

ثم ضحك من أعماقه وأضاف:

ـ إن العدو الذي ستصيبه رصاصة من هذه البندقية سيكون محظوظاً يا شيخ غوما. سوف يكون سعيداً وسيذهب إلى الجنة!!

ضحك غوما أيضاً في حين علق أخواد البندقية على منكبه الأيمن.

ساد الصمت.

قال غوما بصوت كالهمس:

ـ الآن يجب أن نفترق. أنصحك بأن تلزم اليمين دائماً. الصحراء الشمالية أكثر أماناً وسوف تؤدي بك إلي آبار الجعيفري. على أي حال أنت تعرف الصحراء ليس أقل مني.. ولكن لابد أن أذكرك من باب الاحتياط.

مدّ يده لمصافحته مرّة أخرى.

غرقا معاً في عناق طويل.

بعدها قفز أخواد فوق السرج وانطلق يجرجر الجمل المحمل بالأمتعة والماء والتموين خلفه. لم يلتفت أبداً.

وقف غوما يراقبه لحظات حتى غاب في ألسنة السراب التي تدفقت منذ الصباح، متلألئة، عبر الخلاء، كمحيط من اللؤلؤ.

تابعه حتى تحول إلى شبح يتمزق، كالفريسة، بين أنياب السراب الوحشية، ويختفي تدريجياً في المتاهة الأبدية.

(٣٠)

في الطريق إلى مخيمات أمنغساتن تعمد أماستان أن يسلك الطريق الغربية، التي تدور حول منتجعات كيل أبادا، محاذراً أن يمر عبر الطريق المعروفة التي يسلكها تجار القوافل وعابرو السبيل والرحل. ولكنه عاد واتجه شرقاً بمجرد أن

تعوّد أن يتحاشى الناس، ودرّب نفسه على العزلة.

لقد دفعه غوما إلى هذا المصير بعد أن انتزع منه ما تبقى له من الكبرياء في ذلك اليوم الذي جرده فيه من ملابسه وجرجره في شوارع غات عارياً.

غوما يراهن على دفعه لأن يضع حداً لحياته بيده دون أن يعلم أنه فقد كل شيء وليس لديه شيء آخر يخسره.

الكرامة؟ الشرف؟

فقد الكرامة، وخسر الشرف منذ أن اضطر لأن يضع يده في يد الفرنسيس. ولم يفعل غوما إلاّ أن قضى على ما تبقى من الكبرياء، فحرره، نهائياً، من أغلال النبل وقيود الواجب وثقل المسؤولية الملقاة على كاهل الرجل الحر.

الحرية هي أن تتعرى مما يراه الناس فيك أخلاقياً. الحرية هي أن تتجرد من تلك الأشياء التي لا يرى فيها الناس أنفسهم.

في غات أشاحوا عنه بوجوههم عندما مشى أمامهم عارياً، فعرف، منذ تلك اللحظة، أنهم إنما يشيحون بوجوههم عن سوءاتهم هم وعوراتهم أنفسهم.

لاحظ الاستنكار في عيونهم بمجرد رجوعه. يتحاشونه، ويشيحون عنه، ويولونه ظهورهم عامدين تجاهله ليس استنكاراً لما ارتكبه من خيانة، ولكن لأنه قتل في نفسه الشعور بالعار الذي يخجلهم من أنفسهم. باتا وحدها كانت شجاعة.

بعد يومين من وصوله بعثت له بطبق من الفطائر والسمن وشرائح اللحم المجفف مع زنجيتها العجوز. كان ذلك عملاً جريئاً من جانبها تجاه رجل مجلل بالفضيحة والخيانة والعار. لم يسبق أن وقعت عليها عيناه في السابق. سمع كثيراً عن حسنها الآسر ولكنه لم يرها. حتى جاء ذلك اليوم الذي قابلها فيه صدفة بجوار البئر.

امرأة خارقة الجمال بالفعل.

بل لم ير امرأة أجمل منها.

كأنها جمعت جمال كل نساء الأرض مرة واحدة.

ابتسمت له ابتسامة خفيفة وحيته بإيماءة من رأسها ومضت تتمايل بردفيها البارزين حاملة إناء الماء على رأسها تتمشى نحو بيتها في كبرياء نافحة خلفها عبيراً خاصاً.

خفق قلبه وانتفض. تذكر ولعه القديم بالنساء مما أكد له خطأ غوما في تقديره عندما راهن على أن يضع بنفسه حداً لحياته بعد فضيحة غات.

غوما يجهل مدى عشقه للنساء.

هو لن يفعل ذلك طالما بقيت امرأة واحدة تمشي على الأرض بين ملايين الرجال. سيعيش من أجلها ويحاول أن ينتزعها من بين أيديهم. سيتشبث بالحياة طالما هناك واحد في المليون من الأمل. إذ ما معنى الحياة بدون امرأة؟ إنها قاسية، موحشة كالصحراء الكبرى.

المرأة هي بلسم الوجود، والدواء الذي يشفي أمراض الروح ويجعل للحياة طعماً.

الحياة تفقد معناها، نهائياً عندما تختفي منها المرأة.

تستحق الحياة عندها أن نضع لها حداً عن جدارة.

ولذلك اتخذ قراراً: سوف أذهب لزيارة باتا بدل تنفيذ رغبة غوما في أن أرفع يدي على نفسي واضعاً حداً لحياتي!

تجرأ وذهب لزيارتها.

استقبلته عند سياج الجريد في عتمة المساء. فرشت له الكليم واختفت في الخباء لحظات قبل أن تعود مرتدية ثوباً أبيض ملتحفة برداء أزرق داكناً تحمل مصباح الكيروسين الذي يبعث بإنارة خافتة.

غرست قاعدة المصباح في الرمل وعادت لجلب أواني الشاي الأخضر.

قالت وهي تنشغل في إشعال النار في كوم الحطب:

ـ نهار اليوم مثل جهنم. مثل كل يوم. يبدو أن صيف هذا العام لن ينتهي أبداً.

فكر في نفسه: «حديث أهل الصحراء لا بد أن يبدأ بالشكوى من الطقس. صيفاً أو شتاء.. ربيعاً أو خريفاً. لو كانت الشكوى تفيد في تحسين الأحوال الجوية لتمتعت الصحراء بالطقس المعتدل طوال العام. ولكنهم وقتها سوف يشتكون من الطقس المعتدل أيضاً».

ولكنه لاحظ قائلاً:

ـ شراسة الصيف تشتد في آخر أيامه دائماً. إنه يستميت ويتصاعد جنونه عندما يبدأ بلفظ أنفاسه الأخيرة. هذا يحدث مع كل الفصول.

سعل مرتين وأضاف:

ـ بل هذا يحدث مع كل شيء في الدنيا. حتى الإنسان يتشبث بالوجود في آخر أيامه.

مروحت النار. ساد صمت قصير قبل أن تقول:

ـ معك حق. هذه حكمة الحياة.

تأججت النار.

راقب ألسنتها الشرسة وهي تلتهم الحطب وترتفع مترنحة في الهواء. دخلت زارا. فوجئت به فسارعت تحكم اللحاف حول رأسها وتغطي وجهها في وجل. مدت يدها الرقيقة تصافحه. جلست بجوارهما لحظات وهي تجيب على تساؤلاته المعتادة حول الصحة والأحوال وجحيم الصيف، ثم انتهزت أول فرصة سانحة ساد فيها الصمت فهبت خارجة كأنها تفرّ هاربة من هذه المواجهة التي لم تحسب حسابها.

أطبق الصمت مرة أخرى.

قالت بصوت متردد:

ـ الحق أنك عانيت كثيراً. قليلون هم الرجال الذين يستطيعون تحمل ما تحملته.

أحس بقشعريرة، ولم يظن أن بمقدورها أن تفتح هذا الباب الذي لن يفضي إلاّ إلى المواجع. إنها جريئة. أجرأ مما توقع بكثير.

تفصد العرق من جبينه واستمر متشبثاً بالصمت شاعراً بالانزعاج، ربما الأفضل أن ينهض الآن وينسحب.

ولكنها أضافت:

ـ لقد استحضرتك أثناء غيابك من خلال زارا. أمك طلبت مني ذلك. ولقد أخبرتها بكل شيء.

قال متلعثماً:

ـ الحق أن الإنسان معرض لكل شيء ما دام يدب على الأرض. الظروف التي تحيط بنا تتحكم فينا، وغالباً ما تدفعنا إلى مصير قد لا يخطر ببال.

ـ هذا صحيح. لقد أسفت على الأم. وكذلك على تارات. إنها لا تستحق هذا المصير الذي ارتضته لنفسها.

ـ في الحياة كل شيء جائز ما دام الإنسان حياً يدب على الأرض.

أحس أن في حلقه سكيناً. آن الأوان لأن ينصرف. ولكنه لم يتحرك، لم يجرؤ. الطعنة تشده إلى الأرض ترى هل فتحت هذا الباب للتنكيل به أم.. أم أنها تفعل ذلك صادقة، من باب المواساة والتعزية وإيجاد المبررات؟

تحامل على نفسه وقال كأنه يدفع بالكلمات دفعاً:

ـ ولكن هذا لا ينفي المسؤولية. الرجل مسؤول عن أفعاله دائماً. إنني لا أتنكر لمسؤوليتي عن طريقي الذي اخترته بنفسي. ولم يدفعني له أحد.

سعل سعالاً مفتعلاً وهو يجمع أفكاره وأضاف:

ـ أقصد دفعتني ظروف معينة. ولكن هذا لا يعني أن أرى الأشياء كما يراها أخي غوما.

تهللت أساريرها بغبطة غامضة وقالت:

ـ هذا صحيح . أنا أيضاً لا أرى الدنيا كما يراها الشيخ غوما .

أطبق صمت قبل أن تعيد كأنها في غيبوبة :

ـ هذا صحيح . أنا أيضاً لا أرى الدنيا كما يراها الشيخ غوما .

ـ وليس من الضروري أن نراها كما يريدنا أن نراها .

ـ هذا صحيح . ليس من الضروري أن نراها كما يريدنا أن نراها .

ـ إنه متسلط ومتكبر وعنيد .

ـ هذا صحيح . إنه متسلط ومتكبر وعنيد .

ـ وفوق ذلك غامض يرى ما لا يرى الناس، ويسمع ما لا يسمع الناس .

ـ هذا صحيح . غامض يرى ما لا يُرى، ويسمع ما لا يُسمع . معك الحق .

صمت فصمتت أيضاً .

بعد لحظة قالت :

ـ أفكارنا متفقة تماماً، ولن يضيرك ما فعله بك في غات، لأن عارك عاره إن كان ثمة عار حقاً كما يدعي هو!

ـ إنه حاول أن يلحق بي العار لأنه سبق وأن تبرأ مني أمام أعيان وشيوخ القبائل قبل بدء المعارك . ولكن هذا لايهمني الآن .

بدأت تمروح الجمر الخابي في الموقد وقالت وهي تشد لحافها على شعرها الغزير :

ـ لقد تقطع قلبي عندما سمعت بما حدث . لم أتصور أن تصل به القسوة إلى هذا الحد .

تشبث بالصمت فأضافت محاولة أن تغير مجرى الحديث :

ـ بلغني أيضاً أنك قمت بزرع حبات النوى في قبر تارات . ولا أستطيع أن أتصور كيف تقطع هذه المسافات البعيدة إلى مقابر كيل أبادا لتسقي نوى التمر

فوق قبرها.

خفق قلبه مرة أخرى وعاد العرق يتصبب على جبينه. إنها امرأة مدهشة. جريئة. ذكية. فاتنة. ضرباتها مفاجئة. غير متوقعة. مواجهتها تستدعي جرأة مضادة..

قال بصوت مضطرب:

- من يحب يفعل المستحيل. لا بد أن أجعل النخيل ينمو فوق قبرها. سوف يكبر النخيل، ويظلل رفاتها من لهيب الشمس، وستصد غابة النخيل عنها عواصف الرياح في مواسم القبلي، وسيلجأ إليها الناس أيضاً، لأن الغابة، مع مرور السنين، سوف تتحول إلى واحة. ولن تكون تارات وحيدة.

شعر بغصة في حلقة فسكت.

بلع ريقه وأضاف:

- لقد قطعت شريان يدها بسببي. حاولت إنقاذها ففشلت. فضيعتها وضيعت نفسي. إنها رقيقة كنسيم الصيف في ليالي الصحراء. ناعمة كغزالة شاردة في البيداء. نقية كالطفل. أنت لا تتصورين أي ملاك هي..

تهدج صوته فسكت مرة أخرى.

أطلت الزنجية برأسها في المدخل تحمل طبقاً تفوح منه رائحة خبز التنور.

شدّت اللحاف على رأسها المغطى بالشيب المجعد ومدّت يدها لمصافحته.

تبادلت معه الأسئلة المتكررة حول الأحوال والطقس والصحة. وقفت لحظات وتذرعت بالتنور المشتعل. استأذنت وانصرفت.

عادت تقول وهي تقدم له كوب الدور الثاني من الشاي:

- لقد تعذبت كثيراً.

رشف من الشاي وتمتم:

- لقد خلقنا للعذاب. والرجال يجب أن يتعذبوا أكثر من غيرهم.

تنازعته، في تلك اللحظة، مشاعر متناقضة. تعاطفها الحميم نحوه أثار فيه الدفء ودفق الحنان الذي تبعثه حظيرة العلاقات الإنسانية، وفي نفس الوقت عمق فيه الشعور بالخيبة والهزيمة والعجز.

عذابه الآن ليس في هزائمه السابقة ولكن في موقفه العاجز أمامها. امرأة طاغية الجمال مثل باتا تبوح له بمشاعر العطف والتعاطف. إنها في موقف القوي الذي يحق له أن يعزي ويواسي.. وهو في موقف المهزوم، الضعيف الذي نزلت على رأسه المصيبة. يا للعار! يا للخجل! وضعه وهو يمشي عارياً في شوارع غات أفضل من وضعه الآن وهو يجلس أمام هذه المرأة المهيبة!

(٣١)

بعد رحلة استمرّت تسعة أيام استطاع أخواد أن يقطع أكثر من نصف المسافة نحو وادي الجعيفري. كانت البيداء تمتد أمامه في إصرار وعناد كأنها تتحداه ولا تنوي أن تنتهي، تمتد أمامه وتطارده من الخلف أيضاً، وتنتشر حوله وتغرقه في متاهة أبدية شاملة.

مع العصر توقف عند شجرة أثل هرمة تنتصب وحيدة في قلب الخلاء تعلو جذعها الضخم طبقة كثيفة من الأخشاب التي تيبست على مرّ السنين وماتت فيها الحياة وتساقطت أسفل الجذع صانعة كوماً كبيراً. ولكن قلب الشجرة ما زال ينبض بالحياة. ويشهد بذلك عرف صغير يطل رأسه من بين الركام الميت في أعالي الجذع الهائل مكسو بحزمة صغيرة من الأغصان الخضراء. حول الشجرة الوحيدة الواقفة امتدت البيداء الأبدية إلى كل الدنيا.

بدأت الشمس تختفي في جوّ تلبد بغيوم مفاجئة.

أناخ الجملين وأشعل النار في ركام الخشب. قرر أن يعد كوباً من الشاي الأخضر يقويه على مقاومة التعب.

وضع الشاي في الوعاء وانتظر أن تهدأ النار. جاء من الجمل المسرج بجراب أسود منسوج من وبر الماعز. أخرج حبات التمر وبدأ يأكل من الجراب مباشرة.

رفع رأسه نحو السماء وراقب السحب وهي تتسلل وتتكاثف زاحفة نحو الجنوب مدفوعة بريح بدأ يشتد تدريجياً.

بعد أن شرب الدور الأول من الشاي لاحظ أن السحب المتزاحمة تتلون بالأرجوان فعرف أنها تبشر بالريح.

سارع يهيل التراب على الموقد ويدوسها بنعليه حتى لا تتطاول بفعل الريح وتلتهم جذع الشجرة العجوز.

قرر أن يواصل رحلته قبل أن تهب الرياح وتحاصره العاصفة في الصحراء الرملية. كلما اقترب من وادي الجعيفري وتخطى المتاهة الرملية كلما قلّ خطر العاصفة.

عندما انطلق مواصلاً رحلته بدأ الريح يشتد والنهار تكتسحه عتمة خفيفة تميل إلى الاحمرار. الريح شمالية قوية.

هذا يحدث دائماً: عندما تنهمر الأمطار الغزيرة في الشمال، على الساحل، وفوق الحمادة الحمراء المتاخمة للسواحل، تتنفس الصحارى الجنوبية بالرياح والزوابع المحملة بالأتربة والغبار. كأن العواصف لعنة مكتوبة على جبين الجنوب فقط. لماذا لا يرق قلب الله ويرحم الصحارى الجنوبية بالأمطار أيضاً ولو مرة واحدة في العام؟لماذا لا تسود عدالته كل الدنيا وتتجاوز شريط الساحل ومناطق الحمادة الحمراء؟

ولكن ما يحدث هو أن الصحارى الجنوبية يمنّ عليها الله بالأمطار مرة كل عشرين أو ثلاثين عاماً. وغالباً ما تكون أمطاراً وحشية ضارية انتقامية، تبيد المواشي وقطعان الإبل وتجرف البيوت والناس، وتملأ الدنيا بالضحايا في الأرواح والخسائر في الحيوانات. إنها تتحول إلى نقمة وغضب إلهي يقع على الرؤوس كمصيبة منزلة. وبدل أن يعم الفرح بالسيول والأمطار التي طال انتظارها يندب سكان الصحراء حظهم ويبكون قتلاهم، ويحزنون على مواشيهم الضائعة.

ينقلب الحلم الذي انتظروه طويلاً، سنوات كاملة، إلى مأتم شامل. حتى أن ضعاف النفوس والإيمان منهم يرددون في يأس من فقد صوابه: ما حاجتنا إلى المراعي الخضراء بعدما جرفت السيول مواشينا؟ ما حاجتنا إلى قطعان الغزلان إذا

كانت السيول قد تسببت في جرف أمهر القناصين القادرين على صيدها؟ إن السيل الذي يأتي على هذا النحو لا معنى له. إننا لا نريده. جدير به أن يبقى هناك في الشمال، يتسكع على السواحل ما شاء له الله أن يتسكع. هذا أفضل من أن يأتينا بالتنكيل والهلاك بدل الربيع والكلأ والغزلان!

كثيرون يعتقدون أن ضعاف النفوس هؤلاء هم الذين ساهموا في غضب الطبيعة على المناطق الجنوبية التي أصبحت تتلقى الزوابع كالصفعات بمجرد أن تهطل الأمطار على سواحل الشمال. لا تنزل سحابة شاردة هناك قطرة مطر واحدة حتى تقابلها هبة ريح الأتربة في أقصى الجنوب!

وتحرص الطبيعة على ألاّ تتراجع أبداً في ممارسة سخريتها هذه حتى أصبحت نوعاً من الطقوس القدرية التي يعرفها أهل الصحراء دون أن يتحدثوا عنها علناً. ولا يحدث الاستثناء إلاّ عبر أجيال عندما تهطل تلك السيول الانتقامية الجارفة!

لم يعرف كم مضى من الليل لأن الظلام هجم مبكراً جداً. لقد التحم الليل بعتمة النهار المعربد بالزوبعة والتراب المتصاعد في الهواء. وكلما تقدم الليل كلما ازدادت الزوبعة جنوناً وشراسة.

في المعتاد يعتبر الليل أحسن مسكن للرياح. ولكن للصحراء أحياناً مزاج لا يحكمه قانون، ولا يخضع لمنطق، ولا تكبح جماحه قاعدة.

إنها كالجمل الهائج لا تدري متى ينقض عليك ويفتك بك.

اضطر أن يترجل عن المهري ويقود الجملين، ممسكاً بكلا الرسنين معاً، ماشياً على قدميه. لم يعد يستطيع أن يقاوم السقوط وهو جالس فوق السرج. كانت الرياح تزمجر، مثيرة عواصف الغبار، مصدرة صريراً حاداً مزعجاً يخرق السمع ويمزق طبلة الأذن برغم العراء اللانهائي. استغرب في البداية حدة الصوت في الخلاء الرحب ولكنه أدرك أن سرعة الريح هي المسؤولة عن الصرير المزعج.

بدأت حبال الرمال تتطاير في الفضاء.

كان يمشي في الظلام مهتدياً بالحدس وحده، مواجهاً قوة الريح بصدره، محكماً اللثام على رأسه. ولكن ثوبه الفضفاض يمتلىء بالهواء فيجره إلى الخلف حتى يرده صدر أحد الجملين اللذين استمر يجرهما وراءه.

عندما بدأت حبات الحصى تتطاير، كشهادة على زيادة قوة الريح، اضطر أن يحجب عينيه باللثام تماماً حماية للوجه. ولكنه أحس بلسعات حبات الحصى على يديه كوخز الابر، فسارع يدسهما بين ثنايا جلبابه الفضفاض المنفوش بالهواء.

في بعض المرات تهب الريح في موجات جنونية، تصطدم بأحد الجملين خلفه ثم تعود إليه وتدفعه من الخلف بقوة خارقة حتى ترتفع رجلاه في الفضاء ويسقطه على الأرض. ينهض بعناد مستعيناً بزمام أحد الجملين. ويحدث أن يفاجئه من الأمام بموجة عنيفة غير متوقعة فينقلب على ظهره إلى الخلف حتى يسنده أحد الجملين.

لا يعرف كم استمر هذا العراك العنيف ولكنه شعر أن جسمه لم يعد قادراً على الاستمرار في المشي، وعيناه المعفرتان بالغبار، الذي يتسلل ويخترق قماش اللثام، مغمضتان وتستغيثان طلباً للنوم.

أناخ الجملين واحتمى خلفهما من ضربات الريح التي استمرت تهاجم بشراسة.

غفا وهو جاثم على ركبتيه، ممسكاً بالرسنين بكلتا يديه.

لا يعرف كم مضى من الوقت وهو نائم. عندما استيقظ لاحظ الرؤيا تبدو أوضح برغم عربدة الريح وصريرها العنيد وهي تنطلق في الخلاء. هل هو الفجر؟ أم أنه قلب النهار؟ أحاطت به متاريس من الرمال وهو نائم. أحاطت بالجمل أيضاً. ولكن أين الجمل الثاني؟ لقد اختفى.

نهض وبدأ يزيح متاريس التراب من حوله. كان يتعثر ويترنح ويسقط ويعاود النهوض من جديد. تحرر من كثبان الرمال التي كادت تواريه التراب وهو حي. ثم شرع يحفر بيديه لإزاحة كثبان الرمال المحيطة بالجمل الباقي. يبدو أن الجمل المحمل بالأمتعة قد نفد به الصبر ونهض أثناء الليل، ودحرجته الرياح تدريجياً.

ساهمت المتاريس التي كدستها الرياح حوله وحول الجمل الباقي في حمايتهما من جنون الزوبعة التي تدحرج كل شيء في الصحراء وتدفعه إلى المجهول. بدأت الرؤيا تتضح ولكن الغيمة الكثيفة استمرت تخيم. حاول أن يتبين

الجمل المفقود بلا فائدة. تفقد المكان حيث كان يبرك فوجد أن كوماً من التراب قد ارتفع فعرف أن الريح جرفته منذ ساعات وساعات. أحس بالعطش والجوع وبرغبة عارمة في كوب من الشاي الأخضر. مد يده إلى الجراب وجلس خلف المهري مغمض العينين، يمسك بالرسن بكلتا يديه. أكل حبتين من التمر فزاد به العطش. مد يده يتحسس القربة الوحيدة الباقية، فك رباطها بحذر شديد لكي لا تندلق قطرة واحدة. امتص الماء من القربة مباشرة كما يرضع الجدي من الماعز.

ربطها بعناية فائقة قبل أن يرتوي تماماً.

يجب الاقتصاد في الماء إلى أقصى حدّ. لاأحد يعلم كيف سيسير به المجهول في الصحراء ومن أين ستهب الرياح غداً.

ولكن الحلم الأكبر ظل مستحيلاً. كوب الشاي الأخضر ظل أمنية لن تتحقق حتى أصبح مجرد التفكير في الشاي يصيبه بالصداع. هذه نتيجة الإدمان. على الرجل الحقيقي ألاّ يدمن على أي شيء حتى لو كان مخدع زوجته!

إنه الآن يعاني عبودية إدمان الشاي الأخضر.

نهض محاولاً أن ينسى الشاي. نخس الجمل بركلة خفيفة من نعله وأمسك بذيله هذه المرة. ما زالت الرياح في عنفوان جنونها.

حاول أن يحتمي من هجمات الحصى الشرسة بجسم المهري الذي تركه يتقدم المسير في صبر وصمت.

بعد أن قطع مسافة شعر بنعليه يغوصان في الرمل. عرف أن العجاج دفع به نحو أعماق الجنوب يساراً. كان يجب أن يلزم اليمين طوال الوقت حتى لا تبتلعه الصحراء الرملية كما نصحه الشيخ غوما.

بدأ يحس بمرارة في حلقه، وطعم التراب المملح في فمه. التراب يتراكم حول عينيه وفمه برغم اللثام. اشتدّ الصراع حتى شعر أن رأسه سينكسر وينشطر إلى نصفين. ترنح وسقط أكثر من مرة. شعر بالغثيان. هاجمته رغبة في القيء.

أوقف الجمل ومدّ يده يتحسس الأمتعة الباقية بجوار السرج حتى عثر على الجراب الجلدي. دس يده وأخرجها قابضاً على حفنة من أوراق الشاي الأخضر.

دسها في فمه وطفق يمضغها مع حبات الرمل التي بعثت صريراً مزعجاً في أضراسه اقشعر له. ابتلع اللعاب الممزوج بطعم الشاي المر.

استمر واقفاً لحظات، مسنداً ظهره إلى الجمل، قبل أن يعود إليه الوعي. همز الجمل بيده وأمسك بذيله وزمامه معاً ومشى خلفه يتقي شرّ العجاج المجنون.

انقشعت العتمة وتلون الجوّ بألوان قوس قزح. الأصفر والبنفسجي، والأحمر المعتم، ولكن الريح ظلت جامحة، شرسة، حتى أن الجمل اضطر أن يتوقف أكثر من مرة ويرغي شاكياً وقد لفظ زبداً كثيفاً.

عرف أخواد ذلك من السائل البارد الذي بلل يديه عدة مرات. هجمت العتمة مرة أخرى، قرر أن يتوقف عن رحلته. لم يعد يستطيع أن يستمر. أنهكه التعب والجوع والعطش والصداع الذي استمر يشق رأسه برغم حفنة أوراق الشاي التي امتص رحيقها.

تسلل ورضع ثلاث جرعات من الماء من فم القربة ودس يده في الجراب وأخرج حفنة من التمر. بدأ يأكلها محتمياً بجسم الجمل البارك في مواجهة ريح صرصر عاتية. أصدرت أسنانه صريراً مزعجاً. كان فمه مليئاً بحبات الرمل برغم اللثام.

لا يعرف متى غفا.

استيقظ في قلب الليل أو هكذا خيل له من الظلمة الحالكة التي تحيط بالدنيا. استيقظ فجأة وهو يحس بالاختناق وبجسم ثقيل يرقد عليه ويكتّم أنفاسه. اكتشف أن التراب يغطي جسمه كله. لم يبق إلاّ رأسه. بدأ يحرّك يديه ورجليه بصعوبة وبطء.

استطاع أن يحرر يده اليمنى أولاً. إنها ما تزال تمسك بالزمام. ولكن أين الجمل؟ استطلع فرآه بجواره وقد دفنه الرمل حتى كاد يبلغ مستوى الأمتعة التي يحملها. استمر يحرك جسمه بعناد حتى استطاع أن يحرر يده الثانية. توقف عن الحركة وتنهد بعمق. سحب الهواء إلى صدره بعمق. فعل ذلك ثلاث مرات متتالية. ثم عاد يحاول تخليص بقية جسمه المطمور في أحشاء الرمال.

وجد أطرافه وملابسه مبللة بالعرق. هدأت الرياح.

زحف نحو الجمل المستسلم لزحف الرمال التي غمرته حتى رقبته، وبدأ يحفر ويزيح السدود الناعمة حوله. أنفاسه متلاحقة لاهثة، ولكنه استمر يزيح التراب بكلتا يديه.

هدّه الإعياء فأسند رأسه إلى ذراعه وهمد لكي يلتقط أنفاسه.

لا يعرف كم مضى من الوقت وهو نائم.

تذكر الآن أنه غرق في النوم لما أغمض عينيه كي يلتقط أنفاسه وهو يزيح السدود الترابية حول المهري المغمور.

حرقه الملح في حلقه فبصق الرمال المتشبثة بشفتيه وفمه.

تراجعت غيوم العجاج وعمّ الصحراء ضوء الفجر. هدأ تصاعد الغبار واختفت ألوان قوس قزح التي استقرت في الفضاء طوال اليومين الماضيين.

الريح أيضاً بدأت تهدأ وتتطهر من حبات الرمل والحصى التي تسلحت بها في وجهه وأشبعته بصفعات أليمة في كل طرف عار من جسمه كأنها كف من ألف ابرة!

الجمل يقف في مواجهة الرياح الهادئة ويجتر رافعاً رقبته الطويلة بكبرياء، مسدداً بصره إلى الأفق القصي الذي اتضحت معالمه مع هجوم ضوء الصباح وتأهب الشمس للشروق.

نظر حوله فوجد الكثبان الرميلة تحيط به من كل جانب. لقد دفعت به الزوبعة إلى أقاصي الصحراء الرملية الجنوبية التي تمتد غرب «كيل أبادا» وتنطلق حتى «ايليزي» في الجزائر. كان غوما حكيماً عندما حذره بوجوب التزام اليمين نحو الشمال كأنه يتنبأ بالغيب، ولم يكن بإمكانه أن يستعين بالنجوم بسبب الغيم الذي خيم على الصحراء ليل نهار.

أصبح الصداع نصفياً فنهض وبحث عن الحطب. الدنيا مكسوة بطبقة جديدة ناعمة، بريئة، من الرمال التي أحس كأن الرياح جاءت بها من السماوات. غمره شعور خفي بأنه ولد من جديد، وبأن الله قد خلق الكون للتو.

مشى ببطء، يدوس الرمال البريئة، البكر، باحثاً عن الحطب، شاعراً بأنه آدم

نزل من السماء لأول مرة ويخطو، الآن، خطواته الأولى على الأرض البكر ينتهك طهارتها بقدميه!

ولكنه لم يجد الحطب.

شرب الماء من القربة مباشرة وجلس فوق السرج وانطلق نحو الشمال الغربي. المسافة الآن إلى آبار وادي الجعيفري، حيث خطط أن يتزود بالماء، هي نفس المسافة إلى غدامس.

همز رقبة الجمل بقدمه فانطلق المهري راكضاً.

استمر يركض بالمهري حتى انتصف النهار.

استقرت الشمس عمودية فترجل عن المهري وشرب جرعة ماء.

مشى على قدميه مسافة أخرى قبل أن يعثر على شجرة صغيرة تلتصق بالأرض، ميتة الأغصان والجذوع والجذور.

احتفل بها كأنه عثر على كنز.

أناخ الجمل بجوارها، وأزاح عنه السرج والأمتعة لأول مرة منذ ثلاثة أيام، وقفز إلى الشاي كالمجنون. أشعل النار في الشجرة مباشرة، ولم ينتظر حتى يهدأ اللهب، بل دفع بالإناء في قلب ألسنة النار وأتى بجراب التمر.

تركه في حجره وجلس يرقب إناء الشاي الغارق في اللهب دون أن يمد يده إلى التمر في الجراب.

لم يعد يرى شيئاً أو يحلم بشيء غير الشاي. لا يحس الجوع ولا التعب ولا العطش سوى العطش إلى الشاي. هذا ثمن التعوّد. هذا ثمن الإدمان. لا ينبغي أن تتعود حتى على زوجتك! لا ينبغي أن تدمن حتى مخدع زوجتك!

شرب من دور واحد ثلاثة أكواب متتالية، أعادت له الحياة والنشاط والحيوية. شعر أنه الآن فقط يستطيع أن يفكر بعقله ويدرك بوضوح ما فعلته به العاصفة في اليومين الماضيين. الآن، فقط، بوسعه أن يستعيد الأحداث بعد أن عاد له الوعي والعقل. الآن أدرك أنه كان يسير مهتدياً بحواسه وحدسه غائباً بعقله عن

الوجود. لا يدري متى وكيف قطع الصحراء، لا يدري متى وكيف نام. لا يدري كيف ومتى فقد الجمل الثاني الذي لم يكلف نفسه عناء البحث عنه. ربما لأن عقله في تلك اللحظة، لم يوح له بخطورة اختفاء الجمل المحمل بالماء والمؤن وأهم الأمتعة في رحلته التي ما زالت طويلة. هذا إذا لم تزدها العاصفة طولاً بعد أن رمت به في أعماق صحارى الرمال جنوباً.

الآن عليه ألاّ يتوقف أبداً حتى يبلغ الصحارى الصخرية في الجهة الشمالية الغربية التي تفضي إلى الواحة. لن يكتب له التوفيق إذا لم يدرك الصحراء الممتدة بين وادي الجعيفري وغدامس حيث يمكن التزود بالماء من ثلاثة آبار تتناثر على طول الشريط الممتد بينهما. قفز في السرج ولهب جلد المهري بالسوط.

استقرت الشمس عمودية حارقة.

أدرك الآن أن كل حساباته كانت خاطئة. العاصفة ألقت به بعيداً في عمق الجنوب بمسافة لم يحسن تقديرها. المسافة أبعد بكثير مما توقع.

شرب آخر قطرة ماء منذ يومين. واضطر أمس أن يذبح المهري المحارب الصبور ويشرب دمه ويتزود بمخزون كرشه من الماء.

شرب ماء الكرش في المساء.

حاول أن يقتصد في الماء إلى أقصى حد. ولكن متاهة الرمال تجاهد وتمتد وتتحدى ولا تنوي أن تنتهي أبداً.

لقد قهرته المتاهة، وأفسدت خططه، وامتصت ماءه، وأفقدته صوابه.

بدأ بصره يضعف، وجسمه يضعف، وخطواته تضعف.

أحس بملابسه ثقيلة، ثقيلة جداً. لم يعد يستطيع تحملها. مشى خطوات أخرى قبل أن يلقي بالجلباب. ولكن البندقية ظلت مستقرة على كتفه. (بندقية الشيخ غوما).

لم يعد يرى شيئاً.

تخلص من اللثام هذه المرة. ومضى حاسر الرأس. فعل ذلك بدون شعور،

ولكن بندقية الشيخ غوما ما زالت في يده.

لم يعد يرى شيئاً.

غابت حتى انهار السراب التي تندلق أمامه وتتدفق ساخرة، شامتة، هازئة. وجد نفسه يتدحرج فجأة من مرتفع رملي. مرّ زمن طويل قبل أن يبلغ الحضيض. ظل راقداً دقائق قبل أن يعود له الوعي.

حاول أن يبصق التراب المالح من فمه، فلم يستطع. أحس بالمرارة، مرارة الملح، تحرق حلقه وقلبه.

افتقد البندقية فجمع كل قواه وحاول أن يبصر أثره عندما تدحرج باحثاً عنها. انكفأ على وجهه ودس رأسه في الرمال.

ولكن خوفه من أن يفقد هدية الشيخ غوما كان أقوى، في تلك اللحظة، من كل شيء. أقوى حتى من العطش.

تحامل على نفسه وزحف نحو المرتفع باحثاً عن البندقية. مرّ زمن وهو يتحسس الرمال بيديه بعد أن فقد القدرة تماماً على الرؤية.

أخيراً وجدها.

أمسك بها بكلتا يديه واستسلم للمنحدر. تدحرج حتى أسفل السفح مرة أخرى. ولكن البندقية ظلت ثابتة بين يديه.

استلقى على ظهره ونظر نحو قرص الشمس الملتهب وهو يلهب الأرض بحمم الجحيم. نظر إلى أعلى ولكنه لم يعد يرى الشمس نفسها.

فكر كيف استطاعت الزوبعة الشيطانية أن تقذف به إلى الجنوب في الوقت الذي كان يعتقد فيه أنه مشى طوال الوقت في مواجهتها.

في تلك اللحظة ارتسمت على شفتيه الملوثتين بالتراب ابتسامة خفيفة غامضة.

(٣٢)

عندما أخبروا الشيخ غوما عن عزم أماستان الارتباط بباتا سكت طويلاً. لا أحد يعرف ما إذا كانت المفاجأة قد عقدت لسانه، أم أنه يتباطأ ليرتب جوابه الحاسم ويهيىء رأيه النهائي. قال في النهاية وهو ينشغل في رسم خطوط متقاطعة بأصابعه على الأرض: «يتزوج أولا يتزوج، هذا لا يعنيني». صمت وهو يحرث الرمل بأصابعه في عصبية ثم أضاف: «لاخير في كليهما. هو ملعون، وهي غريبة الأطوار. متعطشة للمغامرة. لعنة الله على كليهما». اكتفى بذلك ولم يعلق أبداً. ولكن آيس لم يكن «لا مبالياً» مثل جده الشيخ غوما.

ذهب إلى باتا بمجرد أن سمع الخبر.

أزاح الباب المضفور بالجريد ووقف بالمدخل حانقاً. كانت منشغلة في رتق ثوب أزرق فضفاض من النوع المخصص للمناسبات الكبيرة. حمد الله أن زارا غائبة والزنجية كذلك برغم غروب الشمس وهجوم العتمة.

رفعت نحوه رأسها وافترّ ثغرها عن ابتسامة ساحرة كشفت عن أسنان بيضاء ناصعة مصفَّفة بعناية كعقد من اللؤلؤ.

هتفت بغنج كعادتها:

ـ آه. هذا أنت يا عريسي الصغير! لماذا تقف في المدخل؟ لماذا لا تدخل؟ ولكنه تسمر في مكانه وقد احتقن وجهه بالدماء. قال حانقاً:

ـ أنا لست عريسك! أنت تتهكمين عليّ!

ندت عنها آهة دهشة. ثم ضحكت ضحكة قصيرة رنانة، لذيذة وقالت مداعبة:

ـ هل هذه غيرة؟ لا تصدّق! أنا لا أتهكم عليك!

ـ لقد قررت الزواج من أماستان. أنا أعرف!

ـ ولو!

ـ كذبت عليّ. أنت كذابة!

ضحكت مرة أخرى وهي تلقي برأسها إلى الوراء فينهمر شعرها الفاحم الغزير خلفها حتى يلامس الأرض في حركة، متقنة، ولكنها طبيعية. قالت والابتسامة تغمر وجهها كله:

ـ أنا ما زلت عند وعدي. سأتزوج أماستان. وسوف ألحق وأطلقه وأتزوج غيره قبل أن تكبر وترتدي اللثام، وتركب المهري المسرج، وتمتشق السيف الذهبي كما اتفقنا. هل يرضيك هذا الاقتراح؟

تمتم في ذهول وهو يخطو إلى الداخل ويقف أمامها:

ـ لم أفهم.. هل..

ـ نعم. نعم. سوف أطلقه قبل أن تبلغ السن التي تمكنك من أن تتقدم بطلب يدي. ما رأيك؟ هل هذا يرضيك؟

لاذ بالصمت في حين مدت يدها البيضاء وأجلسته على الكليم بجوارها وهي تتساءل:

ـ هل أنت موافق؟

تمتم بعد تردد:

ـ نعم.

ألقت بالثوب جانباً وداعبت شعر رأسه بأناملها الرقيقة قبل أن تقول:

ـ لم أرك من زمان. لقد هجرتني. لماذا توقفت عن زيارتي؟ هل هذا بتأثير الشيخ غوما أم بتحريض من خادمته الزنجية؟

هزّ رأسه علامة النفي، ثم تمتم بيقين:

ـ أبي لايعرف عن زياراتي شيئاً، وخالتي كذلك.

تفرست فيه وهي تمسك بكلتا يديه وقالت:

ـ أشك في ذلك. الشيخ غوما لا تخفى عنه خافية، وكذلك خادمته الزنجية. ما زلت صغيراً...

سكتت لحظات ثم أضافت بلهجة غامضة:

ـ .. سوف تكبر، وستعرف أن جدك يقرأ في الغيب. وقد تعلمت منه خادمته أيضاً أشياء كثيرة بعد أن عاشرته طوال هذا العمر.

ساد صمت قبل أن تقترح:

ـ هل أنت جائع؟ هل أعد لك شيئاً؟

هزّ رأسه علامة النفي وتطلع إلى مرفقها العاري الجميل، وعندما غزت أنفه رائحتها العطرة أحس بقلبه ينبض بشدة، ورعشة خفيفة تسري في ظهره، وتذكر آخر مرة عندما أغرقته في الحلم العجيب بين ذراعيها الدافئين.

عادت زارا من زيارة للجيران. غمزت له بعينها ومررت يدها فوق شعر رأسه قبل أن تقول:

ـ لقد اختفيت منذ عاد جدك. وعدتني أن ترافقني للمرعى مرة أخرى. لماذا خلفت بوعدك؟

لاحظ أن باتا ترمقه بطرف عينيها مبتسمة.

قال يخاطب زارا التي جلست على الأرض في مواجهته:

ـ لقد بدأت تعلم القرآن.

ـ هتفت باتا:

ـ صحيح؟

ـ نعم. وكذلك القراءة والكتابة.

ـ أعد على مسمعي ما تعلمته من القرآن.

نكس رأسه خجلاً في حين عادت باتا تلح:

ـ ولو سورة واحدة.

ردد دون أن يرفع رأسه:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم. ولا الضالين. آمين.

هللت باتا وهي تحتضن رأسه بذراعيها:

ـ ما شاء الله. ما شاء الله. هذه سورة الفاتحة. عليك أن تعلمها لزارا. زارا أيضاً يجب أن تتعلم فروض الصلاة.

احتقن وجه زارا، وطأطأت رأسها خجلاً.

عندما نهض خارجاً غمز لها بعينه.

أدركته خارج السور الجريدي يقف في العتمة.

لاحظ في ظلمة المساء أنها تبتسم.

قال بلهجة ذات معنى:

ـ أخنوخن سألني بشأنك.

برغم الظلمة رأى الأهتمام المفاجىء يبدو على وجهها. أسرعت تتساءل:

ـ ماذا قال؟ ماذا سألك بشأني؟

ـ سألني عما إذا كنت تحبينه أم تحبين أمغار.

ـ وماذا قلت له؟

ـ لم أقل شيئاً. قلت له أني لا أدري.

ـ ....

ـ لقد وعدتك في المرعى ألاّ أبوح لأحد بما قلت.

ـ قلت له أن هذا سرّ. وهو يعلم بمرافقتي لك إلى المرعى.

ـ حقاً؟!

ـ طبعاً. لا شيء يخفى أبداً.

عندما مضى صعب عليه أن يتبين التعبير المرسوم على وجهها.

الظلمة ازدادت قتامة.

ذهب للنوم مبكراً. غوما الآن يلزمه أن يستيقظ مبكراً ليؤدي معه صلاة الفجر. ثم تبدأ دروس القرآن والقراءة والكتابة على اللوح الخشبي المزوق بالجير الأبيض.

عندما أغمض عينيه رآها راقدة بجواره، يتوسد شعرها الغزير الفاحم، يتمتع بالنظر إلى عينيها الخضراوين، يلتصق بردفيها البارزين، وصدرها النافر، تغمره بذراعيها البضين، ويغيب معها في الحلم العجيب.

تسلح بسكين كبير وتسلل إلى الخباء في الظلام. أمسك السكين بكلتا يديه ورفعه فوق رقبة أماستان العارية. نزل بالسكين بكل قوته، وشرع يسدد الطعنات تلو الطعنات. انبثق الدم غزيراً، وصرخت باتا. ولكنه استمر يسدد الطعنات ويردد بجنون: «خذ! خذ! أيها الخائن. أيها الرعديد! أيها الخائن!». استمرت باتا تندب وتصرخ وتولول، ولكنه لم يعبأ بها. تناول السكين بيده اليمنى ونحر أماستان من رقبته كما تنحر الشاة. أصدر خواراً كالثور ولفظ آخر الأنفاس.

رمى بالسكين جانباً، وهجم على باتا يحتضنها بذراعيه، ويدس رأسه في حجرها الدافىء، ولكنها تراجعت مذعورة.. تقدم نحوها فصرخت وولت هاربة. صرخ في أثرها: «باتا! لقد فعلت هذا من أجلك! لقد أنقذتك منه! إنه لا يستحقك! هذا الخائن الجبان! انتظري! سوف نتزوج الآن، ليس هناك قوة تحول دون زواجنا!».

استيقظ على صوت «خالته» الزنجية وهي تهزه بعنف وتصيح:

ـ آيس. هل جننت؟ كفى خترفة وهذيان! انهض! حان موعد الصلاة!

فتح عينيه فإذا بالظلمة ما زالت شاملة. ملابسه وجسمه مبلل، ولكن ليس بالماء هذه المرة. إنه العرق. هذيانه في الحلم لم يتح للزنجية فرصة أن تدلق على رأسه جردل الماء كالمعتاد. ولكنها حدجته بنظرة استنكار وهو يغسل أطرافه بالماء على ضوء مصباح الكيروسين.

فكر في تلك اللحظة الخاطفة التي يغمض فيها عينيه فتحتدم الأحداث فوراً كأنها تقتنص الفرصة، تتوثب، وتتهيأ للانقضاض.. حتى أنه لا يصدق أن ما يحدث حلم. إنه يراه حقيقة واضحة كما يرى «خالته» الزنجية أمامه الآن!

ظلت عيناها تنطقان بالاستنكار. قالت موبخة وفي عينيها وعيد:

ـ ما هذا الهذيان؟ هل جننت يا آيس؟

ولكنه لم يجبها، ولم يرفع رأسه نحوها حتى لا يلتقي بعينيها. انصرف نحو البيت الآخر حيث ينتظره جده لتأدية صلاة الفجر دون أن يجيبها بكلمة.

(٢٣)

خبر وفاة الشيخ أخواد جاء به إيدار بعد أربعة أسابيع من مغادرته معسكر القبيلة. وصل من غدامس بعد الظهر.

استقبله الشباب وبعض الأتباع في السهل قبل أن يبلغ المخيمات. كان أخنوخن من ضمنهم. توجهوا إلى خيمة الشيوخ في حين تولى بعض الأتباع العناية بالأمتعة وإطعام المهري بحبوب الشعير.

استقبلهم الشيخ خليل في المدخل وأمر بتحضير أدوات الشاي.

أمر أيضاً باستدعاء الشيخ غوما الذي شاهده يكبر للصلاة مستظلاً بظلال الخيمة في الباحة الشرقية المعاكسة للشمس والمواجهة للجبل.

مالت الشمس باتجاه الغرب مشيرة إلى انقلاب ميزان النهار ولكن الجو ما زال يغلي وينفث الصهد كحمم البراكين.

بدأ الرجال والشباب يتقاطرون ويتجمعون في المدخل وخارج الخيمة. في الداخل ساد وجوم ثقيل يخرقه صوت إيدار وهو يحكي قصته.

وصل الشيخ غوما فأفسحوا له الطريق. وقف أمام الخيمة صامتاً.

خرج إيدار وعانقه. ثم شد على يده بكلتا يديه وطأطأ رأسه متمتماً بكلمات مختنقة غير مفهومة.

أحاط بهما الرجال والشباب في حين ظل الشيخ خليل متشبثاً بالجلوس في قعر الخيمة.

وصل الشيخ آهر أيضاً. تصافح مع إيدار ولكنهما لم يتعانقا.

ساد الصمت العميق حتى أن الهمس وحفيف اللباس الفضفاض يثير الصخب.

اقترح الشيخ غوما لكي يضع حداً للوجوم المهيب:

- يستحسن أن نلجأ لظل الخيمة. الدنيا في الداخل خانقة.

اندفع بعض الشباب وأخرجوا الكليم وافترشوه في الخارج ملاصقاً للخيمة.

جلس الشيوخ غوما أولاً. أخذ آهر وخليل أماكنهما بجواره. في مواجهته جلس إيدار. تحلق الشباب والرجال حولهم، في حين ظل البعض الآخر واقفاً يرددون بصوت هامس: «لا إله إلآ الله».

تولى أخنوخن إعداد الشاي الأخضر.

اختتم إيدار قصته قائلاً:

- لقد تحرر من كل شيء. تخلص حتى من ملابسه ولكنه احتفظ بالبندقية حتى آخر لحظة.

ساد صمت طويل قبل أن يعلق الشيخ خليل:

- هذه بطولة. العطشان يحس بأي شيء حمولة لا تحتمل حتى ولو كان ريشة، فكيف ببندقية؟

تمتم آهر:

ـ لا إله إلاّ الله.

ظل غوما صامتاً طوال الوقت. خطر له أن يقول: «لقد اقترحت بأن أمدّه ببعض المساعدين لمرافقته فرفض» ولكن الكلمات تحجرت في حلقه. ماتت على شفتيه. استمر ساكناً ينظر في الفراغ أمامه. ينظر في نقطة محددة ولا يدري أحد بما يفكر.

كان لثام خليل مبللاً، لثام آهر أيضاً. سمع بعض الشباب غوما وهو يردد: «رحمه الله. لا إله إلاّ الله».

ثم هب واقفاً.

مشى ناحية البئر. دار حوله مرتين ثم اتجه إلى المقابر.

في تلك العشية تسلق الشيخ غوما الجبل واعتصم هناك ثلاثة أيام كاملة.

اضطر أن يصوم طوال الثلاثة أيام. لم يجلب معه طعاماً ولا شراباً ولا حتى حفنة شاي.

في تلك الليلة لم يكف عن تلاوة القرآن حتى الفجر. ثم أسند رأسه إلى ذراعه واستلقى تحت طلحة حتى هاجمه النعاس. نام نوماً متقطعاً مزعجاً. نهض فإذا بالشمس قد ارتفعت بقامة رجل عن الأرض. تمشى عبر العراء المكسو بطبقة كثيفة من الأحجار الصغيرة السوداء. نفس العراء الذي يفضي إلى الحمادة الحمراء وتخرقه الأودية الصغيرة التي حفرتها مياه الأمطار في مواسم الربيع.

عاد يقرأ القرآن.

توقف بغتة وشعر أنه يختنق. سحب الهواء بعمق محاولاً أن يملأ صدره ورئتيه. ثم طفق يدور في الخلاء بلا هدف كأنه حيوان جريح.

توقف مرة أخرى محاولاً أن يبتلع الهواء. أصدر صوتاً غريباً كخوار الثور. ثم انهار على الأرض. كانت أسنانه تصطك وأطرافه ترتعش بشدة.

حاول أن يسيطر على نفسه.

تمدد على الأرض وسحب اللثام على عينيه محاولاً أن يسيطر على النوبة الغريبة التي أصابته لأول مرة. بعد قليل بدأ يهذي ويخرق سكون الصحراء بالخترفة والهمهمة التي تنبثق من فمه تلقائياً بلا إرادة، ولا يعرف لها معنى.

لا يعرف كم استمرت هذه الحالة قبل أن يغفو.

عندما استيقظ كانت الشمس قد قطعت نصف الشوط في طريقها إلى الغروب متخذةً من قلب السماء مركزاً لها.

ملابسه مبللة، وجسمه مغسول بالعرق.

تقرفص تحت الشجرة محاولاً أن يبلل فمه وحلقه المتيبسين بلعابه.

كان عطشاً ولكنه لم يشعر بالجوع. الصداع بدأ يحطم رأسه فتذكر حاجته إلى كوب من الشاي الأخضر.

حاول، جاهداً، أن يتذكر ما حدث قبل أن تجتاحه الحمّى.

أحس بأنه وحيد. وحيد. شعور عميق ومفاجىء بالوحدة.

لم يهاجمه هذا الإحساس فجأة. إنه يذكر الآن أنه كان نتيجة لتفكيره طوال الوقت بأخواد. ثم تذكر أيضاً الشيخ جبور. انه فقدهما إلى الأبد. فهاجمه ذلك الشعور الغامض بالوحدة الوحشية تنهشه وتمزق قلبه بمخالب شرسة فتسلب منه الأمان والطمأنينة، وتزرع الخواء، خواء وفراغ لا يحتمل. ثم.. ثم بدأت نوبة الحمّى.

هذا ما يتذكره الآن. وربما خيل له كل هذا بسبب الإنهاك والتعب.

إن الصحراء اختطفت منه أخواد إلى الأبد. فهل هذه حقيقة أم حلم؟

جاءه إيدار بالخبر يوم أمس. إيدار موجود الآن في المعسكر. معنى هذا أنه لا يحلم الآن. أخواد غاب في الأبدية ولن يعود أبداً. لن يتمكن من الحضور إلى تلال الحمادة الحمراء ليشاركه صيد الغزلان في الربيع القادم. لن يتمكن من الحضور لمشاركته في الحروب القادمة. لن يتمكن من الحضور لمشاركته التقاط الكمأ والتسابق في مباريات الصيد والتهديف والقنص. أخواد لن يتمكن من حضور أي

شيء بعد اليوم. غاب إلى الأبد. استطاعت الصحراء أن تفعل به ما لم يستطع رصاص الطليان والفرنسيس وكل الأعداء أن يفعلوه به.

فكيف سيتمكن هو الآن من مواجهة الصحراء التي فقدت أشجع وأنبل رجالها الواحد تلو الآخر؟ فقدت أولئك الرجال الذين يستطيعون أن يعزوا ويواسوا ويساعدوا في مواجهة همّ الدنيا وإزالة قسوة الحياة ووحشة الوجود.

لبث في الفراغ مستظلاً من القيظ بالطلحة. عاد رأسه يتصدّع ويتشقق. الصداع في ذروته. ولكنه تذكر لعنات تانس التي صبتها على رأس الصحراء القاسية بعد أن سلبت منها حبيبها أطلانتس.

إنه يفهم الآن سرّ تلك الرعشة الخاطفة التي انتابته عندما رأى لثام أخواد مبللاً وهو يودعه. أدرك بإحساس خفي أنه يودعه إلى الأبد.

أيقظه آهر مع خليل مع حلول المساء.

لا يعرف متى وكيف نعس. ولكن الصداع ما زال يشق رأسه.

قال آهر من بين أنفاسه المتلاحقة:

ـ لم أتصور أن يكون الجبل عالياً إلى هذا الحد. إنني أصعد إلى القمة لأول مرة.

سحب نفساً عميقاً وأضاف وهو يجلس قبالة غوما:

ـ لقد استبطأناك فقررنا أن نزورك في صومعتك الحصينة. أخبرتنا الزنجية أنك لم تحمل معك لا زاداً ولا ماء.

حاول خليل أن يضفي مرحاً على الحديث فأضاف مازحاً:

ـ ولا شاي. أهم ما في الأمر بالنسبة للشيخ غوما هو الشاي. أليس كذلك يا شيخنا؟

اغتصب غوما ابتسامة حزينة، وتمتم ببطء:

ـ معك حق. الشاي أهم ما في الأمر. إن رأسي يتصدّع. سوف ينشطر إلى

نصفين.

سارع آهر يختطف ابتسامة غوما ويجدها مبرراً للتخفيف من حدة التوتر.

قال وهو يضع الجراب على الأرض:

ـ لقد حرصنا أن نأتي بالشاي قبل أي شيء آخر.

دس يده في الجراب وأخرج شكوة صغيرة من النوع الذي تمخض فيه النساء الحليب. صب الماء في قدح خشبي، قدمه لغوما. ثم أخرج الفطائر والخبز وقطعتين كبيرتين من اللحم. كوّم المأكولات فوق الجراب.

ثم نهض بقامته القصيرة وانطلق يبحث عن الحطب.

قال غوما وهو يضع قدح الماء أمامه مخاطباً خليل الذي اقتعد القرفصاء في مواجهته:

ـ لم أشعر بالصحراء مهجورة وفارغة كما أشعر بها اليوم.

تمتم خليل:

ـ الصبر. التذرع بالصبر.

ولكن غوما مضى يقول كأنه لم يسمعه:

ـ قامت الصحراء بمهمة عجزت عن تأديتها كل الحروب الضارية التي خاضها الشيخ أخواد.

سعل وأضاف فوراً كأنه خشي أن يقطع خليل تسلسل أفكاره.

ـ الصحراء لاتتوقف عن تدبير المفاجآت.

قال خليل وهو يرفع رأسه ويتابع شبح آهر الذي انهمك في تجميع الحطب في عتمة المساء:

ـ الصحراء. ما هي الصحراء إن لم تكن الحياة نفسها يا شيخنا. شقي من لا يعرف هذه الحقيقة.

ساد الصمت.

عاد غوما يشرب الماء من القدح الخشبي.

قال خليل:

ـ خشينا أن تموت عطشاً أو جوعاً في هذه القفار.

تمتم غوما:

ـ لا بد للمرء أن يدفن ضعفه في مكان ما.

ـ وهل الجبل هو المكان الملائم لذلك يا شيخ غوما؟ إن آيس كاد يقتلنا بالأسئلة والإلحاح. حاول أن يرافقنا للاطمئنان عليك.

ـ الجبل مكان ملائم جداً. إنه أرحب، وصدره أكثر أماناً من صدور البشر. من الملائم أن يودعه المرء أحزانه. إنه لا يبوح بالأسرار.

جاء آهر بحزمة كبيرة من الحطب. ركع على ركبتيه وشرع يشعل النار.

بدأ الدخان يتصاعد.

التفت آهر وقال محاولاً أن يبث روح المرح في كلماته ليهوّن على غوما:

ـ الآن سوف نسقيك شاياً حقيقياً يا شيخنا. شاياً لم تشربه منذ زمن بعيد. اسمح لي أن أتولّى أمره.

ولكن غوما مضى يقول:

ـ سوف نغادر غداً. سترافقني يا شيخ خليل. حاول أن تجهز كل شيء من الليلة. سننطلق عند الفجر.

تناول عوداً وانهمك يرسم على الأرض مربعات ومثلثات وخطوطاً متقاطعة ومتوازية.

(٣٤)

ما أن غادر الشيخ غوما تصحبه كوكبة من الفرسان الشباب والشيخ خليل إلى غدامس لتقديم التعازي في الشيخ أخواد لقبائل الفوغاس، حتى طعنه أماستان في اليوم التالي مباشرة بالترتيب للعرس والتحضير لمهرجان الزواج من باتا. قاد آهر الذي استلم مقاليد القبيلة في غياب غوما، حملة واسعة بين الشباب لمقاطعة استعراض ليلة الدخلة، ومنع اشتراك الفرسان من أبناء النبلاء في حفل الرقص بالمهاري الذي أقيم في عشية الليلة الأولى من الزفاف.

استطاع آهر، بمساعدة أخنوخن، أن ينجح في مقاطعة الشباب للاستعراض فاقتصر المشاركون في الرقص على شباب الأتباع.

ولكن المقاطعة لم تمنع الرجال والنساء، كباراً وصغاراً، من الفرجة ومشاهدة وقائع المهرجان.

وقد فوجيء الجميع يومها برجل يرتدي أسمالاً بالية ممزقة قذرة تشبه ملابس المتسولين، يركب ناقة هرمة، استقرت بقع كبيرة سوداء في جسمها بتأثير الجرب، واستقر على ظهرها سرج مضحك من النوع الذي يستعمل لحمل الأثقال، وقد علق الرجل عليها براميل ماء فارغة، وعلب سردين وطماطم متآكلة، صدئة، وجاء يشق ساحة الرقص حيث تتجمع النساء، تقرع الطبول وترتفع الأصوات بالغناء، وتتهادى المهاري الأنيقة شمالاً وجنوباً في رقصها المتناسق الرتيب. وما أن اخترق الرجل «الشبح» الساحة حتى عمّ الهرج والارتباك، توقفت النساء عن الغناء، وارتفعت الحناجر بالضحك والسخرية، وجفلت مهاري الرقص وانسحبت هاربة من الساحة كأن شيطاناً رجيماً طردها، ولم تفلح محاولات الرجال الجالسين فوق السروج في ضبط المهاري الجامحة التي أنزل «المجنون» الرعب في قلبها فأطلقت ساقيها للريح بدل الرقص!

ظلت هذه الواقعة تتردد على ألسنة أهل القبيلة زمناً طويلاً، وخلقوا منها موضوعاً شيقاً للتندر والسخرية حول عرس أماستان. ومضى البعض يقول ان ذلك الرجل إنما هو شبح أرسله الله ليحذر أماستان ويهزأ من زواجه عقاباً له على ما اقترفت يداه من خيانة ضد الصحراء. كما شاعت شائعة تؤكد أن الشبح الذي

أفسد استعراض ليلة الدخلة دبره الشيخ آهر بالاتفاق مع الشيخ غوما قبل سفره. وتمضي باتا إلى أبعد من ذلك فتقول ان «الشبح» لم يكن سوى الشيخ غوما بنفسه، لأنه أراد أن يثأر منها ومن أخيه الذي تبرأ منه أمام الدنيا.

ومضت تردد أن الشيخ غوما لم يغادر بيوت القبيلة أبداً. وإنّما ذهب واختبأ في الجبل كعادته لكي يتحين الفرصة ويتمكن من التنكيل بأخيه مرة أخرى كما فعل يوماً في غات، ولكي يلحق بها هي العار عقاباً على قبولها بأماستان زوجاً لها!

ذهب البعض الآخر إلى القول ان «الشبح» لم يكن سوى المرحوم الشيخ أخواد الذي لم يجف دمه في قبره عندما ارتضى أماستان لنفسه أن ينظم الأعراس دون احترام للموتى وللرجل الذي كان له الفضل الأول في الشفاعة له عند الشيخ غوما وأقنعه بأن يسمح له أن يقضي بقية أيامه بين أبناء قبيلته.

ومهما قيل فإن «الشبح» استطاع أن يفسد العرس، ويلغي المهرجان، ويجبر المهاري على الفرار، ويجعل تجمع النساء ينفض، مما اضطر الرجال أيضاً للانصراف بعد أن خرست الحناجر والألسن وسكتت الطبول.

بعد مضي عدة أسابيع التقى أماستان آيس، لأول مرة بعد عودته إلى المخيمات. تقابلا عند البئر عندما كان أماستان يتزود بحاجته من الماء وهو في طريقه إلى المرعى لقضاءعدة أسابيع كما تعود أن يفعل.

قال أماستان وهو يلقي بالدلو في أعماق البئر:

- هذا أنت آيس. لم أرك منذ زمان. لماذا تتحاشاني يا ترى؟

ولكن آيس لم يجبه. ظل يتطلع إليه من تحت حاجبيه المعقودين في حين احتقن وجهه بالدم والغضب.

اقترح أماستان:

- هل تذهب معي إلى المرعى؟

هز آيس رأسه بعنف علامة الرفض.

قال أماستان بصبر:

ـ لماذا؟ قيل لي أنك ذهبت مع جدّك إلى الجبل أكثر من مرة.

قال آيس باستفزاز:

ـ الجبل شيء والمرعى شيء آخر.

ـهكذا؟

ـ نعم. ثم إن أبي شيء وأنت شيء آخر.

ـهكذا؟

نعم. إنك خائن أردت أن تجلب الأعداء إلى الصحراء.

ابتسم أماستان تحت لثامه بمرارة قبل أن يقول:

ـ يا لك من شقي! يبدو أنك الحفيد الشرعي للشيخ غوما. هل غوما أخبرك بذلك؟

عاد آيس يكرر بنفس اللهجة الاستفزازية.

ـ أبي ليس في حاجة لأن يخبرني بشيء. الدنيا كلها تعرف.

ساد الصمت.

أخرج أماستان من جيبه مجموعة قطع من الحلوى ملفوفة في أوراق خضراء منقوشة بخطوط بيضاء زاهية. مدها إلى آيس قائلاً:

ـ خذ. هذه لك. لقد أتيت بها لك خصيصاً من وهران واحتفظت بها طوال الوقت.

هزّ آيس رأسه بالرفض.

تساءل أماستان في ألم:

ـ لماذا؟ أتيت بها خصيصاً. قطعت بها طريقاً طويلاً.

خطر له أن يقول: «مرّ عبر غات» ولكنه صمت فجأة.

قال الطفل بغضب:

ـ لاأريد حلوى الأعداء .

ظلت يده ممدودة بالحلوى في الهواء . تساءل كأنه يتوسل :

ـ لماذا؟

ـ من قال لي أنهم لم يدسوا فيها السم؟

ـ لا تخف. أنا على يقين. سأجرب قطعة أمامك وسترى بنفسك..

فك الورقة الزاهية ودس قطعة الحلوى في فمه. عاد يمد راحته بالحلوى للصبي قائلاً :

ـ هل رأيت؟ يجب أن تثق بي. أنا عم أبيك.

نكّس الطفل رأسه متردداً. ثم قال بقطعية :

ـ لا . لا أريد . هذه حلوى الأعداء .

ـ أنت عنيد . هذا عناد جدّك غوما . هذه لغته. هذه تربيته. هذا قلبه البارد . إن قسوته لا حدود لها .

أعاد الحلوى إلى جيبه وتمتم كأنه يخاطب نفسه :

ـ هذا مؤسف يا آيس. لقد كان أباك رحمه الله رجلاً آخر. أحبني كثيراً، وأحببته كثيراً. ولكن غوما تدخل في الأمر مرة أخرى وصحبه معه ودفنه في رمال « زلاف » .

مضى آيس.

عاد أماستان يتمتم تحت لثامه مخاطباً نفسه بصوت مسموع :

ـ نعم. إن قسوته لا حد لها .

جاء آيس لزيارة باتا فلم يجدها في بيتها. لجأ إلى خباء زارا المجاور فوجد باتا وحيدة تتدفأ بموقد خافت. هجم الليل وهجم معه برد المساء القاري. بدأ الخريف يعلن عن نفسه في الليل.

افتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة وأقعدته إلى جوارها. تساءل:

- أين زارا؟

- تبحث عني أم تتظاهر بالبحث عن زارا أيها الفارس العاشق.

ضحكت وهي تمد يديها نحو النار الخابية وتفركهما في حركة متواصلة.

قال آيس وقد توردت وجنتاه:

- بحثت في بيتك. مررت فلم أجد أحداً.

- زارا تعتني بزنجيتنا. إنها محمومة وطريحة الفراش منذ يومين.

ألقت بقطعتين من الحطب إلى النار وأضافت:

- زارا تقوم على العناية بها، وأنا أعتني ببيت زارا كما ترى.

ساد صمت يخرقه توجع الحطب بين ألسنة النار.

قال آيس:

- قابلت أماستان عند البئر وهو في طريقه إلى المرعى.

- حقاً؟!

- قدم لي الحلوى ولكني رفضت.

- لماذا؟

- أنا لا آخذ حلوى من يد خائن.

ضحكت بعصبية على غير عادتها، وقالت بتأنيب:

- هذا لا يجوز. إنه عم أبيك، بمثابة جدك تماماً. جاء بها إليك خصيصاً وسوف يؤلمه رفضك كثيراً.

- لا يهمني ألمه. سبب الآلام لأبي ومصرع عمي جبور، وسقوط عشرات القتلى والجرحى من قبائل الصحراء. لقد جاءنا غازياً مع الفرنسيس.

ـ إنك تتكلم بلسان جدك غوما. هذه لغته.

حدقت في نقطة محددة كأنها تحدق في الفراغ وقالت:

ـ يجب أن ننتحل الأعذار للخاطئين، والفرنسيس سوف يقتحمون الصحراء عاجلاً أو آجلاً، إذا لم يأت بهم أماستان فسوف يأتي بهم غيره، وإذا لم يأت بهم غيره فسوف يأتون بأنفسهم.

تناولت عوداً أكلت النار نصفه ورمته في قلب اللهب.

غمر الفرح وجهها مرة أخرى وغمزته بعينها وهي تقول:

ـ أو ربما فعلت ذلك بسبب الغيرة. إعترف أنك فعلت ذلك غيرة.

تورد خداه بحمرة الخجل. ابتسم بارتباك وهو يقول:

ـ هذا ليس صحيحاً.

ـ أنت غيور. أنت تغار منه لأنه تزوجني. ولكن لا تهتم. أنا ما زلت عند وعدي. سوف نتزوج في يوم من الأيام. عندما تكبر، وترتدي اللثام، وتجلس على السرج..و..

غرقا معاً في ضحكة طويلة.

عندما استأذن للانصراف سألها:

ـ ألن تذهبي إلى بيتك؟

ـ كلا. سأقضي ليلتي هنا.

ثم بدأت تتهيأ بدورها للنوم بعد أن أهالت التراب على النار المشتعلة.

نامت بمجرد أن وضعت رأسها على الوسادة.

لا تدري كم مضى من الليل لما سمعت صوت أخنوخن ولكن الظلام ما زال دامساً في غياب القمر. كرر مرتين:

ـ زارا؟ زارا؟ هل أنت نائمة؟

همت بأن تتكلم ولكنه استمر دون أن ينتظر جوابها:

- إن صمتك يقتلني. إنني أتعذب منذ زمن طويل.

- .....

- أمغار أيضاً يتعذب.. يجب أن تتخذي قراراً.

- .....

- لا ينبغي أن يستمر الأمر هكذا بلا نهاية. إن صمتك سوف يدفعني لأن أبارز أمغار وأقتله. إنه أخي الوحيد.

- .....

- يجب أن تصرحي بمن تحبين. وسينسحب أحدنا من حياتك. يجب أن تختاري: أنا أم أمغار! هذا هو الحل.

- .....

- بإمكانك أن ترفضينا كلانا. هذا شأنك. ولكن لا بد أن تعلني ذلك.

- .....

- هل تعلمين؟ قبل أن أذهب إلى حرب غات كنت قد اتفقت مع أمغار على حل حاسم: إذا لم تختاري أحدنا فسنذهب معاً إلى البئر.

صمت لحظة ثم أضاف بهمس:

- تدركين ما أعني. لقد قررنا أن نقفز معاً. ولكن وفاة الوالد في الحرب جعل هذا الحل غير واقعي. أنت تفهمين. الوالدة ستجن إذا فقدتنا جميعاً. إننا لا نستطيع أن نتركها وحيدة بعد غياب الوالد.

رفع صوته بأغنية قديمة شجية.

سكت زمناً.

ثم سمعته باتا يقول:

ـ الآن سأذهب بمفردي إلى البئر. أوربما ذهب أمغار بمفرده إذا شاء. وفاة الوالد حررتنا من الاتفاق الذي قيدنا به أنفسنا. في قرارك نجاة أحدنا الآن.

عاد يغني مرة أخرى.

بعد لحظات قال:

ـ نحن أسيران لديك. يجب أن تحرري أحدنا. ومن حقك أن تعتقينا كلانا. هل تريديننا أن نتبارز حقاً على اكتساب قلبك؟ لا أعتقد أنك قاسية. أنت مترددة. ترددك سوف يؤدي بنا إلى الهلاك، كما سيؤدي بك إلى الهلاك أيضاً.

عاد يغني. ثم توقف فجأة. أمسك بمعصمها وقال هامساً:

ـ الآن سوف أقرأ على رأسك آخر قصائد الغزل التي ألفتها أخيراً. اسمعي جيداً لأنني أريد رأيك.

ثم انطلق يترنم بالأشعار.

في الصباح انطلقت باتا تردد أن أخنوخن هو أكبر شاعر عرفه المعسكر وربما الصحراء كلها. قالت لجاراتها بحماس والدهشة تفيض من عينيها: «إنه ساحر، إنه أكثر من شاعر. لم أسمع غناء أشجى من غنائه، وصوتاً أصفى من صوته، وشعراً ألذ من شعره، وغزلاً أرق من غزله، وحديثاً أعذب من حديثه. إنه ساحر. ولن أدعه يفلت مني! سوف أتزوجه! نعم. سأتزوجه فوراً».

وقد انطلقت الشائعة، ككل شائعة، بسرعة الريح حتى بلغت أذني أماستان في المراعي قبل أن يقضي أسبوعه الثاني هناك.

«باتا قررت الزواج من أخنوخن. باتا عشقت أخنوخن بين ليلة وضحاها. باتا سوف تطلق أماستان قبل أن يمضي شهر على زواجهما».

هكذا رددت الألسن في طول المخيم وعرضه.

وكما وصل الخبر إلى سمع أماستان في المرعى بسرعة الريح جاء إلى المعسكر على جناح الريح. وقد هبت الريح بالفعل في ذلك اليوم. وزحفت السحب وسقطت أول قطرات مطر في العام كله.

لم يستمر المطر طويلاً. ولكن النصف الأخير من النهار استمر متجهماً بالسحب.

أزاح أماستان الأثقال والأمتعة عن الجمل وجلس في البيت ينتظر باتا التي كانت غائبة.

ملّ الانتظار فزحف نحو الموقد ليشعل النار ويشغل نفسه بإعداد الشاي. ساهمت السحب في الإجهاز على ضوء النهار. زحف الظلام حثيثاً.

جاءت بعد أن شرب الدور الأول.

قالت وهي تخفي قلقاً:

ـ لم أتوقع عودتك قبل انقضاء عشرة أيام أخرى. حسب علمي كنت تنوي أن تمكث ثلاثة أسابيع أو أكثر.

رمقها بنظرة حذرة. أعماقه تغلي كالمرجل. ولكنه قال محاولاً أن يكبح الغضب:

ـ سمعت أخباراً أزعجتني في خلوتي وجعلتني أعود قبل الأوان.

ساد صمت متوتر.

التفتت يميناً وحدقت في ألسنة النار في حين تابع:

ـ هل صحيح ما يقال؟ لا شيء يخفى حتى في الصحراء كما ترين.

ـ نعم. أعرف أن لا شيء يخفى حتى في أعماق الخلاء. وما سمعته صحيح.

قالت ذلك بإصرار.

صمت دون أن يكف المرجل في أعماقه عن الغليان. فجأة وجد نفسه يصرخ:

ـ إذا كنت تنوين الزواج من أخنوخن فما الذي أجبرك على الزواج مني بالله؟

أجابت بلا تردد:

ـ لا أدري. لم أكن عرفت أخنوخن عن قرب. وربما لسبب آخر لا أدري به

بنفسي.

استمر ينفجر في كلامه:

ـ هذا منطق أطفال. هذه مبررات صبيانية. لا يمكن أن يفكر امرؤ عاقل بمنطق كهذا. أنا لا أريد سوى الحقيقة.

ـ لم أقل لك سوى الحقيقة. يعلم الله.

قالت ذلك بلهجة مقنعة، صادقة.

عاد يتساءل والغضب ينهش قلبه.

ـ قولي شيئاً آخر. كنت أعلم أنك امرأة غريبة الأطوار. هذا ليس بسرّ على أحد. ولكن هل يعقل أن تبلغ بك الاستهانة إلى هذا الحدّ؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة غريبة لا معنى لها:

ـ سحرني. ربما أخنوخن هو الذي سحرني.

ـ هذه تخاريف وأوهام يخجل الأطفال أنفسهم عن تكرارها بصوت مسموع. قولي كلاماً غير هذا.

ـ قلت الصدق. لقد حدث معي ما حدث. لا بد أن أتزوجه. لا بد أن تطلقني. لقد اتفقت معه على الزواج وانتهى الأمر. يبدو أن هذا شيء مكتوب.

تطلع إليها بنظرة طويلة امتزجت فيها الدهشة بالاستنكار بالعتاب.

قال محاولا أن يهدىء من ثورته:

ـ ولكن هذا جنون. ماذا سيقول الناس؟ يجب الانتظار ولو عدة أشهر. ثلاث شهور، أربع، عام. ولكن...

قاطعته بلا رحمة:

ـ ولا أسبوع ولا اثنين. ولا حتى يومين. غدا. لا بد أن ننهي كل شيء في الغد، في الحال. خير البرّ عاجله.

- ولكن لم يمض على زواجنا حتى...

- أعلم. ولكن لا دفع للمكتوب...

- سبحان الله. ربنا يهديك...

- ربنا يهدي الجميع، ربنا يهدي من خلق...

سكت مرة أخرى محاولاً أن يكتم غيظه.

مدت يدها وصبت كوباً بارداً من شاي الدور الأول. رشفت منه رشفتين متلاحقتين ووضعت الكوب الصغير أمامها على الأرض.

قال وهو يجهد نفسه كي يجد تفسيراً لتصرفها:

- أعتقد أنني فهمت. أعتقد أنك لم تتزوجيني إلاّ لكي تشبعي رغبتك في الانتقام من غوما. ألا تعتقدين معي أن هذا هو السبب؟

صمتت قبل أن تقول:

- ربما. ربما. لا أنفي أنني على خلاف قديم مع الشيخ غوما. وربما فعلت ذلك نكاية به. ربما. ولكن لم أقصد إيذاءك. يعلم الله...

قال بلهجة تفيض ألماً:

- ولكنك سددت لي طعنة قاضية. طعنة أقوى من «طعنة غات»، حطمت ما تبقى من حياتي. ربما فعلت دون أن تعلمي، ولكن الواقع هو الواقع. لن أستطيع أن أرفع رأسي في وجه أحد بعد اليوم. لقد عرفت أن شيئاً كهذا سوف يقع منذ رأيت ذلك «الشبح» يوم العرس. إنه نذير شؤم!

صمت وتطلع إلى وجهها الساحر من تحت اللثام. كانت واجمة، ساكنة، مستسلمة، تتطلع بدورها إلى ألسنة النار الخافتة التي أخذت تخبو وتتضاءل.

في الخارج احتدم الرعد لأول مرة في ذلك العام.

❊ ❊ ❊

في ذلك اليوم اتخذ قراره.

فاض به الشقاء وتراءت له الأحداث الماضية دفعة واحدة. لقد تزوجته وبدل أن تجلب له السعادة ضاعفت شقاءه، وزادت على عاره عاراً آخر جديداً. اعتقد أنه يعزي بقية أيامه بامرأة فاتنة مثلها ولكن ها هي تنزلق بين ليلة وأخرى من بين يديه وتتجه نحو مخدع رجل آخر. فيا لها من فضيحة أخرى تضاف الى فضائحه السابقة التي حاول أن يتجاهلها طوال الوقت.

لم يعد أمامه إلاّ أن يواجه نفسه.

ضربة باتا الأخيرة قاصمة، لن يستطيع بعدها أن يظفر بامرأة واحدة ترضى به حتى لو كانت عرجاء، عمياء، أو عجوزاً شمطاء. فما هدف حياته بعد ذلك؟

إنها آخر امرأة.

آخر أمل.

لم يبق إلاّ أن يواجه الحقيقة التي أعطاها ظهره، وتجاهلها طوال الزمان الماضي. بالأمس أخبروه بعودة الشيخ غوما من غدامس فخطر له أن يذهب ويرتمي على قدميه ويطلب غفرانه، ولكنه تراجع.

في المساء ذهب ناحية البئر، ومشى حتى المقبرة الجديدة حيث ينتصب قبر أمه.

قرأ الفاتحة جاثياً على ركبتيه. تذكر أنه لم يفعل ذلك منذ زواجه من باتا.

طلب غفرانها بصوت مسموع.

عند عودته زحف الظلام. سمع تصارع الأطفال وهرج بعض الرجال. سمع أصوات نساء أيضاً تتجمع عند البئر. ولكنه لم يلتفت.

توضأ خارج البيت وكبر للصلاة. صلاة العشاء.

انتهى من صلاته وتذكر النوى الذي زرعه فوق قبر تارات. لقد أهمله تماماً. لم يسقه بالماء منذ مدة طويلة. قبل العرس بيومين. افترسته باتا تماماً حتى نسي أن يسقي النخيل الذي سيظلل قبرها. افترسته باتا وأنسته أن يزور قبر أمه على بعد

خطوات منه. ابتلعته وأنسته حتى نفسه. وها هي تلفظه دفعة واحدة بنفس السرعة المذهلة التي احتوته بها.

انتهى طيف النساء بانتهائها.

انتهى سحر الحياة.

انتهى مذاقها العذب الخفي، المجهول.

انتهى كل شيء.

تمتم بآيات القرآن وهو يدخل البيت ويبدأ في نزع ملابسه.

في الخارج سمع الطبول تقرع، وتناهى إلى سمعه أصوات النساء وهي تحاول أن تنتظم في انشاد لحن سماوي شجي.

ارتدى ملابسه الجديدة.

الملابس الزرقاء المصنوعة في كانو.

تمدد على الكليم مستلقياً على ظهره، واضعاً البندقية في حجره، منصتاً إلى إيقاع الطبول، ورنين «أمزاد»، وغناء النساء، وتصارع الرجال.

أحس برعشة في يده، ثم سرت الرعدة إلى كل جسمه. أحس ببرودة شديدة مفاجئة. بدأت أطرافه ترتعد. سارع يوجه الفوهة نحو رقبته عند الذقن. كل أطرافه تنتفض. سحب رجله اليمنى واقترب بإبهام القدم نحو الزناد.

الحمى في أوجها.

ضغط.

لم يسمع الدوي.

أحس بالسائل اللزج ينبثق. كتل رهيبة من الظلام تزحف على عينيه. و...
و.. أصوات النساء تنشد اللحن السماوي الشجي.

(٣٥)

قصد الشيخ خليل بيت الشيخ غوما مع الشروق.

وجده يتدفأ أمام الموقد في المدخل يرتل آيات القرآن. ألقى بتحية الصباح وتقرفص في مواجهته، في الجانب الآخر من النار. مد راحتيه فوق اللهيب ليدفىء يديه.

برد الخريف أعلن عن نفسه.

قال:

ـ البرد يشتد ولا يتراجع حتى مع الشروق. هذا ينذر بشتاء قاسٍ.

صاح الشيخ غوما ينادي الزنجية ويأمرها بإعداد الشاي.

قال خليل وهو يتطلع إلى غوما من طرف خفي:

ـ اليوم الجنازة.

علق غوما باقتضاب:

ـ أعلم.

سعل خليل وتمهل محاولاً أن يجد مدخلاً مناسباً لجس نبض الشيخ غوما. التفت يميناً ويساراً ثم عاد يقول بصوت كالهمس:

ـ كنت أريد أن أستطلع رأيك في شأن الصلاة على الجنازة. أنت تعلم..

قاطعه غوما بلهجة باردة ولكنها تنذر بالوعيد المكتوم:

ـ أنا أعلم وأنت تعلم. الصلاة على المنتحر لا تجوز. لست أنا الذي سنّ شريعة المسلمين.

عاد خليل يلتفت خلفه في ضيق. سعل سعالاً جافاً حاداً ثم التزم الصمت لحظات. لعن في نفسه الشيخ آهر الذي تأخر عن القدوم ووضعه في هذه المواجهة الحرجة مع غوما لوحده دون أن يستعين عليه بطرف آخر.

عاد يقول وهو يفرّك يديه فوق النار:

ـ لم أقصد هذا يا شيخ غوما. لا أحد يستطيع أن يشك في علمك بأمور الدين وبأمور الدنيا. ولكن المسامح كريم وهو الآن في دار الحق.. ونحن في دار الباطل.. لا يضيرنا في شيء إذا..

قاطعه غوما بلهجة حاسمة:

ـ إذاً، ماذا يا شيخ خليل ؟ لا شك في أن أحدنا يهذي ويقول ما لا يدري. والأرجح أن تكون يا شيخ خليل هو أنت الذي يهذي ولا يريد أن يكف عن الخترفة منذ الصباح الباكر. ألا تريد أن تعتقنا لوجه الله حتى نحتسي الدور الأول من شاينا على الأقل؟ ثم.. ثم ما دخل المسامح هنا؟ إذا سامحته أنا فلن يسامحه الله.

ـ استغفر الله.

ـ استغفر الله مرتين. لم أمسك يديه وأجبره أن يطلق الرصاص على ذقنه. فعل ذلك بنفسه ولا حيلة لي فيما حدث. وحتى لو سامحت فإن سماحي لن يفيد الآن، لأنه في دار الحق كما قلت.

ـ كنت أريد أن نتفق على نقطة أخرى في الواقع. لا يضيرنا أن نصلّي على الجثمان.

هب غوما غاضباً:

ـ يا سبحان الله. هذه مخالفة مبيتة ومتعمدة لتعاليم الإسلام. قلت لك لم أساهم في صياغة هذه التعاليم ولا أنوي مخالفتها أيضاً من أجل أماستان.

وصل آهر في تلك اللحظة فصاح قبل أن يلقي تحية الصباح:

ـ صلوا على النبي يا جماعة والعنوا الشيطان. الدنيا ما تزال صباحاً وأصواتكم تخترق الدنيا وتمزق آذان حتى الصم الذين لا يسمعون.

تمتم غوما وخليل في وقت واحد: «لعنة الله على الشيطان».
ولكن غوما قال بعناد:

- اشـهـد على هذا الرجل يا شـيخ آهر. يريدني أن أصلي على رجل رفع يده وأنهى حياة وهبها الله له. تعاليم الدين واضحة في هذا الأمر. إذا شئتم مخالفة التعاليم فهذا شأنكم، أما أنا فلن أصلّي ركعة واحدة.

ساد صمت طويل.

جاءت الزنجية بالشاي.

بدأوا يرشفون بصمت محاولين قراءة أفكار بعضهم بالتطلع إلى العيون المخبأة خلف أقنعة القماش. كانوا يتلصصون على بعضهم بعيونهم.

تساءل آهر:

- تستطيع على الأقل أن تسير معنا في الجنازة. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

حدجه غوما بنظرة غاضبة وهو يرشف الشاي إلى النهاية:

قال بصوت هادئ، ولكنه قاطع:

- هذا لن يحدث. لن أسير في الجنازة.

وبالفعل. تمت مراسم الجنازة دون مشاركة الشيخ غوما الذي اعتصم بالجبل على الفور. مكث هناك حتى المساء. وعندما نزل اتجه إلى الخيمة حيث يزأر أخنوخن الموثوق بالحبال كالأسد الذي وقع في المصيدة.

كان حاسر الرأس. محمرّ العينين، يعلو الزبد شفتيه وفمه، يتحلق حوله أمغار وبعض الشباب يحاولون تهدئته داخل الخيمة التي نصبوها واتخذوها مأوى يقضون فيه سهراتهم.

قال أمغار:

- إنه لم ينم منذ تلك الليلة. سوف يجن بعد قليل يا عمنا الشيخ.

قال شاب آخر تذكر الشيخ أنه رآه في حفلة تخليص القمر من الخسوف الذي ألم به في تلك الليلة:

ـ أسكرته الألحان يا عمنا الشيخ، ولن يعيده إلى وعيه سوى الألحان، ولكن المأتم سوف يستمر ثلاثة أيام على الأقل كما تعلم.

ظل الشيخ واقفاً، واضعاً يديه على خصره.

تساءل وهو ينظر في الأرض:

ـ من قال أن المأتم سيستمر ثلاثة أيام؟

ارتبك الشاب وقال متلعثماً:

ـ لا أدري. هكذا جرت العادة. هكذا قالوا لنا.

تمشى غوما أمام الخيمة جيئة وذهاباً وهو ما يزال يضع يديه في خصره. ثم توقف فجأة وأعلن يخاطب أمغار:

ـ يجب أن تذهب وتستدعي النساء الآن. يجب إقامة الحفل لتخليصه من عفاريته الآن.

وقف أمغار ذاهلاً. تساءل بعد صمت:

ـ ولكن يا عمنا الشيخ ماذا بشأن المأتم؟

ـ أي مأتم؟ لن يكون هناك مأتم. لقد دفنا أماستان منذ زمن بعيد و«جثته» لن تساوي ظفر أخنوخن. اذهب وأخبر النساء بما قلت الآن...

ثم أدار لهم ظهره وذهب إلى بيته.

***

بعد العشاء نهض أخنوخن وقال لأمغار:

ـ أريد أن أتحدث إليك على انفراد. سنلتقي عند البئر.

حدجته الأم بنظرة ذات معنى في ضوء نار المساء في حين لاذ أمغار بالصمت.

تقابلا بجوار البئر فقال أخنوخن على الفور:

ـ انني أتخلى لك عن زارا إلى الأبد!

بهت أمغار وعقدت المفاجأة لسانه لحظات. حاول أن يتبين وجه شقيقه في الظلام. قال وهو يبتلع ريقه بصعوبة شديدة.

ـ ماذا تقول؟ ماذا تعني؟

ـ أقول ما تسمع، وأعني ما أقول. لقد اتفقت مع باتا على الزواج. إنني أتخلّى لك عن زارا طائعاً. ما رأيك؟

ـ هل أنت جاد؟

ـ كل الجدية. ليس لدي مبرر لكي أمزح. اكتشفت أخيراً أن باتا امرأة ساحرة علاوة على جمالها الخارق. تصادقنا واتفقنا على الزواج. هل في هذا ما يستدعي الدهشة؟

استمر أمغار يحاول أن يتبين وجهه في الظلام. قال بتلقائية:

ـ اقترح أن نجلس قليلاً. أنت فاجأتني. لم أتوقع أن تتخلى عنها بهذه السهولة. وكنت أظن أنها سترتبط بك إلى الأبد. لقد فقدت الأمل فيها..

تقرفصا على الأرض بجوار البئر.

تناول أخنوخن حجراً وألقى به ناحية البئر. قال بعد قليل:

ـ أنا لم أتخل عنها. إنها فتاة غامضة خفية الطباع. ترفض طوال الوقت أن تبوح بمن تحب. حاولت أن أنتزع منها اعترافاً صريحاً بمشاعرها نحوي دون جدوى. قلت لها أكثر من مرة أن ترددها بيني وبينك من شأنه أن يودي بنا جميعاً إلى الهلاك. ولكنها تتملص وتتخلص في كل مرة ولا تريد الإعلان برأيها جهاراً. وكنت أنتظر أن تلمح لي، ولو مجرد التلميح، عن تعلّقها بي ولكنها لم تفعل، أو ربما لم تشعرني بذلك لا أعرف لماذا..

ـ النساء مخلوقات مجهولة حقاً. ولكن الذي فهمته أو قل أحسسته، أنها تميل نحوك. لم تصرح لي طبعاً ولكني أدركت ذلك بحدسي. إن التعامل مع النساء لا يمكن أن يكون صحيحاً بغير الحدس. خطأك أنك تحاول أن تنتزع من لسانها

اعترافاً صريحاً. إن ذلك يؤذي كبرياءها.

- لن أؤذي كبرياءها بعد ذلك. إنني أعلن انسحابي من الساحة.

احتضن أمغار ركبتيه المنصوبتين أمامه بذراعيه وتساءل:

- هل أخبرتها بذلك؟

ألقى أخنوخن بحجر آخر نحو البئر قبل أن يجيب:

- لم أفعل بعد. ولكن سأخبرها.

- ترى كيف ستكون ردة فعلها؟

- لا أعرف.

هجم الصمت.

داخل المخيمات تعالت أصوات أطفال.

تساءل أمغار بصوت هامس:

- ولكن هل تعتقد أنها يمكن أن ترضى بهذا الأمر؟

- أي أمر؟

- تنازلك عنها سيحطمها.

- لماذا؟ إنها مترددة بيننا، وقد تعمدت أن أحسم الأمر قبل أن نغرق جميعاً.

هذا أفضل لها ولي ولك. أفضل حل للأطراف الثلاثة.

ساد الصمت مرة أخرى.

قال أمغار بصوت واهن كأنه يخاطب نفسه:

- أخشى ما أخشاه أنها هائمة في حبك. إنها سترفضني ولن تقبل بغيرك.

قال أخنوخن:

ـ هذا شأنها. أما أنا فقد قررت...

***

جاء آيس إلى غوما راكضاً. قال من بين أنفاسه المتلاحقة المتقطعة:

ـ يقولون ان مستوى الماء قد انخفض في البئر. الرجال هناك يطلبون مشورتك!

انتفض الشيخ وهمهم وهو يقفز واقفاً:

ـ مستحيل! يجب توقع ارتفاع الماء مع اقتراب فصل الشتاء!

أقبل نحو البئر فوجد جمهرة من الرجال. وقف آهر وسطهم وهو يلقي بالدلو في المتاهة.

تساءل غوما:

ـ هل صحيح ما يقال؟ إننا نقترب من الشتاء والمفروض أن يحدث العكس.

قال آهر وهو يسحب الدلو من البئر:

ـ كما ترى. لاحظ الرعاة ذلك أثناء سقي قوافل الإبل يوم أمس.

صاح غوما دون أن يخفي قلقه:

ـ هذا غير معقول. ربما استنزفوه. هذا أصح.

علق آهر:

ـ إذا استنزفوه بالنهار فيجب أن يستعيد مستواه السابق أثناء الليل. هذا ما يحدث دائماً.

بدأ الرجال يتقاطرون. جاء خليل أيضاً.

أمر غوما:

ـ هاتوا حبلاً. أسعفوني بحبل طويل. أطول حبل.

انصرف أحد الرجال وعاد بكتلة كبيرة من حبل مفتول من ليف النخيل.

قال غوما وهو يلقي بطرف الحبل في البئر ويتشبث بالطرف الآخر:

ـ هكذا نستطيع أن نفحص مستوى الماء.

تبادل الرجال نظرات قلقة. قال غوما مطمئناً:

ـ لا أعتقد أن الأمر بهذه الخطورة. لماذا التهويل؟ نحن نعشق التهويل والمبالغة عشقاً.

بدأ يسحب طرف الحبل من البئر.

تعلقت الأنظار بالجزء المبتل من الحبل بعد أن انتزعه تماماً من الماء.

بدأ غوما يقيسه بين ذراعيه. ثم انحنى فوق آيس وبدأ يقيس الجزء المبلل بقامته.

قال بصوت حاول أن يكون بارداً:

ـ مستوى الماء أقل من قامة آيس بقليل. بشبر ونصف.

ثم أضاف وهو يلقي بالحبل على الأرض:

ـ لا شيء يدعو إلى القلق. سنعيد الفحص غداً عند الصباح الباكر قبل أن يبدأ الأهالي في استنزافه.

أجال بصره بين الرجال وعاد يقول:

ـ هذا طبيعي. هذا يحدث دائماً. إن النهر الذي يجري في جوف الأرض ويستمد منه البئر ماءه يمر بمراحل مثل هذه. يخضع فيها المجرى للانخفاض والارتفاع.

ولكن في طريق العودة إلى البيت قال له آيس:

ـ ولكن ألم تقل يا أبي أن البئر ينضب كل ثلاثمائة عام؟

حدجه غوما بنظرة قلق. قال بعد لحظة تفكير:

ـ نعم. ولكن هذا في الأسطورة. هكذا تقول الأسطورة.

صمت الطفل ثم عاد يقول وهو يتشبث بيد جده:

ـ قلت أيضاً أن ذلك يقاس بعدد مرات خسوف القمر.

تمتم غوما بعد تردد:

ـ نعم. اعتقد ذلك.

قال آيس بإلحاح:

ـ أتذكر الخسوف الأخير؟ ربما أكمل العدد اللازم فبدأت المياه تتراجع في بئرنا. لقد مرّ أربعون يوماً على الخسوف الأخير.

توقف غوما فجأة. نظر إلى آيس كأنه ينظر في الفراغ. عاد يمشي دون أن يعلق بكلمة.

(٣٦)

لم يمض شهر واحد على زواج أخنوخن من باتا حتى أعدت الترتيبات لعرس أمغار وزارا. دبت الحياة في السهل. تجمعت صفوف الرجال والشيوخ والأطفال، وأخذت النساء مكانهن في الوسط، وجلس الفرسان المتوجين بالعمائم الكبيرة الزرقاء على السروج المزركشة المثبتة على ظهور المهاري الضامرة المتعطشة للرقص.

علا إيقاع الطبول والموسيقى، وتردد الغناء في ألحان منسجمة، منتظمة فتحركت المهاري الراقصة، متهادية، متناسقة، حتى تتقاطع عند حلقة النساء، في المركز، وتتابع رقصها المترنح حتى تلتحق بمجموعة المهاري التي تقف في الجانب الآخر منتظرة فرصتها للانطلاق المعاكس.

في الخباء انهمكت باتا، تساعدها مجموعة من النساء، في إعداد العروس لاستقبال حياتها الجديدة.

بدأت تمشط شعرها الكثيف الذي انسدل على ظهرها وكتفيها كقطعة من ظلام ليلة دامسة.

قالت باتا بلهجة مفاجئة:

- هيا ابك. لماذا لا تبكين؟ إن كل الفتيات يبكين في مثل هذا اليوم حتى يشبعن بكاء!

غمزت بعينها الخضراء الساحرة وأضافت ساخرة:

- علينا مراعاة تقاليد القبيلة حتى لا يغضب الشيخ غوما!

ابتسمت زارا بحزن ولكنها ظلت صامتة، ساهمة، زائغة البصر.

جاءت الزنجية بقدر كبير من الماء. ووضعته بجوار باتا وتناولت جردلاً وعادت تتجه نحو البئر. قالت إحدى النساء التي تولت مهمة إعداد الشاي:

- اسمعن يا نساء القبيلة. اسمعن! باتا تحرض ابنتها على البكاء. نحن لم ننس ما يقال عنك عند زواجك الأول. لقد انتابك الضحك بدل البكاء. قمت بالارتماء في أحضان الرجل بدل الهرب ليلة الزفاف. نحن لم ننس هذه الواقعة حتى الآن!

ضحكت النساء وضحكت باتا أيضاً.

بدأت تضفر شعر زارا الغزير في جدائل كبيرة مستعينة بزيت الزيتون لترطيب الشعر وإعطائه البريق والليونة.

قالت:

- أنا شيء وزارا شيء آخر. زارا ابنة أبيها. إنها تختلف. أليس صحيحاً ما أقول يا زارا؟

ولكن زارا لم تجب. ظلت صامتة، ساكنة، زائغة العينين، مستسلمة ليدي أمها التي تعبث في شعرها بقسوة.

عادت المرأة التي انكفأت على تحضير الشاي تقول:

ـ ولكن الغزالة الوليدة للتو تقتفي أثر الأم. ربما فاجأتنا زارا الليلة بعمل كعمل باتا!

ثم هددتها بسبابتها مازحة وأضافت:

ـ إياك أن تفعلي شيئاً كهذا! سوف نموت كلنا من الخجل!

تضاحكت النساء مرة أخرى ولكن زارا ظلت غائبة العينين، متشبثة بالصمت، منكمشة على نفسها كأنها تساق إلى المذبح.

عادت المرأة تقول:

ـ سحر المرأة في الخجل والتمنع. إذا فقدتهما فلا فرق بينها وبين الرجل. إذا فقدتهما فقدت سرها الأعظم الذي يجعل الرجل يركع تحت قدميها. ولهذا السبب اخترعت قبائل الصحراء هذه العادة المجيدة ليلة الدخلة: تبكي العروس طوال اليوم وعندما يزف موعد دخولها على عريسها تهرب! هذه أشياء تعطيها تفوقاً أبدياً على الرجل.

عادت الزنجية بجردل الماء. وضعته بجوار باتا وخرجت. قالت باتا وهي تعقد ضفيرة أخرى كبيرة:

ـ إذا كانت الدموع لا تريد أن تلبي دعوتك فاهربي على الأقل. سوف نتيح لك فرصة للهرب، لا تنزعجي. الهرب أمر ضروري، اسمعي الكلام. لا تتخذيني قدوة في مثل هذه الأشياء. أنت شيء وأنا شيء آخر. أنت من طينة وأنا من طينة أخرى. أنت لست أنا وأنا لست أنت. إننا شخصان مختلفان.

عادت الزنجية بمجموعة من الأغطية وضعتها بين القدر والجردل المليئين بالماء. خرجت مرة أخرى.

قالت باتا بإعجاب وهي تنتهي من عملها البارع في ضفر جدائل العروس:

ـ انظرن بالله إلى هذه الضَفائر! سبحان الله ما أجملها! هذه الضفائر الوحيدة التي تنافس ضفائري!

في الخارج تناهى إيقاع الطبول، ورنين «أمزاد» وأصوات النساء التي ترتفع

بالغناء تبتعد وتقترب حسب اتجاه الريح.

قدمت المرأة أكواب الشاي المتوجة برغوة كثيفة على طبق فضي.

شربت باتا الكوب في ثلاث رشفات، ثم انهمكت تنزع ملابس زارا.

لاحظت المرأة المشرفة على إعداد الشاي:

- زارا هي المرأة الوحيدة التي تنافسك في الجمال في كل القبيلة. الحق يقال.

ابتسمت باتا وتمتمت بغبطة:

- قولي الحق يا تيلي! قولي لهن الحق! أعيدي ما قلت حتى لا ينكرن قولك بعد قليل.

تضاحكت النساء لدعابة باتا التي انتهت من نزع كل ملابس زارا، فوقفت الفتاة بينهن عارية تماماً بجسدها الجميل الريان وصدرها المدور النافر كأنه يرمي بقفاز التحدي في وجوه كل رجال العالم.

قالت تيلي وهي تتفحص جسد الصبية البكر:

- ما أسعد الرجل الذي سيمتلك هذا الجسد! ما أسعد أمغار هذه الليلة! ترى هل يستحق كل هذه النعمة شاب طائش مثله؟

كانت عينا تيلي تقطران حسداً وإعجاباً بتقاطيع الجسد الطري.

بدأت باتا والعجوز الزنجية تتعاونان في تحميم زارا. باتا تدلق الماء والزنجية تدلّك جسدها العاري بقطعة من الليف المغمور برغوة الصابون.

تمتمت باتا:

- أمغار شاب نبيل. إنه يستحق زارا وإلا لما أعطيتها له أبداً.

قالت تيلي:

- تقولين ذلك لأنه شقيق أخنوخن.

- لا والله.

ـ لا شك أن أخنوخن أنبل وأرجل. إنه فارس ومحارب.

تمتمت باتا بحياء وقد غمرت وجنتيها حمرة خفيفة.

ـ أخنوخن شيء آخر.

تبادلت النساء نظرات طويلة صامتة قبل أن يفلت لسان تيلي:

ـ لقد اختطفتيه منها. كلنا نعرف أن زارا تحب أخنوخن!

توقفت باتا عن مزاولة نشاطها في دلق الماء على جسد الفتاة فجأة. تجولت بعينيها بين وجوه الحاضرات كأنها تبحث عن نجدة حتى وقعت على وجه زارا لترى وقع كلام تيلي عليها. كانت الدموع تنهمر من مقلتيها في خطين صغيرين يخرقان الوجنتين، يسيلان حتى يمتزجا بالماء الذي يغمر جسدها.

* * *

في الليل بدأ البحث عن زارا.

ظلوا يبحثون حتى انبعثت خيوط الفجر الأولى.

بحث الشباب.

بحثت النساء والصبايا.

بحثت حتى العجائز.

لم يعثروا لها على أثر.

بحثوا في البيوت، وتحت حذاء الجبل، وفي العراء المجاور، وبين المقابر. فتشوا في كل مكان.

بحثوا حتى شعروا بالملل وهاجم جفونهم النعاس.

التقى أخنوخن بأمغار فوق المرتفع أثناء البحث، تساءل أخنوخن:

ـ لا يجوز لك أن تترك فراش العرس شاغراً. هذا فأل سيء. كان من الواجب أن تترك البحث لنا.

قال أمغار بقلق:

- ولكن البحث طال. لم يحدث أن هربت فتاة أثناء عرسها وغابت طوال هذه المدة. لم أسمع بفتاة بحث عنها حتى الصباح.

- في الصحراء يحدث كل شيء. لا تقلق. سوف نجدها. ثم إن الصباح ما زال بعيداً. هذا الفجر المبكر فقط.

صمت ثم تساءل بعد لحظة:

- ولكن لم تخبرني. ماذا قالت عندما عرضت عليها الأمر؟

- أي أمر؟

- أمر انسحابي وأمر زواجك منها.

طأطأ أمغار رأسه لحظات ثم قال بصوت غامض:

- لا أدري. ولكنها لم تعترض كعادتها. لم تحسم الأمر كعادتها. ماذا تريد أن تقول بهذا السؤال؟

- لا شيء. أريد أن أفهم موقفها بالضبط، هذا كل ما في الأمر.

ردد أمغار بمرارة:

- موقفها؟ إنها لم تعلن عن موقفها في يوم من الأيام. سبحان الله كم هي غامضة!

بدا بلباسه الأزرق الفاخر كطائر غريب مهيب في عتمة الفجر.

اقترح أخنوخن وهو يتجه نحو البئر:

- يجب أن نواصل البحث. سنذهب ناحية البئر.

انتفض أمغار:

- ناحية البئر؟ وما عساها تفعل ناحية البئر؟

قال أخنوخن دون أن يتوقف عن المشي:

ـ وما عسى المرأة تفعل في أي مكان ليلة الدخلة؟ إنها تبحث عن أي حفرة تكفل لها الاختباء عن أنظار الناس.

عاد أمغار يتساءل بعناد طفل كأنه لم يسمع جواب أخيه:

ـ وما عساها تفعل ناحية البئر؟

* * *

عثروا على الجثة طافية فوق الماء.

تجمعوا حول البئر في جمهرة كبيرة من النساء والرجال. أقبلت باتا نحو الجسد المنفوش المسجى على الأرض.

انكفأت فوقه صامتة زمناً، ثم شرعت تلثم أطراف زارا الباردة الواحد تلو الآخر. قبلت حتى قدميها، ثم تسللت بشفتيها وقبلت جبينها، ومدت أناملها تعبث بشعرها المعقود في ضفائر العرس التي ضفرتها بنفسها بالأمس.

رددت بنبرات واضحة:

ـ يا خسارة. يا خسارة. خسارة هذه الضفائر، خسارة هذا الجمال. خسارة هذه القامة، خسارة. خسارة. لقد شجعتك على الهرب ولكنك هربت إلى الأبد. فلماذا فعلت ذلك يا زارا؟ لماذا لم تخبريني يا زارا؟ لماذا خبأت عني حياتك كلها؟ لماذا لم تجعليني أشاركك شقاءك مرة واحدة؟ أنت وحيدتي وعشت معي غريبة طوال حياتك. الآن فهمت كل شيء.. الآن بدأت أفهم كل شيء.. خسارة... خسارة...

جاء الشيخ غوما يخترق صفوف الرجال والنساء الذين وقفوا فوق رأس الأم الجاثية فوق الجثة. أزاح باتا بحركة من يده. بدأت تنشج في شهقات أليمة. أمر الشباب بحمل الجثة إلى الخيمة.

بدأت الجموع تتحرك نحو الخيمة. في تلك اللحظة تقابل الشيخ غوما مع أمغار وجهاً لوجه.

وقف الشيخ يتفرس في وجهه وملابسه الزرقاء الفاخرة. ملابس العرس. تبادلا نظرة طويلة.

لاحظ الشيخ في نظرته الجامدة، ألماً وشقاء ودهشة!

(٣٧)

لم يمر وقت طويل حتى حدث مع أخنوخن ما حدث.

أصبح صموتاً واجماً ساهماً لا يرد على أسئلة جليسه إلاّ بكلمة واحدة وحيدة: «عجيب..» يتطلع إلى الأفق البعيدة كأنه يحدق في الفراغ. هجر النوم جفنيه، فاحترف السهر في الليل حتى اضطرت باتا أن تهجر مخدعه وتلجأ للنوم في بيت المرحومة زارا.

أرجع البعض السبب إلى ليلة الخسوف، فأكدوا أن ما أصابه قد أصابه منذ تلك الليلة عندما سقط يتلوى على الأرض من فرط الوجد، فانتهزت العفاريت، المتربصة دائماً، الفرصة فركبت رأسه خاصة وأنه ظل ملقى في الخيمة مقيداً بالحبال يعاني السكرات طوال ليلتين دون أن يهب الخلق لنجدته بالأغاني والألحان كما جرت العادة. وبسبب انتحار أماستان كان في الإمكان أن يظل أياماً أخرى لولا تدخل الشيخ غوما.

ودعّم هؤلاء كلامهم بما أصاب عقله من خلل عندما جاء إلى شقيقه أمغار وأعلن له بين ليلة وضحاها تنازله عن حبيبته زارا وقراره في الزواج من أمها دون سبب مقنع يبرر هذا التصرف المفاجىء.

ويذهب البعض فيقول ان أخنوخن أصابه ما أصابه بعد انتحار الفتاة. وليس لليلة الخسوف أي دخل في الأمر. لقد لحقته «لعنة زارا» التي قررت أن تنتقم منه بعد موتها فنزعت الكلام من لسانه، والعقل من رأسه، والحب من صدره، حتى أصبح رجلاً بائساً، نحيلاً كالخيال، غائر العينين، مهمل اللباس، هياباً كالأبله، بعد أن كان رجلاً نبيلاً، وفارساً شجاعاً يضرب به المثل في الأناقة وقوة البدن، وجمال الطلعة مما جعله فارس أحلام كل صبايا القبيلة.

إنها «لعنة زارا»!

ولكن ثمة آخرون يؤكدون أنها «لعنة باتا»!.

باتا «ابنة الشيطان» التي قتلت أبيها بيديها، ونحست أمها ولحقت اللعنة زوجها الأول فقتل في معركة مع قبائل بامبارا في الأدغال. وطمع فيها أماستان فانتحر. وها هي تستولي على أخنوخن وتختطفه من بين يدي ابنتها الوحيدة فيجازيها الله أن يحول الرجل الفارس النبيل، الشجاع إلى شبح مسكين بائس معقود اللسان ولا يعرف من مفردات اللغة سوى كلمة واحدة هي: «عجيب...» يرددها بمناسبة وبلا مناسبة حتى أطلقوا عليه اسم: «أخنوخن العجيب».

أما باتا فقد كان لها رأي آخر.

أشاعت بين نساء المعسكر أن المصيبة التي لحقت بأخنوخن ما هي إلاّ مؤامرة دبرتها النساء الخبيرات بفنون السحر، الحاقدات على زواجه منها واللائي كن، منذ البداية، طامعات في اختطافه والاستيلاء عليه. والمس الذي أصابه من تدبير أيديهن. والغريب أن أم أخنوخن دعمت هذا الرأي وساعدت في إذاعته ونشره بين الأهالي في القبيلة برغم أنها لم تكن راضية على زواجه من باتا في البداية وحاولت بكل الوسائل إقناعه بالعدول عن هذه «الحماقة» - كما أسمتها - دون أن تجد آذاناً صاغية من ابنها. ولخص فريق آخر مأساة أخنوخن في كلمة واحدة:

«العين». طالته عين حاقدة حسود خطفت عقله وعطلت لسانه. بل مسحت الكلام على لسانه باستثناء كلمة واحدة: «عجيب...».

تولاّه الشيخ غوما في الأيام الأولى عندما اعترته «الحالة» وسهر على رأسه ليلة كاملة يرتل القرآن ويقرأ الأوراد حتى مطلع الفجر.

ولما لم يساعد القرآن في شفائه ولم تنقذه الأوراد والتعاويذ لجأ الشيخ خليل للنار وكواه في مؤخرة رأسه بسيخ متوهج كالجمر ليقتلع الشر من الجذور على حد قوله. وعندما فشلت كل المحاولات والجهود لإشفائه وإعادته إلى عقله ساقه أمغار بالقوة للإقامة في بيت أمه.

مرّ أسبوع وطالبت باتا بالطلاق.

* * *

خرج آيس من البيت مع الأصيل. نزل المرتفع فرأى مجموعة من الرجال تتجمع حول البئر تنشغل في اختبار مستوى الماء. تجاوزهم من الناحية الأخرى الملاصقة للجبل. مشى عبر السفح عازماً أن يعيد المحاولة لتسلق الجبل معتمداً على نفسه. ولكنه وجد أخنوخن يجلس وسط المقبرة يرتدي أسماله البالية كالمتسوّل ويرفع رأسه. ينظر أمامه في نقطة محددة، كأنه يحدق في الفراغ اللانهائي.

هتف آيس وهو يقترب نحوه خطوات:

- أخنوخن! ماذا تفعل هنا؟

لم يجب. استمر يحدق في الفراغ دون أن يلتفت نحوه كأنه لم يسمع.

عاد آيس يتساءل:

- هل قضيت ليلتك في المقبرة؟ إن هذا لا يليق برجل مثلك.

ظل أخنوخن محتمياً بالصمت. لاحظ آيس أن القبر الذي يجلس بجواره هو أحدث قبر. قبر زارا.

هتف كأنه اكتشف قلة من الذهب:

- آه! هذا قبر زارا! أنت تتوسد قبر زارا في الليل.

غرس آيس ركبتيه في الرمال في مواجهته وتابع اللعاب الذي يسيل من فمِ أخنوخن. انحسر عنه اللثام فظهر جزء من لحية كثة سوداء مهملة تنامت وترعرت في الأيام الأخيرة. إنه يبدو - الآن - كالدرويش!

قال آيس:

- أريد أن أخبرك بشيء يهمك.

لم يلتفت أخنوخن فأضاف آيس:

- لقد سألتني مرة عن الحديث الذي دار بيني وبين المرحومة في المرعى:

أتذكر.

حرك أخنوخن رأسه لأول مرة، وتراجع البياض الذي كان يسيطر على مقلتيه طوال الوقت وحل مكان الاحمرار سواد طارىء.

أضاف آيس وهو يدرس تأثير كلامه على جليسه:

ـ في ذلك اليوم اعترفت لي أنها تحبك أنت!

كان يحدق في اتجاه محدثه هذه المرة. وفجأة أصدر صوتاً غريباً حاداً كثغاء الجديان، ومد رقبته إلى الأمام وندت عنه الكلمة كصيحة طويلة موجعة:

ـ عجـ .. يـ .. يـ .. ب!

استمر لحظات ماداً رقبته نحو آيس. ثم اعتدل في جلسته وعاد يحدق في الفراغ بنظرته الغائبة.

قال آيس وهو يحدجه بقلق:

ـ إذا كنت تحبها إلى هذا الحد فلماذا هجرتها فجأة وتزوجت أمها؟

ولكن لم يجب.

قال آيس:

ـ لقد قتلتها. أنت الذي دفعها لتفعل بنفسها ما فعلت!

لاحظ أن البياض يكتسح عينيه الغائبتين المعلقتين في الفضاء.

عاد آيس يقول:

ـ سألتها أيضاً عما إذا كانت تحب أمغار فأجابت: «لا أدري».

صمت لحظات.

أضاف:

ـ هذا يعني أنها تحبك وحدك. لقد استحلفتني ألاّ أخبر أحداً بما قالت. ولهذا السبب لم أستطع أن أخبرك بالحقيقة في ذلك اليوم.

لم يجب.

لم يتحرك.

لم يصدر عنه ما يشير إلى أنه موجود.

كان غائباً.

* * *

قرر أن يؤجل تسلق الجبل فاتجه إلى بيت باتا. في الطريق رأى «أبيه» مع حشد من الرجل ينهمكون في اختبار الماء في البئر.

وجدها تجلس داخل سور الجريد وتغزل خيوط الصوف. افتر ثغرها عن ابتسامة شاحبة خفيفة وهي ترحب قائلة:

ـ هذا فارسي الصغير. لقد هجرتني. لا أراك إلا في المناسبات كأنك لا تقيم خطوات من بيتي. هل تقيم في غدامس أم في آهجار حتى تعاملني بهذا الجفاء؟

أجلسته بجوارها وأمسكت يده بيديها الاثنتين وأضافت وهي تتفرس في وجهه بعينيها الخضراوين الكبيرتين:

ـ آن الأوان لكي ترتدي لثاماً. الوقت قد أزف. ستكون زوجي القادم. لقد كبرت ويجب عليك أن تعد العدة. حذار، إنني لا أمزح!

ألقت برأسها إلى الوراء في ضحكة قصيرة فسقط لحافها على الأرض وظهر شعرها الفاحم الغزير كأنه اقتطع من ظلام الليل.

عادت تقول:

ـ إنه دورك. جاء دورك وآن لي أن أفي بوعدي.

ظل قلبه يخفق وهو يسمعها تقول ذلك حتى أن الشك غمره في أن يكون ما يسمعه حقيقة. هذا شيء كالحلم.

نهضت وجاءت له بالحليب والتمر وقطع من خبز الملآل.

قال وهو يتناول قطعة:

- قابلت أخنوخن في المقبرة.

- حقاً؟!

- إنه يقضي لياليه متوسداً قبر زارا. مسكين!

- حقاً؟!

تجهم وجهها ولاذت بالصمت. عادت تغزل الصوف ثم توقفت فجأة وأعلنت:

- إنه رجل نبيل وكريم وشجاع. كنت سعيدة معه ولكن النساء الشريرات دبرن له هذا المصير. النساء اللاتي يتعاطين السحر. حسدنني في أخنوخن، وعندما يئسن من اختطافه جاهدن للقضاء عليه.

عادت تدير المغزل في يدها بحركة سريعة، خبيرة.

* * *

قالت الزنجية العجوز وهي تضرب كفاً بكف:

- سممت عقله. اختطفت قلبه الصغير. ابنة الشيطان!

أنزل الشيخ غوما لثامه حتى كاد يغطي عينيه وتساءل بذهول:

- ولكن منذ متى؟

- لا أدري. لقد بدأ يخترف في الليل، ويهذي باسمها منذ زمن. لم أعتقد وقتها أن الأمر يمكن أن يكون بهذه الجدية. إنه مسلوب الإرادة، يبني أحلاماً غريبة ويعتقد أنه سيتزوجها. المجرمة. لم أتصور في يوم من الأيام أن تسقط إلى هذا الحضيض. لم يكفها أخنوخن المسكين، ولم يشبع ظمأها أماستان فقررت أن تشبع نهمها الوحشي بالصغار. تريد أن تستولي علىآيس. أدركه يا سيدي الشيخ إنه في خطر!

بدأت تنتحب في حين قال الشيخ وهو يرفع في وجهها سبابته مهدداً:

ـ هذا كله بسببك. هذا ذنبك. أوكلتك رعاية الطفل كلياً واعتمدت عليك في كل شؤونه. كنت مطمئناً عليه بين يديك وها أنت تأتيني بالبشرى: سلمته لبراثن باتا! هكذا بكل بساطة! هذا ذنبك!

* * *

زارها بعد منتصف الليل.

قالت والدهشة تغمر وجهها:

ـ هذه معجزة. لا شك أنها معجزة. الشيخ غوما في بيتي! متى كانت آخر مرة. هل تذكر؟ منذ عشرين عاماً أو أكثر؟

ـ وكان بالإمكان ألاّ تطأه قدماي إلى الأبد لولا ما علمت أخيراً من عزمك على اختطاف الأطفال بعد أن مللت تحطيم الرجال ودفنهم في القبور. لم أتوقع أن تصل بك الوحشية إلى هذا الحد.

ابتسمت بمرارة وقالت بهدوء:

ـ المفاهيم تختلف وأنت لم تتغير. ما تراه أنت وحشية أراه أنا حناناً.

صمتت ثم تساءلت:

ـ هل أحضر الشاي؟

رفض الاقتراح بحركة من سبابته وقال ساخراً:

ـ حنان! أي حنان! إنه لا يعامل عواطفك على أنها حنان فلا تحاولي أن تتستري.

ـ هذا تفسيرك أنت. إنه في حاجة إلى دفء الأم. كان محروماً من رعايتها وحنانها طوال عمره.

ألقت بالحطب إلى النار وأضافت:

ـ إنه لم يعرف أماً ولا أباً ولا جدة ولا جداً. فكيف تريده ألاّ يبحث حوله عن الحنان المفقود؟

ـ أراهن أنه لا يفكر في الأمر كما تفكرين.

تابع النيران المتصاعدة وهي تلتهم أعواد الحطب وأضاف وقد تهدج صوته:

ـ أنا لا أنكر أنه وحيد. ولكني لم أبخل عليه بشيء أبداً. حياتي كلها مكرسة له وحده.

هتفت باتا ساخرة:

ـ حياتك مكرسة له؟! هذا مضحك يا شيخ غوما. كم كلمة بالله تبادله في الأسبوع؟

فوجيء بالسؤال فتساءل بدوره:

ـ وما دخل الكلام هنا؟ العبرة ليست بالكلام ولكن بالشعور الكامن هنا في القلب.

ـ يبدو أنك نسيت أنه طفل ولا يستطيع أن يتخيل مشاعرك التي تختزنها له في قلبك.

ـ أنا على يقين، ولهذا قررت أن أمنحه الحنان الذي افتقده طول حياته.

ـ ربما.

ـ أنت تبالغين والطفل لا يستطيع أن يدرك بعقله الصغير ما تفكرين فيه. أنا أعرفك. سوف تجدين المبررات دائماً لكي تسيري في طريقك إلى النهاية. لقد دمرت أنبل شاب في القبيلة وتريدين أن تفترسي آيس. أنت تريدين تدمير القبيلة بكاملها...

ابتلع ريقه ورفع سبابته في وجهها محذراً:

ـ حاذري. إنني لن أسمح بذلك.

ضحكت بمرارة في حين أضاف بوحشية:

ـ لقد التزمت الصمت طوال السنوات الماضية. ولكني لن أسمح بأكثر من ذلك.

قالت ساخرة:

ـ هل جئت ترمي بقفاز التحدي في وجه امرأة يا شيخ غوما؟ ألا ترى أن ذلك عار يمكن أن يلصق بك إلى الأبد؟

: إنني ألقي بقفاز التحدي في وجه الشيطان!

ـ الرجال سوف يعيبون عليك ذلك. احذر!

ـ لن يعيب علي الرجال الوقوف في وجه امرأة سقطت إلى أسفل قاع.

ـ أنت تفعل ذلك لأنني أجاهر بمعارضة خططك وأفكر بأسلوب يختلف.

ـ أنا أفعل ذلك كي أمنعك من تدمير القبيلة.

ساد بينهما صمت طويل. كان كلاهما يسترق النظرات نحو الآخر في ضوء النار الملتهبة.

عاد يقول بصوت غامض:

ـ لو قبلت اقتراحي منذ عشرين عاماً لتغير كل شيء.

ـ لا أعتقد. بل أجزم أنه لن يتغير شيء أبداً. أنت إنسان وأنا إنسانة أخرى. بل ربما انتهى بي المطاف إلى قاع البئر! بحثك عن وجه الله أعماك عن رؤية شيء آخر.

ـ كنت أبحث عن نفسي.

ـ وما هي النفس إن لم تكن مرآة الله؟ إذا وجدتها وجدته وإذا فقدتها فقدته. أنت أعلم مني بهذه الشؤون.

ساد الصمت. تآكل الحطب وانبعث ضوء خافت ضئيل من الجمر المتوهج في الموقد.

قال الشيخ:

ـ كلنا يبحث عن المعجزة على طريقته. المعجزة هي هدف حياتنا. كلنا ينتظر

تلك اللحظة التي يرفع فيها الحجاب وتنكشف الحقيقة كنت ـ كغيري ـ أجري وراء هذا الحلم.

ـ أعلم. جريك وراء هذا الحلم هو الذي أوصد أول باب في وجه حلمنا المشترك. لقد رجوتك أن تبقى. كان ذلك شرطي الأول وربما الوحيد في بناء لغتنا المشتركة، ولكنك سارعت ـ بعنادك ـ تقايضه بطلب العلم في الواحة فوجهت لي طعنة ربما من حيث لا تدري.

ـ ربما ولكن لم يكن بوسعي أن أغير مجرى الأحداث. لم أستطع أن أواجه القوى التي كانت تدفعني وقتها.

ساد الصمت مرة أخرى.

قال دون أن ينظر في عينيها:

ـ ولكن لحظة فراقنا الأبدي قد أزفت. يجب أن تستعدي.

قالت وهي تفرك يديها بعصبية:

ـ فراقنا الأبدي قد بدأ منذ عشرين عاماً مضت.

ـ يجب أن تحضري أمتعتك.

رمقته بنظرة خاطفة. قالت بعد صمت:

ـ إذن هو الرحيل. تريد أن تتخلص مني؟

هزّ رأسه موافقاً دون أن يرفع عينيه عن الجمر المتوهج.

عاد الصمت يخيم.

قالت وهي تحاول أن تصطاد نظرته في ضوء الجمر الخافت:

ـ أنت إله الصحراء. تستطيع أن تفعل بي ما تشاء. ربما ضعت في الخلاء. ربما ابتلعني نهر النيجر ولكن الذي أعرفه انني أضيع مرة واحدة. أما أنت..

بلعت ريقها قبل أن تضيف:

ـ أنت ضائع منذ زمان، ضائع الآن، ضائع إلى الأبد. ضياعك هنا.

خبطت بسبابتها على صدرها قائلة:

ـ إنه أقسى ضياع. أنت مسكين يا شيخ غوما. ليس هناك من أحق منك بالشفقة!

ظل صامتاً يحدّق في الجمر الذي بدأ يخبو وتعلوه طبقة الرماد.

عندما ودعته في مدخل السور الجريدي قالت:

ـ يجب أن تدبر أمرك. الماء في البئر يشرف على الجفاف!

(٣٨)

تطوع أمغار لمرافقة باتا في رحلتها إلى ديار أهل المرحوم زوجها الأول في «آير».

وبعد يومين من مغادرتها عثر الأهالي على أخنوخن مسنداً ظهره إلى البئر يحدق في الفراغ وقد غطى البياض مقلتيه.

كان قد مات في الليل.

أما آيس فقد حاول أن يلقي بنفسه في البئر بمجرد أن علم بالخبر فاضطر الشيخ غوما أن يقيد يديه ورجليه ويتركه هكذا طوال يومين كاملين. وعندما أطلق سراحه تسلل في الليل وشرب زجاجة الكيروسين محاولاً الانتحار.

جلست العجوز فوق رأسه ليلة كاملة تسقيه المراهم والزيوت اللازمة لغسل المعدة.

في حين دفنت أم أخنوخن ابنها البكر وطفقت تنتظر أمغار شهراً، شهرين، ثلاثة أشهر. يئست فالتحفت بردائها الأسود ولجأت إلى بيت الشيخ غوما.

وجدته يجلس في العراء خلف البيت بعد أن عاد من فحص مستوى الماء في البئر.

لقد أصبح فحص الماء عملاً يومياً.

قال وهو يشعل النار ويستعد لتحضير الشاي الأخضر بنفسه:

- هل من أخبار؟

تجاهلت سؤاله وقالت وهي تشد اللحاف على وجهها.

- الدنيا قارصة بالليل. الشتاء قاس ومبكر هذا العام.

قال وهو يداري خجله من نفسه بشد اللثام على وجهه:

- نعم. الطقس متقلب المزاج، لا أحد يستطيع أن يتنبأ في شأنه بشيء!

ساد صمت متوتر طويل.

إنهارت فجأة.

أجهشت في بكاء متواصل مرير.

ظل منكباها ينتفضان بشدة وهي تخفي رأسها بلحافها وتدسه في حجرها.

أحس أن يداً قوية تعصر قلبه عصراً وهو يرى ويسمع ألمها الدفين الذي لم تعد تقدر السيطرة عليه.

قالت وهي تكفكف دموعها:

- سامحني يا سيدنا الشيخ. سامحني بالله. إنها المرة الأولى والأخيرة. أعدك أنني لن أفعل ذلك بعد اليوم أبداً. أنت تعرف... فقدتهم جميعاً. الواحد تلو الآخر. فقدت أبيهم.. وفقدت أخنوخن، وها هو أمغار يختفي إلى الأبد. إنه لن يعود.. أنا أعرف..

- لا حول لله. تذرعي بالصبر. عذر الغائب معه. ربما له العذر.

ولكنها استمرت كأنها لم تسمعه:

- المصائب على رأسي لا تتوقف. سامحني. أنا امرأة. وظروفي لا تسمح لي بأن أودع همّي فوق قمة الجبل مثلك!

أجهشت مرة أخرى، ثم عادت تقول بعد لحظة:

ـ لقد فقدتهم جميعاً وإلى الأبد. حياتي كلها لم يكن لها معنى ولن يكون..

ـ ما كان يجب أن تدعيه يرافقها، تعلمين أي امرأة هي.

ـ حاولت. يعلم الله أني حاولت يا شيخنا ولكنه ركب رأسه فاعتمدت أن تمنعه. أنت ولي أمره. ولي أمرنا كلنا.

ـ يعلم الله أني حاولت أيضاً إقناعه بأن يعدل عن قراره. ولكنه أصرّ. ويعلم الله أيضاً أني شككت في أمره. ولكن لا دفع للمكتوب.

لاذت بالصمت وأضاف الشيخ:

ـ اصبري. الصبر. اعتبري آيس ابنك. أنا ما زلت عند وعدي. لن يعوزك شيء ما دمت على قيد الحياة.

ـ لم أشك في ذلك يوماً.

وضع وعاء الشاي فوق النار وعدل من وضع لثامه على وجهه ورفع رأسه ينظر إلى الأفق البعيد.

* * *

بدأ الاجتماع في المساء، بعد صلاة المغرب.

جاء الشيخ غوما فوجد الشيخ خليل قد سبقه وبدأ في تحضير الشاي الأخضر.

قال وهو يروح الجمر:

ـ إذن، هي الهجرة يا شيخ غوما؟

ـ لم يبق لنا غير ذلك. الرحيل إلى الواحة هو الحل الوحيد الذي بقي أمامنا.

بعد قليل وصل الشيخ آهر.

تقرفص بجوار غوما فوق البساط الفاخر. قال وهو يلتقط أنفاسه:

ـ كنت في زيارة لأم أخنوخن. أمرها يقطع القلب والله.

تمتم خليل وهو يعاود مروحة الجمر:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

قال غوما وهو يتكىء على المخدّة بمرفقه:

ـ لعنة الله على العجز. اسوأ شيء في الدنيا أن ترى إنساناً يتعذب أمام عينيك ولا تستطيع أن تهب لنجدته.

تنهد بعمق وعاد يقول:

ـ قولوا لي بالله: كيف يمكننا أن نخفف من آلامها؟ أخنوخن وأمغار ولدينا أيضاً. إننا نتألم أيضاً ولكن الأم دائماً شيء آخر.

تمتم خليل وهو يحكم اللثام على وجهه:

ـ معك حق. إنها الأم. قلب الأم يحترق. كان الله في عونها.

أراد آهر أن يغير موضوع الحديث فقال يخاطب غوما:

ـ إذن هو الرحيل. لا أستطيع أن أتصور والله كيف يمكننا أن نعيش في الواحة بعد الحياة في الصحراء.

احتمى غوما بالصمت فقال خليل محاولاً أن يضفي على الجو المتوتر روحاً من المرح:

ـ الشيخ غوما أسعدنا حظاً. لقد درب نفسه على الحياة في الواحات من زمان.

أسند غوما رأسه بيده التي يتكىء عليها وقال:

ـ اللجوء للواحة لطلب العلم شيء، والحياة في الواحدة إلى الأبد شيء آخر. هذا أمران يختلفان كل الاختلاف يا شيخ خليل.

سعل وأضاف:

ـ ذهبت وأنا أعلم مسبقاً أنني عائد إلى الصحراء. ولكن الأمر هذه المرة يختلف. ستضطر يا شيخ خليل أن تهجرها إلى الأبد شئت أم أبيت. اللهم إلاّ إذا كنت تطمع في عمر نوح فتنتظر حتى يعود الماء للارتفاع بعد ثلاثمائة عام!

ضحك آهر فأراد أن يلسعه بدعابة. قال وهو يرفع رأسه نحوه:

ـ أراك تضحك يا شيخ آهر. سوف نرى ماذا ستفعل عندما نصل الواحة. سنرى عندما نراك مضطراً أن تلجأ لحرث الأرض وسقي النخيل لتطعم أولادك كما يفعل المزارعون من أهل فزان. ألا ترى يا شيخ خليل أن مشهد الشيخ آهر وهو يفلق الأرض بفأسه أمر مدهش ومثيراً للضحك؟

انخرط خليل ضاحكاً، تبعه آهر أيضاً. ولكن غوما لم يضحك.

قال آهر محاولاً أن يكتم ضحكته:

ـ يا شيخ غوما. لماذا تسبق الأحداث؟ إن الله لا يغلق باباً للرزق حتى يفتح باباً آخر.

انتهز غوما الفرصة وانقضّ على آهر:

ـ هذا ما أقوله بالضبط. ليس لك في الواحة رزق يا شيخ آهر خارج الحقل. ستضطر أنت الفارس النبيل أن ترمي البندقية في المستنقع وتمسك الفأس وتشق الأرض وأنت ترتدي الأسمال الرثة كالمتوسلين كما يفعل أي مزارع. سنرى بعدها كيف ستعالج باب الرزق الجديد الذي ساقه الله لك!

بدا ضجيج ضحكهم يعلو كأيام زمان

عاد غوما يقول وهو يغرق في تفكير عميق:

ـ أتعلم يا شيخ خليل؟ إن السمك في البحر يموت عندما يخرجه الصيادون من الماء، ونحن الآن مثل هذا السمك أو قل عكس هذا السمك: نموت إذا نزحنا من الصحراء. كيف نستطيع أن نطيق حياة أخرى يا ترى؟ كيف نستطيع أن نقلب الأرض ونتطاول في الزراعة؟

جثم صمت كالكابوس.

بمثابة خاتمة

جاء يوم الرحيل فدبت الحركة في المعسكر الكبير منذ الفجر: تعالت أصوات الرجال، واختلطت بهرج الأطفال والنساء وصياح المعيز وثغاء الجديان ورغي الجمال. الجمال التي بركت واستسلمت للأثقال والأمتعة والمؤن والماء صابرة، ساكنة.

انتشر الصبية والصبايا عبر السهل يهشون المواشي ويجمعونها في قطعان كبيرة.

تولت النساء والرجال تجميع الأمتعة وطي الخيم وحزم الأكياس والخرج وإعداد الهوادج والسروج.

استيقظ الشيخ غوما مبكراً. نام البارحة نوماً قصيراً متقطعاً قلقاً كعادته عندما ينتظره السفر في اليوم التالي.

توضأ وصلى وتوجه إلى البئر قبل أن يشرب كوب الشاي الأخضر.

دار حول البئر مرتين وهو يحاول أن يتبين، عبر عتمة الفجر، كل حجر مثبت في سوره الصخري. ملأ عينيه من الأحجار الكبيرة المصقولة الصماء، ثم تناول حجراً وألقى به في متاهة البئر. ظل يستمع محاولاً أن يتبين ضجيج الماء عند سقوط الحجر. لم يسمع شيئاً كأن الحجر لم يسقط، كأن البئر أصبح بلا قاع.

البئر أصبح بلا ماء.

انحنى فوق فوهة البئر فلم يبصر سوى الظلام. ذهب حتى المقبرة، وقف يتمتم بالفاتحة على أرواح الأموات.

ثم سار بحذاء الجبل وجلس أسفل السفح.

ارتفعت الشمس.

غمره حنين غامض في أن يتسلق الجبل. يعرف أن ذلك يستغرق يوماً كاملاً في الصعود والنزول. تمنى لو يستطيع أن ينزل من الجهة الشمالية الشرقية لينضم إلى القافلة ويختصر الطريق، ولكن الصخور العالية الملساء في تلك الناحية تجعل النزول مستحيلاً.

تحركت القافلة الكبيرة. رأى الشيخ خليل يشير له بيده أن يلحق بهم.

ولكنه استمر جالساً يجول ببصره في متاهة العراء التي تنبسط وتمتد إلى الأبد.

غابت القافلة عن الأنظار فوقف لكي يلحق بالركب. تحرك ببطء كأنه ينزع رجليه من الأرض نزعاً، يزحزح قدميه كأنه يجر صخرة كبيرة.

سار متثاقلاً مثل محكوم بالإعدام، يدفع، مجبوراً، لكي يخطو نحو المشنقة.

نهاية الرواية الأولى
وارسو ـ كرينتسه (جبال كاربات)
بين يناير وابريل 1986م

بعد موت تانس سليلة القمر التي انتقمت من الصحراء بتفجيرها النبع الذي روّى عظام أخيها أطلانتس وغيّر وجه الأرض، عادت الكواكب للتآمر على القمر، فغمرت إمبراطورية أطلانطيدا بالغبار، وأبادت حضارتها الخرافية. بئر أطلانتس ظلّ تحت أمرة القمر فخضع لفترات نضوب، مع خسوفه. وظلّ بشر الصحراء الزرق الذين ارتضوا أغلى ثمن للحرية تحت جبروت الطبيعة وكهنوتها، لعنتها وقداستها: ومن رمالها نسجوا حكاية نبالتهم وثوب أساطيرهم الجليلة وضمّخوا ماءها النادر بدمائهم الساخنة.

بعد عشرات ألوف السنين نفّذت الصحراء انتقامها الأخير. نضب البئر. فهل تعود تانس أم أن اللعنة حلت إلى الأبد؟

البئر هي الحركة الأولى في رباعية الخسوف. وهي ملحمة تدمج الحاضر بالأسطورة، وتحقّق المعادلة الصعبة بين الأصالة والمعاصرة. في رؤية تسائل التاريخ وتمسح زمناً يقارب القرن بمنظار مكبّر وبرؤية فكرية واسعة. لتضع كاتبها بين أهم الروائيين العرب المعاصرين.

تاسيلي للنشر والاعلام

دار التنوير للطباعة والنشر